وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة العقيد الحاج لخضر- باتنة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

المقاييس الأسلوبية عند الزمخشري من خلال تفسيره الكشاف

دراسة وصفية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة

إعداد الطالب:
أحمد ازهاري بلخضر

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد القادر دامخي

1425 هـ / 2004 م

بسم الله الرحمن الرحيم

يَرْفَعُ الله الذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالذِينَ

أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ

سورة المجادلة(الآية 11)

المقدمـــة :

بسم الله الرحمن الرحيم
و الصلاة و السلام على رسوله الكريم

لقد درجت الدراسات التي تطرقت إلى كتـاب الكشـاف - في العمـوم – في البحث عما يشتمل عليه هذا المصنف من موضوعات مختلفة ، و كل منها قـد انفرد بعلم من العلوم أو بفن من الفنون ، و ذلك كما فعل على وجه الخصـوص الدكتور محمد حسين أبو موسى في كتابه : (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري) و الذي سنسهب في الكلام حوله في التمهيد ، و كذا ما قام به الدكتور مصطفى الجويني في كتابه (منهج الزمخشري في تفسير القرآن و بيان إعجازه) و سنتعرض إلى هذا المصنف أيضا بنوع من التفصيل في التمهيد .

إضافة إلى ما سنذكر من مصنفات ألفت حول هذا المصـنف و غـيره مـن مصنفات الزمخشري .

نود القول إنه بالرغم من هذا الاهتمام الكبير لما قدمه الزمخشري في تحليل الخطاب القرآني ، فإنه لم يتجرأ أحدهم في الخوض في إلتماس ملامح الدراسـة الأسـلوبية الحديثة في هذا المصنف، وحبا منا في خوض هذه المغامرة التي – على حد علمنـا المتواضع – لم يخضها قبلنا حتى الآن أحد من الدارسين بنفس الموضوع و بـنفس الطريقة ـ على مبدأ الاحتراز ـ إن وجدت هذه الدراسة .

و مما زاد في قوة أسباب طرقنا لهذا الموضوع هو ما ذُكِر من ميـزات علميـة وصف بها الزمخشري و تميز بها عن أقرانه في فترة تواجده و حتى يومينا هذا .

وتبقى الرغبة -الجامحة فينا – في خوض هذا الموضوع هي الدافع القوي للوقوف على ما شاع ذكره في معظم الدراسات التي تعرضت للبلاغة في كشاف الزمخشري

وهو أنه قد احتوى على نظرية النظم التي عُرِفَ بها عبد القاهر الجرجاني في الجانب التنظيري .

ومما لا يخفى على ذوي العلم و المعرفة بالدرس الأسلوبي أنه يضع في جملة اهتماماته جل العناصر المكونة للخطاب ، بدءا بأبسط مكوناته (حرف ثم الكلمة ثم الجملة ثم الصورة ...الخ) و كل هذا من أجل الوقوف على الطرق المختلفة لعملية التواصل بين الباث والمتلقي .

وباجتماع هذه الدوافع الثلاثة : حب المغامرة في طرق ما هو صعب و جديد ، وما تميز به المصنف و صاحبه من مِيزَات أشاد بها الدارسون – إخترنا هذا الموضوع و أوسمناه بـ (المقاييس الأسلوبية عند الزمخشري من خلال الكشاف، دراسة وصفية) .

ولا ندعي أننا نمتلك معاول جديدة غير معروفة لإقتحام هذا المصنف من جوانب كثيرة (صرفية ونحوية ودلالية وصوتية وبلاغية)، إلا أننا نستطيع القول بإن محاولتنا هذه قد كست هذه الجوانب أثواب جديدة، بعضها منسوج من خيوط الدرس البلاغي القديم ، و بعضها الأخر حِيكَ من خيوط الدرس الأسلوبي الحديث. و لعل هذه الخيوط تكمن في تبنينا لمصطلحي الإنزياح والسياق في صفتهما أوضح دلالة و أشمل في الاحتواء لعناصر الخطاب في الدراسة والتحليل, وقد تكرر هذا معنا بنسبة كبيرة أثناء وصفنا على وصف الزمخشري لظواهر الأسلوبية أثناء معالجته للجمل و التعابير القرآنية .

نعيد القول: إننا إخترنا هذا المصنف لننطلق في تتبع ملامح الدرس الأسلوبي، وذلك من خلال أراء الزمخشري المبثوثة بين طياته ، و التي تتناول قضايا متنوعة أجملناها تحت العنوان السابق ؛ و قسمناها إلى فصول أربعة ، تقدمها تمهيد كان بمثابة تعريف لعناصر البحث الثلاثة (المقياس، الأسلوبية، الزمخشري، الكشاف).كما كان في وجهه الآخر اعترافا بجهود الدارسين قبلنا الذين تناولوا

مصنفات الزمخشري بعامة و كشافه بخاصة و ذلك حتى نعطي البحث العلمي حقه في تأصيل الجهود المبدولة في الموضوع المطروق للبحث و الدراسة .

وتلا هذا التمهيد الفصل الأول ، ضمناه مباحث ثلاثة و هي (المصدر والاسـم والفعل) و استثنينا بذلك الحرف لأنه سيكون محور الدراسة الدلاليـة في الفصـل الثالث من هذا البحث .

وقفينا الدراسة الصرفية هذه بفصل ثان تناولنا فيه الدراسة النحوية، حيث كان الحديث فيها حول مستويات ثلاث و هي (مستوى المعايير و مستوى الإختيارات و مستوى الإنزيحات).

تم أعقبنا هذه الدراسة بفصل ثالث عالجنا فيه الجوانب الدلالية لكل من (الحرف والكلمة والجملة) .

و بعده ختمنا هذه الفصول بفصل رابع احتوى مضمونه الجانب التواصلي لمختلف عناصره (الصوت و الصورة و التراكيب) أو بعبارة أدق مستوىالتواصل بالصوت، و مستوى التواصل بالصور ، و مستوى التواصل بالتراكيب .

و قد إحتوى كل مبحث على محاور و عناصر كثيرة نحن في غنى عن دكرهـا في هذه العجالة .

وطبعا ختمنا هذه الفصول بخاتمة لم نذكر فيها نتائج بعينها بقدر ما ضـمناها ملاحظات وصفية لمقاييس أسلوبية حاول الزمخشري فيها الإلمـام - في دراسـته للجمل القرآنية – بكل معاول الدراسة و التحليل .

ومما لاشك فيه أن صعوبة هذا الموضوع تكمن في جدته من جانـب و دقـة مسالكه من جانب أخر، و كذا ُبعد زمن صاحبه عن عصرنا الحديث مما جعلنـا نقف بين قديم يستخدم مصطلحات قديمة و لكن فكره حديث، و بين إستخدامنا لمصطلحات حديثة نكون قد حملناه وزرها إن لم نفهم فحوى مراده و لب إعتقاده ولكن الذي ُيعزينا في هذا هو تحرر فكره في الكثير من الأحيان من قواعد وقوالب

الفكر البلاغي القديم من جهة ، و رؤيته الطموحة لتجاوز الواقع الموروث من جهة ثانية ، و كذا كونه صاحب فكر منطقي في تحليل الأشياء ، الأمر الذي يقرب إلى النتائج الموضوعية المنشودة من قبل الدرس الأسلوبي الحديث .

ولا نبخل بالذكر أننا في تدليل الصعوبات التي صدفتنا إستعنا بمجموعة مـن المراجع التي كانت النبراس الذي أنار سبيلنا في بدء الطريق ، و بخاصة تلك الـتي تناولت بلاغة الزمخشري و منهجه في الكشاف ، و قد سـبق ذكرهـا في هـذا الحديث.

كما لا ننسى أننا استعنا بالرغم من قلة الدراسات الأسلوبية التطبيقيـة ، بـل التطبيقية الاستقرائية ،بدراسة أسلوب الشوقيات لمحمد الهادي الطرابلسي في بعض جوانب المنهج و التصنيف ، و لكن كان اعتمادنا أكثر على مجهودنا الخـاص في الكثير من جوانب الدراسة التطبيقية الاستقرائية .

كما لا ننسى في ختام هذه الكلمة أن نشكر كل من قدم يد العون لإنجـاز هذا العمل من قريب أو بعيد و بخاصة أستاذنا المشرف عبد القادر دامغي أحاطه الله بالعناية ووفقه إلى حسن التدبير .

الطالب أمد لزعاري بلÂÁر

قبل الولوج في تبيان جهود الزمخشري في تناوله لأسلوب القرآن الكريم ـ وفقا لبعض المقاييس التي سيتطرق إليها هذا البحث بنوع من التدقيق ـ يجدر بنا التعريف بالعناصر المكونة لعنوان هذا الموضوع .

يتركب عنوان هذا الموضوع ـ كما هو بين ـ من عناصر أربعة : (المقياس ، الأسلوبية ، الزمخشري ، الكشاف) .

أولا : المقياس :

يشتق (المقياس) ـ كما هو وارد في معاجم اللغـة ـ من مـادة (ق ي س) فيقـال:« ...قاس الشيء يَقِيسُهُ قَيْسًا و قِيَاسًا و اقْتَاسَهُ و قَيَسَهُ إذا قدّره ... » [1]. فالمقياس ـ هو إذن ـ في اللغة يعني المقدار، أو ما قيس به، و تسمى العملية الإجرائية للتقدير بين الشيئين بـ (المقايسة) أو (القياس)، وعليه يقال:« ...قايستُ بين شيئين إذا قادرتُ بينهما.. » [2]، وهذه المقادرة مما لا شك فيه أنها ترتكز على المشابهـة في البحث عن عناصر الاتفاق و الاختلاف في النتيجة، فيقال « : .. هذا قياس ذاك إذا كان بينهما تشابه » [3] .

وإذا عرجنا على المعاجم الفلسفية وللاثنا عن ماهية هذا المصطلح (مقياس) فإننا نجدها تنطلق من صيغة واحدة هي (القياس), ويُعرف في العموم دون الخصوص في كونه:« تقدير الشيء المـادي والمعنوي بواسطة وحدة معينة لمعرفة عدد ما يحتويه من هذه الوحدة » [4] .

وللربط بين عناصر هذا التعريف وما ورد في اللغة, فإننا نجدها تتقاطع في نقطة واحدة, وهي في اللغة: (المقدار), و في المصطلح الفلسفي: (الوحـدة), كمـا أن لكل من المقدار والوحدة وجوب تعيين, فلا يقاس على شيء غـير معلـوم,

1 ـ ابن منظور, لسان العرب, دار صادر, بيروت, 1992 م, ط1, مادة (قيس), ص187.
2 ـ المرجع نفسه .
3 ـ جميل صليبا, المعجم الفلسفي, دار الكتاب, لبنان, 1982 م, د ط, ص.207
4 ـ عبد المنعم الحفني, المعجم الفلسفي, الدار الشرقية, 1990 م, ط1, ص267 .

وعليه يقال: « ... قيسُ رمح و قاسُه, خشبة قيسُ اصبع, قيسُ شبر ...الخ » [1]
كما اشترط في الشيء المادي أن تكون وحدته (معينة) أي محدودة المعالم. ولا نبالغ القول إذا قلنا: إن لكل شيء مادي أو معنوي معايير ومقاييس يستند إليها في معرفة المقادير التي تحدد طبيعته ومعالمه في مختلف مكوناته المادية و المعنوية .
و منها يمكن تبرير اختيارنا المقاييس المعلومة في جل الدراسات اللغوية لأي خطاب في جوانبه الصوتية, النحوية, الدلالية و البلاغية.

وعليه تبنى علاقة التجاور و التآلف بين كل من مصطلحي (المقاييس) و(الأسلوبية)، هذه الأخيرة التي سنحاول التعرف على ماهيتها في العنصر الموالي .

ثانيا ـ الأسلوبية (STYLISTIQUE) :

يتركب هذا المصطلح من ثنائية أصولية جذرها الأسلوب (Style) و لاحقته (ية)، (Ique)، وعليه يكون فالأسلوب في صفته «...ذو مدلول إنساني ذاتي، و بالتالي نسبي ...» [2] وتكون اللاحقة التي تلتصق به تعني «...البعد العلماني العقلي، وبالتالي الموضوعي ...» [3] .

وإذا أردنا البحث عن المعالم الموضوعية التي تنشدها هذه الدراسة ، يجب أن نتعرف أولا, و قبل كل شيء على ماهية الأسلوب في كونه المادة الخام التي تسعى هذه الدراسة في الوقوف على الجوانب العلمانية فيه، وعليه نطرح السؤال التالي : ما هو الأسلوب ؟

ينحدر الأسلوب لغة من المادة (س ل ب) ويحمل معاني متقاربة الدلالة في وجهها العام فيقال: « للسطر من النخيل، أسلوب، كما يطلق الأسلوب على الطريق والوجهة والمذهب» [4]، « ويقال: للمتكبر، أنفه في أسلوب، إذا لم

---

1 ـ ابن منظور, اللسان, مادة (قيس), ص187 .
2 ـ عبد السلام المسدي, الأسلوبية والاسلوب, الدارالعربية للكتاب, 1982 م, ط2, ص34 .
3 ـ المرجع نفسه .
4 ـ ابن منظور, اللسان, مادة (سلب), ص473 .

يلتفت يمنة و لا يسرة»[1] ويقال أيضا «...سلكت أسلوب فلان، طريقته وكلامه على أساليب حسنة»[2]، وأقرب معنى لغويا من ماهية الأسلوب قولهم: «...أخذ فلان في أساليب من القول : أي في أفانين منه...»[3]، هذه الأفانين في القول هي التي حاول الدارسون للأسلوب تحديد معالمها في عبارات موجزة قديما وحديثا، ففي القديم«...كان يلحظ في معناه ناحية شكلية خاصة هي طريقة الأداء، أو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه، أو لنقله إلى سواه لهذه العبارات اللغوية...»[4]، وتعرف طريقة الأداء و التعبير عند بعض الدارسين القدماء بكونها أسلوبا، وهو:« الضرب من النظم والطريقة فيه..»[5] وتتنوع هذه الطريقة وتتعدد فتشمل مجموعة من العمليات الإجرائية أصبح الأسلوب يعرف بها : «...فهو طريقة الكتابة أو طريقة الإنشاء أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير...»[6]. وطريقة التعبير التي أوجزها أحمد الشايب في هذه العبارات في محاولة لتحديد ماهية الأسلوب أسالت حبر كثير من الدارسين - و بخاصة الغربيين منهم - فقد بلغت كما قيل«...إلى نيف وثلاثين تعريفا...»[7]، والمجال لا يسمح لسرد هذه التعريفات جميعها، و لكن الذي يجب أن يشار إليه في هذا كله، هو وجود اختلاف بين وجهات نظر هؤلاء الدارسين في تحديد ماهية الأسلوب وحقيقته، وذلك انطلاقا من التصور الفلسفي الذي يرتكز عليه

---

1 - الزمخشري, أساس البلاغة, تحقيق عبد الرحمان محمود, دار المعرفة, بيروت, لبنان, 1982 م, د ط, ص217 .

2 - المرجع نفسه .

3 - ابن منظور, اللسان, مادة (سلب) ص473 .

4 - أحمد الشايب, الأسلوب, مكتبة النهضة المصرية, 1966م, ط6, ص44 .

5 - عبد القاهر الجرجاني, دلائل الإعجاز, تصحيح محمد رشيد رضا, دار المعرفة, بيروت, لبنان, 1981م,د ط، ص361 .

6 - أحمد الشايب, الأسلوب, المرجع السابق, ص 44 .

7 - صلاح فضل, علم الأسلوب, مؤسسة مختار للنشر و التوزيع, القاهرة, 1992م, د ط, ص 84 .

كل دارس على حده[1]، و إذا كان لا بد من الوقـوف علـى تعريـف شـامل للأسلوب ـ بناء على ما جادت به قرائح هؤلاء الدارسين ـ تقول إن خلاصة ما نستنتجه من مجموع هذه الآراء أن الأسلوب هو موقف يتخـذه الكاتـب نحـو موضوع ما، فيعبر عنه باللغة في شكل بناء للمعاني مرتبة تتميز بالنـدرة، والدقـة الناجمة عن عملية الاختيار و الانتقاء المصحوبة، أو المشحونة بقوة الضغط المبنيـة على التقدير المميز والمتجدد البارز في الشكل الدائم للخطاب الذي يعبر به الإنسان و الكاتب عن روحه وشخصيته؛ إن نظمنا لهذا الزخم من العبارات المأخوذة مـن مجموع آراء الدارسين ـ في محاولة لتحديد ماهية الأسلوب ينم عن عدم اتحاد آراء هؤلاء الدارسين لا لشيء إلا لأنهم حاولوا تعيين حدود ما هو متغير، وهذا مـن الصعوبة بمكان، وعليه يبقى المجال ـ في تعريف الأسلوب ـ مفتوحا أمـام كـل دارس متعمق .

وإذا كانت هذه هي وضعية ماهية (الأسلوب) من منظور بعض الدارسين له، فما هي يا ترى حالة مصطلح (الأسلوبية) في صفتها الدراسة التي تتناول الأسلوب بالدرس والتحليل ؟

تطالعنا كتب الدراسات الأسلوبية ـ في مجال تحديد ماهية الأسلوب ـ بزخم كبير من آراء العلمـاء والدارسين ـ لا يسع المجال لذكرها جميعا ـ غير أنه يمكننا إجمالها في موقفين اثنين :

الموقف الأول : يحاول فيه أصحابه الوقوف على المنهج الذي يسلكه الدارس لأسلوب الخطاب مصحوبا بالوظيفة المنوطة بهذا المنهج، وهذا الموقف يمكن الإشارة إليه من خلال المقولات التي تصف الأسلوبية في كونها: منهجا لسانيا[2]

---

[1] ـ أراء كل من شارل بالي, بييرجيرو, بيفون, أ.ف تشترون, دلامبير,جيراو, ريفاتير, جاكبسون, أولمان, بارت, أفلاطون, سينيك, ريسوت, مجدي وهبة...إلخ .

2 ـ ينظر، المسدي, المرجع السابق, ص48، القول لدولاس، مأخوذة من مقدمة كتاب ريفاتير ص12.
ESSAIS DE STYLISTIQUE STRUCTURALE .

أو«...علما لسانيا يعتمد على القواعد البنيوية في دراسة اللغة...» [1] أو هي «...لسانيـات تعنـى بظـاهـرة حمـل الذهـن على فهـم معيـن و إدراك مخصوص...» [2] أوهي«...علم خاص موازيا لعلم اللغة يبحث في الظواهر نفسهـا...» [3] أو هي«علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب...» [4].
فإذا كانت حدود الأسلوبية في المقولات الثلاثة الأولى ـ تكاد تتحد في اللغة والمعنى في تعيين المنهج الذي يسلكه دارسو الأسلوب أثناء تناولهم للخطاب، فإن عمومية المنهج في المقولتين الأخيرتين هو الذي يدرس اللغة في كينونتها داخـل نظـام الخطـاب.

وبانتقالنا إلى **الموقف الثاني** من التعريفات التي تحاول تبيان ماهية الأسلوبية من خلال الوظيفة فحسب، نجدها تبـرز في المقولات الآتية التي تحـدد وظيـفة الأسلوبيـة :« البحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب...» [5], أو في«...البحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا...» [6], أو هي«... وصف للنص الأدبي

---

[1] – المسدي, المرجع السابق, ص56 .
[2] ـ , المسدي, المرجع نفسه, القول لريفاتير, ص 49 , مأخوذ من ص 146 .
. ESSAIS DE STY LISTIQUE STRUCTURALE .
3ـ عدنان حسين قاسم، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي ،دار ابن كثير،دمشق ،بيروت, لبنان، 1992م, ط1، ص.98
[4] ـ منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، منشورات إتحاد الكتاب العرب، 1990 م ، ص 148 .
[5] ـ المسدي، المرجع السابق ، القول لميشال ايرفاي, ص 34،من مقدمة كتاب ريفاتير ص 12 .
ESSAIS DE STYLISTIQUE STRUCTURALE.
[6] ـ المسدي، المرجع نفسه، القول لرومان جاكسون ص 37، مأخوذ من الجزء الأول ص 210 .
RIFFATERRE : ESSAIS LINGUISTIQUE GENERALE

حسب طرائق مستقاة من اللسانيات» [7], أو هي«...الإجابة عن السؤال بالأسباب والعوامل الأساسية المسئولة عن اختلاف الأساليب..» [8].

ومن خلال هذين الموقفين نحاول الخروج بتعريف موحد لqسلوبيـة في جانبيهـا المنهجـي والوșيفي، فنقول: إن الأسلوبية هي عبارة عن دراسة لغوية تعتمد على المناهج العلمية بعامـة والمنهج اللساني بخاصة في البحث عما يتميز به الكلام ـ عن سائر مستويات الخطاب بخاصـة وسائر الفنون الإنسانية بعامة ـ من خصائÕ ومميزات، ومحاولـة الإجابـة عن الأسبـاب والعوامل التي أوجدőا وفقا لqسس الموضوعية. إذا حاولنا الربط بين علاقة هذه النتيجة التي توصلنا إليها في تعريف الأسلوبية وما حددناه من مقاييس للدراسة في هذا الموضوع لوجدنا اللغة هي العامل المشتـرȃ في شكلهـا الحرفـي واللفظي والجُمَلِي، وما يترتب عليها من تغيرات داخل النظام العام للخطاب و كذا الخصائÕ والمميزات التي تطبع هذه التغيرات, وما يتبع ذلك من تبريرات و ơرƶـات عمادهـا الدقـة والموضوعية. إنه من الواضح أن تكون هذه هي الأدوات الأولية لتحليل أي خطـاب كان، وتبقى القدرة في هذا التحليل ملقاة على عاتق المحلل لهذا الخطاب وما يمتلكه من معاول فطرية ومكتسبة يستند إليها في عملية التحليل، ولعل هذا ما سنتعرف عليه في معالجتنا للعنصر الثالث من العناصر المكونة لعنوان موضوعنا هذا.

ثالثا : الزƞشري :

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري نسبة إلى زمخشر قرية من قرى خوارزم، ولد في السابع من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة للهجرة (467 هـ) في مسقط رأسه زمخشر، لأبوين تقيين صالحين، كما صورƵا في

[7] ـ المسدي، المرجع السابق، القول لميشال ايرفاي, ص 48 من مقدمة كتاب ريفاتير،ص12 .

[8] – عدنان حسين قاسم, الاθاه الاسلو

[1] ـ ينظر أشعاره في أبيه وأمه.

[2] ـ القفطي, انباه الرواة على أنباء النحاة, تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, دار الكتب المصرية, القـاهرة, 1950م, د ط, ج3, ص273 .

شعره[1]، فشب بينهما على خلق حسن، فلما اشتد عوده رحل إلى بخارى طلبا للعلم والمعرفة[2]، ومن أشهر مشايخه الذين أخذ عنهم العلم: (محمود بن جرير الظبي الأصفهاني أبو مضر النحوي) المتوفى سنة (507هـ)، الذي«...كان يلقب فريد العصر، وكان وحيد دهره وأوانه في علم اللغة والنحو يضرب به المثل في أنواع الفضائل. أقام بخوارزم مدة وانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه وأخذوا عنه علما كثيرا، وتخرج عليه جماعة من الأكابر في اللغة والنحو، وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها، فاجتمع الخلق لجلالته و تمذهبوا بمذهبه...» [1] , وكان الزخشري من بين هؤلاء الذين لازموه وتأثروا به، واعتنقوا الاعتزال مذهبا في التقليد ، والتأليف، وتعصب له تعصبا كبيرا حيث يروى أنه كان إذا قصد صاحبا له، واستأذن في الدخول يقول لمستأذنه: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب[2].

وإلى جانب شيخه الظبي نجده قد اتصل - وهو ببغداد[3] - ببعض المشايخ المحدثين وسمع منهم مثل: أبي الخطاب بن البطر[4]. وأبي سعيد الشقاني[5]، وأبي منصور الحارثي[6].كما اتصل بالفقيه الحنفي الدامغاني[7]،وكذا بالشريف بن الشجري[8].

ولما أقام أقامته الأولى بمكة قرأ كتاب سيبويه على عبد الله بن طلحة اليابري المتوفى سنة (518هـ)[9].

---

1 - ياقوت, الحموي، معجم الادباء, نشر عيسى البابي، القاهرة، 1936م، دط، ج19, ص123 , 124 .

2 - ينظر ابن خلكان, وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, ج2, ص108 .

3 - ينظر أبو الفداء, المختصر في أخبار البشر, القسطنطينية, 1286هـ, د ط, ج3, ص17 .

4 - ينظر السيوطي, طبقات المفسرين , مطبعة أوروبا, ص41 .

5 - ينظر السيوطي, بغية الوعاء, مطبقة السعادة, 1326هـ, د ط, ص388 .

6 - ينظر المرجع نفسه , ص388 .

7 - ينظر القفطي, انباه الرواة, ج4 , ص268, و ابن خلكان, وفيات الاعيان, ج2, ص107

8 - ينظر ابن الأنباري، نزهة الألباب في طبقات الأدباء، مصر، د ت، دط ،ص 470.

9 - ينظر السيوطي, بغية الوعاة، المرجع السابق، ص 284.

ولم يغرف الزمخشري في تحصيل علومه وثقافته من معين واحد بل نجده ينــوع في مصــادره ويقرأ لكثير من علماء النحو والبلاغة؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر نجده يذكر في مصنفاته كثيرا من علماء النحو والبلاغة, أمثال: إبن جني وأبو عبيدة, وثعلب، والزجاج وسيبويه، والفراء ، والمبرد ، وعبد الله بن المعتز، ويعقوب بن السكيت، وابن المقفع، والجاحظ، وابن قتيبة، وعبد القاهر الجرجاني، وغيرهم كثير[1] .

وتحت هذا التأثير المباشر وغير المباشر بالعلماء الأجلاء نشأ الزمخشري نشأة علمية جمع فيها بين الأدب واللغة والنحو وطرق الكلام في ظل مذهب الاعتزال هذا المذهب الذي جعله يحترم العقل ويكره التقليد في نقل علوم الدين عن طريق الروايات دون تمحيــص وإجالة فكــر، فيقــول:« ...إمـا في دينك تحت راية السلطان، ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان، فالأسد المحتجب في عرينه أعز من الرجل المحتج على قرينه، وما العير الجرباء تحت الشمال البليل أذل من المقلد عند صاحب الدليل...وجامع الروايات الكثيرة ولا حجة عنده مقوية أوقر ظهره بالحطب وأغفل زنده... » [2].

تتلمذ على يدي الزمخشري مجموعة من علماء اللغة والأدب أمثال: محمد بن أبي القاسم الملقب بزين المشايخ، والذي كان إماما في الأدب وحجة في لسان العرب[3]، وكذا يعقوب بن علي بن محمد بن جعفر أبو يوسف البلخي أحد أئمة النحو و الأدب[4] و مثله علي بن محمد بن علي بن أحمد بن مروان الملقب للاجة الأفاضل و فخر المشايخ[5]. كما أفاد منه أيضا الموفق بن احمد بن أبي سعيد إسحاق المعروف بأخطب خوار زم. الذي كان متمكنا في العربية غزير العلم فقيها

---

1 ـ ينظر القفطي, انباه الرواة, المرجع السابق، ج3، ص 270.

2 ـ الزمخشري, شرح مقامات الزمخشري, بمصر، 1325هـ, ط2، ص 38.

3 ـ ينظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، المرجع السابق، ج01، ص 05.

4 ـ ينظر المرجع نفسه، ج20، ص 55.

5 ـ ينظر المرجع نفسه، ج15، ص 61 و ما بعدها.

فاضلا أديبا وشاعرا[6]، إلى جانب هؤلاء التلاميذ يذكر المؤرخون[7] عددا كبيرا من المتتلمذين على يدي الزمخشري لا يسمح اŎال لسردهم جميعا لأن الهدف من وراء هذا هو تبيين قدرة الرجل في التأثير والتأثر علميا وفكريا بصفة عامة، وتبيين مصادر ثقافته بصفة خاصة، حتى يتسنى فيما بعد الربط بين علمه وعمله في الكشاف.

وقد توفي الزمخشري بخوارزم عن عمر يناهز واحدا وسبعين سنة ، في ليلة عرفة في الثامن والثلاثين بعد المائة الخامسة للهجرة (538هـ) و ترő لنا إرثا كبيرا من المعارف المتنوعة في الأدب واللغة والنحو والعروض والدين، سجلتها لنا الكتب التي أرخت لحيـاة الزمخشري فمنهـا ما هو معلـوم، ومنها ما هو غير معلوم. نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر؛ في مجال الأدب نذكر: نوابغ الكلم، وRسون مقامة في النصح والإرشاد، وأطواق الذهب في المواعŞ والنصائح والحكم ومكارم الأخلاق، وديوان شعر مخطوط، وربيع الأبرار ونصوص الأخبار في الأدب والتاريŇ و العلوم، ونصائح الصغار والبواŊ الكبار، ونزهة المستأنس،وديوان الرسائل، وديوان خطب، وديوان التمثيـل، وتسليـة الضرير، ورسالة الأسرار، والرسالة الناصحة، وسوائر الأمثال، ورسالة المشأمة، وعقل الكل وكتاب الأجناس.

أما في مجال النحو فقد خلف لنا على سبيل الذكر: كتاب المفصـل، وكتـاب الأنمـوذج، وشرح أبيات سيبويه، وكتاب المحاجاة بالمسائل النحوية، والأحاجي النحوية، وكتاب مقدمة في الأدب الذي في أكثره يعاž قضايا نحوية، و كتاب نكت الإعراب في غريب الإعراب، وهو في غريب إعراب القرآن، وكتاب الأماБ في النحو، وكتاب المفرد والمركب أو المؤلف، وكتاب شرح بعض مشكلات المفصل، وأما في مجال اللغة فنذكر له الكتب الآتية: أساس البلاغة، الفائق في غريب الحديث، الجبال والأمكنة والمياه، أعجب العجب في شرح لامية العرب، المستقصى

---

[6] ـ ينظر السيوطي، بغية الوعاة، المرجع السابق, ص401.

[7] ـ ينظر ياقوت الحموي، القفطي، السيوطي، ابن خلكان، السمعاني .

في أمثال العرب، جواهر اللغة متشابه أسامي الرواد، صميم العربية، معجم عربي فارسي، وأما في مجال العروض والموسيقى الشعرية فقد خلف لنا كتابه المشهور القسطاس[1].

وأما في مجال الدين والقضايا الفقهية فنجده قد ترك لنا مصنفات كثيرة نذكر منها ما يلي:...رؤوس المسائل (و هو في الفقه), معجم الحدود (في الفقه) المنهاج (في الأصول)، ضالـة المناشـد والرائد في علم الفرائض، مختصر الموافقة بين أهل البيت و الصحابة، شقائق النعمان في حقائق النعمان (وهي في مناقب أبي حنيفة)، شافي الغي من كلام الشافعي ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .

من خلال هذا القدر الوافر من المصنفات المختلفة في شتى مجالات العلم و المعرفة تتبين لنا ثقافة الزمخشري الواسعة الموضوعات والمتعددة المشارب، والثقافات، والتي ضمنهـا حـرية الفكـر وإجراء الحوار في طرح و مناقشة القضايا التي يتناولها، مستندا في ذلك إلى قوة ذكائه وسعة اطلاعه وقوة حجته، وقدرة استنباطه للمعاني مع براعة فائقة في الجدال و إفحام الخصوم كما يتميز بجرأة كبيرة في إبداء فكره وتطبيقه في كتاب الله تعالى، كما سيأتي ذلك عند تناولنا لتفسيره الكشاف ضمن العنصر الرابع و الأخير من موضوع دراستنا هذه.

رابعا : الكشاف

إن كتاب (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه لتأويل) يعود إلى نسخ كثيرة منتشرة في مدن مختلفة من العالم في مثل: برلين، و باريس و ميونخ و الجزائر، و المتحف البريطاني، و أيا صوفيا، و القاهرة و فاس و تونس وغيرها من مدن العالم التي استقرت بها نسخ الكشاف .

[1] ـ ذكر جرجي زيدان أنه مخطوط في برلين وليدن, ينظر: جرجي زيدان, تاريخ آداب اللغة العربية, دار موفم للنشر, لبنان, 1993م, د ط, ج3, ص78..

طبع الكشاف طبعات مختلفة منها طبعة القاهرة سنة 1307هـ وسنة 1354هـ، أما الطبعة التي بين أيدينا و المعتمدة في هذه الدراسة ، فتعود إلى سنة 1397هـ الموافق 1977م ، بدار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، وهي في أربع مجلدات .

أ- بواعث التأليف :

يرجع الزمخشري الأسباب المباشرة التي دفعته إلى تأليف كتابه الكشاف إلى سببين رئيسيين هما :

1- بطلب من جماعة المعتزلة ـ وذلك في كل مكان يحط به الرحال ـ الذين أعجبوا بطريقته في تفسير الحقائق المحجوبة عنهم.

2- برغبة من أمير مكة أبو الحسن علي بن حمزة بن وهاس .

وحول هذين السببين يقول«...ولقد رأيت إخواننا من أفاضل الفئة الناجية العدلية الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك ... فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدرجة الحسنية الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس...كان يحدث نفسه في مدة غيبتي عن الحجاز، مع تزاحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافي وطي المهامه والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض...»[1].

ب- المادة و المحتوى :

إن النص القرآني هو المدونة الأساسية التي تناولها موضوع الكتاب، من أجل الوقوف على (حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل) كما هو وارد في الجزء الكبير من عنوان الكتاب.

---

[1] ـ الكشاف، ج1، ص 17 , 21.

ويحتوي إلى جانب هذا على مادة بلاغية دسمة ضمت كثيرا من محاور علمي البيان و المعاني، و قليلا من علم البديع، في صورها المتأخرة في علوم البلاغة .

٣- الطريقة و المنهج :

لم يلتزم الزمخشري طريقة واضحة، ولم يحدد منهجا بعينه وهو يعالج النص القرآني، إلا أنه سلك منهج الوصف في تناوله عناصر الجمل القرآنية؛ فهو ينطلق من الجزء يعالجه مفردا من وجوه عدة، سواء أكان صوتا أم لفظا ثم يتناوله في إطار سياقه التركيبي، و ينطبق هذا على العبارة و الجملة والنص بأكمله، و قد اختار طريقة الحوار المبني على طرح الأسئلة و الإجابة عنها . و غرضه في ذلك الوقوف على الانزياحات التي طرأت على عناصر الجملة المكونة لأسلوب القرآني.

و إذا شئنا أن نلتمس طريقته في معالجة بنية النص القرآني نقول : إنها تنتمي إلى المنهج المتكامل الذي يستعين فيه صاحبه بمعاول متنوعة منها الوصف الدقيق والتأصيل التاريخي والاستبطان النفسي و التوقيف الاجتماعي و التحليل الواعي و الاتجاه اللغوي .

والهدف من وراء هذا كله هو تبيان الإعجاز الموجود في النص القرآني والذي تمثله الزمخشري في سن معظم مناحي طرقه الإجرائية فاتبع المعاني النحوية التي تتيح من جراء نظم الكلم و تأليفه«... وقد تابع الزمخشري هذا الرأي الأخير و عالجه على نطاق واسع في تفسيره يشمل سور القرآن جميعها، فوقف على مزية نظم القرآن من ناحية الجمال الحادث عن أحكـام معانـي النحـو وتنبه إلى إيحاءات الألفاظ وما تلقيه من ظلال معنوية ونفسية، إستجلى جمالها وعرض لأُلفة النفسية والمعنوية بين الألفاظ المنظومة، وحلل جماليا المعاني النفسية الكامنة وراء النظم في آي نظر إليها كوحدة معنوية واستعان بثقافته في تحليله الجمالي الذي ...»[1]. وللوصول إلى هذه الغاية المرجوة. من وراء معالجة أسلوب النص القرآني

---

[1] ـ الجويني مصطفى الصاوي، منهج الزمخشري في تفسير القرآن و بيان إعجازه، دار المعارف، مصر، د ت، ط3، ص 299.

المتميز- تخطى الزمخشري بفكره الثاقب ظاهر اللفظ إلى مجازه، و صريح القول إلى مكنونه، مما شد انتباه كثير من العلماء و الدارسين ، فكثرت حول تفسيره (الكشاف) شروح و تعليقات و تلخيصات ـ لعدد غيـر قليـل من أعـلام الفكـر الإسلامي ـ نجدها مبثوثة في الدراسات التي تناولت جهود الزمخشري المختلفة بنوع من التفصيل، ومن بين هذه الجهود المبذولة نذكر على سبيل الذكر لا الحصر :

1- فتوح الغيب للحسن بن محمد الطيب المتوفى سنة(743هـ، 1342م) .

2- الكشف عن مشكلات الكشاف لأبي حفص عمر بن عبد الرحمان بن عمر الفارسي القزويني المتوفى سنة(745هـ، 1344م).

3-كشاف الكشاف لعمربن عبد الرحمن البلقيني المتوفى سنة (743هـ،1342م).

4-شرح الكشاف لمحمد بن محمد التختاني الزازي المتوفى سنة(746هـ، 1365م)

5- شرح مسائل مختلفة في الكشاف لمحمد بن أسعد الدواني المتوفى سنة (907هـ، 1501م) .

6- الإسعاف في شرح شواهد القاضي (البيضاوي) والكشاف لخضر بن عطاء الله الموصلي المتوفى سنة(1007هـ، 1598م).

7- تخريج أحاديث الكشاف لعبد الله بن يوسف الزيلفي المتوفى سنة (762هـ، 1360م).

8- الكافي الشافـي في تخريـج أحاديث الكشـاف لابن حجـر العسقلاني المتوفـى سنة (852هـ، 1448م).

9- خلاصة الكشاف لحسن صديق خان المتوفى سنة (1307هـ، 1890م).

و قد أثار الكشاف ـ إلى جانب ما ذكرنا من مصنفات و ما لم نذكر ـ ردود فعل ناقدة و معارضة تمثلتها عناوين بعض المصنفات نذكر منها :

1- الانتصاف من الكشاف لأحمد بن محمـد بن منصـور بـن المنيـر المالكـي المتوفـى سنـة(680هـ، 1289م)، (في نقد الآراء الخاطئة وبعض المسائل النحوية) .

2- التمييز لبيان ما في تفسير الزمخشري من الاعتزال في الكتاب العزيز (وهو رد فعل على آرائه الاعتزالية) لصاحبه عمر بن محمد بن الخليل السكوني المتوفى سنة (707هـ، 1307م)

3- الإنصاف على الكشاف لولي الدين أحمد بن زين الدين العراقي المتوفى سنة(826هـ، 1423م)[1].

إنه بالرغم من هذه الانتقادات وغيرها, التي وجهت إلى الأفكـار الـواردة في ثنـايا الكشـاف ـ وبخاصة من طرف أهل السنة والجماعة ـ في مثل ما نجده عند ابن تيمية (ت 728هـ)[2] . وتاج الدين السبكي (ت 771هـ)[3]، ونظام الدين القمي النيسابوري (ت 900هـ)[4]. وعلم الدين بن السراج عمر البلقيني الشافعي (ت 868هـ)[5]. وابن خلدون (ت 808هـ) وغيرهم كثيرـ فإنه قد لقي إعجابا من قبل الناقمين على بعض ما ورد فيه من فكر اعتزالي، فهذا تاج الدين السبكي يقول فيه:«...اعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه و مصنفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيرا ويسيء أدبه مع أهل السنة و الجماعة...[6]»

---

1 ـ بروكلمان, تاريخ الادب العربي, مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1893 م, د ط, ج3, ص118 , 227 .

2 ـ ابن تيمية, مقدمة في أصول التفسير، مطبعة الترقي، دمشق، 1355هـ، 1936م، د ط, ص 22.

3 ـ تاج الدين السبكي، معيد النعم و مبيد النقم، ليدن، 1908م، د ط، ص 114 , 115.

4 ـ النيسابوري، تفسير غريب القرآن و رغائب الفرقان، المطبعة الأميرية، 1323هـ، ط1، ج1, ص04 إلى 06.

5 ـ ﴿ قصد الزمخشري بما أبان الاشارة الى براعته في علم المعاني و البيان و كيف يترجح فنان جمعها أوراق يسيرة قد وضعها بعد الصحابة و التابعين و ما على الناس من اصطلاح اتى به عبد القاهر و اقتفاه السكاكي و لا يقوم لهما في كثير من المقامات دليل و علم التفسير إنما يتلقى عن الاخبار ﴾ .

6 ـ السبكي، معيد النعم و مبيد النقم, المرجع السابق، ص114 , 115 .

ولعل هذا المعنى هو الذي صاغه ابن خلدون بنوع من التفصيل حينما قسم التفسير إلى نوعين: نقلي ولساني، وربط الثاني بالإعراب والبلاغة أثناء إيصال المعاني وفقا لما تقتضيه المقاصد و الأساليب، وأرجع بروز هذا النوع من التفسير إلى أن صيرورة اللسان وعلومه صناعة قائمة بذاتها، وخلص إلى القول«...ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوار زم العراق إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فيأتي الحجاج على مذاهبهم الفاسدة, حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه و تحذير للجمهور من مكانته مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان و البلاغة, وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية محسنا للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان...» [(1)] .

ويأتي السيوطي لينصف الزمخشري في ما ذهب إليه من نزعات فكرية و ذلك من خلال إشادته بعلوم البلاغة وبأصحابها فهي ـ في نظره ـ الطرق التي يعرف بها إعجاز القرآن الكريم فيقول:«ثم جاءت فرقة أصحاب النظر في علوم البلاغة التي بها يدرك وجه الإعجاز, وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة، ولذا طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب...» [(2)] ، و إلى جانب هذا الإطراء يبرر له عدم الأخذ ببعض الأحاديث و الآثار أثناء تفسيره لبعض الآيات, يقول:«و إنما مقصوده أن القدر الزائد على التفسير ـ من استخراج محاسن الفقر و لطائف المعاني التي تستعمل فيها الفكر و بيان ما في القرآن من الأساليب ـ لا يتهيأ إلا لمن برع في هذين العلمين لأن لكل نوع أصول و قواعد لا تدرك في قواعد فن آخر، و الفقيه والمتكلم بمعزل من أسرار البلاغة وكذا النحوي واللغوي...[(3)]» .

---

[1] ـ ابن خلدون ،المقدمة، المطبعة البهية المصرية،د ت, د ط, ص 568 .

[2] ـ السيوطي, الاتقان في علوم القرآن, مطبعة حجازي, القاهرة, 1368هـ , د ط, ج2, ص.191

[3] ـ ابن خلدون, المقدمة, المرجع السابق, ص.568

و بعد أن يستعرض الجويني طائفة من الآراء النقدية الواردة في حق الزمخشري وكشافه يخلص إلى القول:«...و بعد فإن الناقدين من أهل المغرب ـ إلا البلقيني ـ مجمعون على أن لتفسير الكشاف مزية على سائر التفاسير، تلك هي للثه الجمال في إعجاز القرآن و إن أخذوا عليه أنه يتأيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة» [1].

وإذا كانت هذه لمحة موجزة حول الجهود التي بذلت من طرف بعض القدماء حول (الكشاف) سواء كانت حاقدة على بعض أفكاره أم مثايدة لطريقته في معالجة النص القرآني ـ فإننا نجد المحدثين لم يتبرموا من إثارة الحديث حول ما تميز به هذا الكتاب من علوم, ومعارف مختلفة تناولت جهود الزمخشري بعامة ومصنفه الكشاف بخاصة , ومن بين هذه المصنفات العامة نذكر على سبيل الذكر لا الحصر ما يلي:

1 - الزمخشري ـ لأحمد محمد الخوص .

2 - جار الله محمود بن عمر الزمخشري حياته وشعره ـ لعبد الستار ضيف .

3 - الزمخشري لغويا و مفسرا ـ لمرتضى آية الله زادة الشيرازي .

4 - الزمخشري و جهوده في النحو ـ لسالم نادر عطية أبو زيد .

5 - الزمخشري و منهجه في توظيف القراءات القرآنية ـ لمرزوق عبد الرحيم ـ رسالة ماجستير تحت إشراف التهامي الراجحي الهاشمي ـ الرباط المغرب .

6 - الزمخشري شاعرا ـ دراسة نقدية ـ لبهيجة باقر الحسيني .

7 - مقامات الزمخشري ـ دراسة تحليلية ـ لباي هونغ وي .

8 - منهج الزمخشري في أساس البلاغة ـ لزعل الغزال.

9 - مظاهر منهجية في فائق الزمخشري ـ لأحمد الفخراني .

10- تعدد أوجه التحليل النحوي عند الزمخشري وأبي حيان وابن هشام ـ لمحمود الجاسم .

---

[1] ـ الجويني, منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه, المرجع السابق، ص.270,271.

11 - نحو الزمخشري بين النظرية والتطبيق ـ لزكرياء محمد الفقي .
12 - الظاهرة النحوية بين الزمخشري وأبي حيان, مسائل من البحر المحيط ـ لقاسم محمد صاٳ
13 ـ الزمخشري ناقدا ـ دراسة في شواهد الكشاف الشعرية على أساليب الترة ـ لسماء محمود عبد اĎيد الخالدي.
14 ـ قراءة في تراث الزمخشري ـ مصطفى الصاوي الجويني .
15 ـ الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ـ لفاضل صاٳ السامرائي .
16 ـ منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه لمصطفى الصاوي الجويني.
17 ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ـ لمحمد حسن أبو موسى .

وتدور هذه الجهود المبذولة ـ كما هو بين من عناوين هذه المصنفات المذكورة ـ حول ثلاث قضايا رئيسية هي: اللغة والنحو والبلاغة ؛ ولعل الكتابين الأخيرين من أبرزĒا في احتواء البلاغة بعلومها الثلاثة« المعاني والبيان والبديع», ففي كتاب (منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه) تناول فيه صاحبه العلوم الثلاثة بإĒاز شديد دون مراعاة التركيب والتصنيف في طرح عناصرها, إذ نجده في علم المعاني يذكر المحاور الآتية: (اسم الإشارة ـ اسم الموصول ـ الجملة الاسمية ـ تقديم الخبر على المبتدأ ـ التثنية ـ التأنيث ـ النسب ـ التنكير ـ الاضمار ـ الفعل ـ اسم الفاعل ـ حذف المفعول به ـ البدل ـ النداء ـ الاعتراض و الاستفهام ـ التقرير ـ إيحاءات اللفẒ ـ التحليل الجماĞ للنظم) .

و يتطرق في علم البيان إلى (اĎاز ـ الكناية والتعريض ـ التمثيل والتخيل ـ التعابير النفسية ـ البيان القرآني وأسلوب الشعر) .

وأما في علم البديع فيذكر فيه (الجناس و المشاكلة ـ وأسلوب اللف).

وإذا انتقلنا إلى المصنف الأخير (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري, وأثرها في الدراسات البلاغية), فإننا نجد صاحبه قد تناول علوم البلاغة الثلاثة بنوع من

الإسهاب دون مراعاة للوحدة الموضوعية والعضوية في ربط العناصر ببعضها, بالرغم من المنهجية التي سلكها في رسم معالم الموضوع داخل أطر الأبواب, والفصول.

ففي الفصل الأول من الباب الأول تناول فيه البحث البلاغي قبل الكشاف Ż يتطرق في الفصل الثاني إلى النظم في الكشاف حيث جعله ينحصر في:(تحديد المراد بالنظم وبيان موضوعه – تحديد المراد بعلم المعاني وبيان موضوعه – تحديد المراد بعلم البيان وبيان موضوعه), وأما الفصل الثالث فقد خصه للنظر في المفردات فتناول فيه (ملاءمة الربط والتعريف والتنكير). وفي الفصل الرابع تطرق إلى البحث في نظم الجملة وكانت محاوره كما يلي:(التقديم ـ الاستفهام ـ الأمر ـ النهي ـ النداء ـ القسم ـ التعجب ـ الكلام المنصف ـ النفي ـ القصر ـ العطف ـ البدل ـ الوصف ـ الحذف ـ الذكر ـ التوكيد ـ عناصر التوكيد ـ النظر في المعنى).

ويعود في الفصل الخامس فيعنونه بـ (البحث في الجمل), وتحته يتناول ما يلي: (الفصل والوصل ـ الجامع ـ الفواصل القرآنية ـ الالتفات ـ التكرار ـ الاعتراض ـ الاختصار ـ ترتيب الجمل والآيات ـ تفسير النÕّ).

ويتبع هذا الكلام بفصل سادس خصه لـ (البحث في صور البيان) ويتناول فيه المحاور الآتية بذه الكيفية:

أ- التÎبيه : التشبيه التخييلي ـ المفرد والمركب والمتعدد ـ التشبيه ـ التمثيل ـ التصوير والتشكيل ـ العلاقة بين المشبه و المشبه به ـ التشبيه المقلوب ـ أداة التشبيه ـ القيمة البلاغية للقيود في المشبه به ـ الفرق بين التشبيه والاستعارة .

ā - اÕاز: الاستعارة ـ الترشيح والتجريد ـ الاستعارة اللفظية ـ العكس في الكلام ـ التمثيل والتخييل ـ اÕاز المرسل ـ اÕاز الحكمي ـ الكناية ـ التعريض.

ويختم هذه الدراسة بفصل سابع عنونه بـ (البحث في ألوان البديع) وكان كلامه بهذه الطريقة:(المشاكلة ـ اللف الاستطراد ـ التفصيل ـ الكلام الموجه ـ التورية ـ المقابلة ـ الطباق ـ الازدواج ـ التجانس ـ تأكيد المدح ـ الإدماج).

وخلاصة القول في تناوله لهذه المباحث أنه كان يسرد نماذج عديدة لكل علم من هذه العلوم الثلاثة, ويناقشها في ضوء ما قيل فيها قبل الزمخشري وبعده من آراء العلماء والدارسين , وذلك وفقا للمحاور التي إرتآها في صميم المنهج الذي رسمه لدراسته هذه التي بين أيدينا .

والقصد من وراء سردنا لكل هذه العناصر الجزئية في الكتابين الآنفي الذكر؛ هو تبيين نوعية الجهد المبذول من طرف صاحبيهما لموضوع البلاغة داخل مصنف الكشاف موضوع دراستنا في جوانبه الأسلوبية التي مما لاشك فيه أنها تحتوي تحتها كثيرا من النماذج التي وردت في هذين المصنفين, ولكن وفقا لمنهجية تختلف عليهما على الأقل من الناحية الشكلية والإجرائية. وقد نتفق معهما في تخريج بغض النماذج التي تستند إليها في البحث عن روح الدراسة الأسلوبية التي تبناها الزمخشري في كشافه أثناء معالجته للنص القرآني الكريم, ولعل هذا ما سنحاول التعرف عليه من خلال تناولنا لجهد الزمخشري في الفصول الموالية تحت عنوان المقاييس الأسلوبية .

وقبل الشروع في استقراء النماذج التي وقفنا عليها ـ والتي ارتأيناها أطرا عامة المحاطة بنظرة الزمخشري الواعية لخصوصية التعابير المتميزة في أسلوب الخطاب القرآني ـ يتحتم علينا الوقوف عند أهم المقاييس التي كانت تراعى ـ قبل الزمخشري ـ في دراسة أساليب القول بعامة والقرآني منها بخاصة .

ومما لاشك فيه أن جهود العلماء منذ سيبوبه إلى عهد الزمخشري كانت منصبة في معالجة اللغة ضمن حركية أبنيتها, ودلالة معانيها التي كانت تتجلى في سياقاتها المختلفة, وكان همهم الرئيسي هو الخروج بها من دائرة الفوضى إلى مجال الإنتظام

في قواعد وقوالب تعبيرية واضحة المعالم, معتمدين في ذلك على«...جملـة من القوانين, والضوابط حدها الأقصى الجملة»[1]. وقد استطاعوا أن يضعوا لهذه اللغة ـ بمكوناتها المتعددة ـ مقاييس تضبط حركتها المتسارعة والمتنامية ضمن الأضرب والأنماط الموسومة في أساليب القول المختلفة. وقد انحصرت هذه المعايير في مقياسين رئيسيين هما: المقياس النحوي, والمقياس البلاغي.

أولا : المقياس النحوي :

لقد ارتبط علم النحو في بدايته بالدراسة التي قام بها سيبويه للغة العربية والذي يعد«...إمام النحاة بلا منازع. وقد جمع في مؤلفه المعروف بـ (الكتاب) مباحث النحو والصرف, وجعل لكل مكانا منه، لا يشركه بالآخر فيه أو يكاد. وبدأ بالنحو وثنى بالصرف, صنيع من يراهما علمين»[1].

وقد درج علماء اللغة ـ على منواله ـ يتنافسون في وضع القواعد الدقيقة الشاملة المحيطة بأساليب العرب بمختلف لهجاتهم وأنماطهم التعبيرية، يقيسون عليها ويستنبطون أحكامها العامـة والفرعية مستعينين على ذلك بالحيطة واليقظة الواعية[2], وقد ساهمت هذه الجهود المضنية في خلق جو من التنافس الجاد، كان له الأثر في تفعيل الدرس اللغوي والخروج به من مضايق المعايير إلى انزياحات التعابير, ولعل هذا ما استفاد منه الإمام عبد القاهر الجرجاني في بناء نظرية النظم, بشقيها النحوي بمفهومه الواسع للتراكيب المورفولوجية و النظمية (صرف ونحو) وشطره البلاغي بمكوناته المعنوية واللفظية, وهذا الذي سنحاول التعرف عليه من خلال المحور الآتي :

[1] ـ حمادي صمود, التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعـة التونسـية,1981م, ط6, ص 100.

[1] ـ أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند العرب, 1402هـ , 1982م, ط 4, ص 111, مأخوذ من كتاب سيبويه, إمام النحاة, لعلي الجعدي ، ص170

[2] ـ ينظر,حمادي صمود, التفكير البلاغي عند العرب, المرجع السابق, ص34 .

ثانيا المقياس البلاغي:

نشأت البلاغة العربية في ظل الجهود التي بذلها علماء العربية في الدفاع عن لغة القرآن الكريم في بيان مجازها, ودلالة إعجازها في الإطار العام لإعجاز القرآن الكريم[(1)].

وقد أسالوا الحبر الكثير من أجل تحديد مفاهيمها, وتدقيق مصطلحاتها حتى وصلوا بها إلى المعايير الثابتة في مرحلة من مراحل تطورها في القرن السابع الهجري على يدي السكاكي صاحب كتاب (المفتاح).

وإذا عدنا بها ـ البلاغة ـ إلى بداية انطلاقتها في القرن الثالث الهجري, وجدناها بدأت مضطربة غير واضحة المعالم, وبخاصة عند أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 207هـ) الذي كان جهده منصبا في البحث عن غريب مفردات القرآن الكريم ـ على وجه العموم ـ وتعليل وجودها موازنة وتأصيلا بنظيراتها في كلام العرب, شعره ونثره. ولعله لم يكن في موضع يسمح له بالتعمق في تحديد مصطلحاتها وتدقيق أقسامها, و لهذا جاء أحد عناصر البلاغة ـ في ما بعد ـ وهو (المجاز) مبهما ،غير واضح الدلالة، على الأقل في مقابلة الحقيقة التي تفطن إلى تبيانها الجاحظ في كتابة (البيان والتبيين) والذي تعد المفاهيم الواردة فيه ـ حول مباحث البلاغة بعامة وقضية النظم بخاصة ـ أسسا لانطلاق توجه مميز لفهم وإدراك معاني نظم الكلام في عمومه والقرآني منه في خصوصه .

هذا النظم الذي تطور مفهومه مع تطور الدرس البلاغي ، نضج واستوى في القرن الخامس الهجري في شكل نظرة متعمقة, اتضحت مفاهيمها الإبلاغية والتحمت مع مفاهيمها التركيبية، لتعطيا معا نظرية في النظم قوامها حسن النظم وجمالية التعبير. وكان هذا على يد عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) أو (ت 474هـ) ـ من خلال كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز).

---

[1] ـ ينظر, التفكير البلاغي عند العرب حمادي صمود , من ص 34 إلى ص 36, و أحمد جمال العمري, المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مكتبة الخانجي القاهرة, 1410هـ, 1990 م, د ط, ص25 ،26 .

هذا النضج الفكري البلاغي كان له الأثر الفعال في مؤلفات القرن السادس الهجري وبخاصة كتاب (الكشاف) للزمخشري الذي أقر له الكثير من الدارسين باحتوائه على مباحث بلاغية منبعها الأساس مضمون نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني(1) ؛ التي كما سبق قوله، مبنية على مقاييس التراكيب النحوية والصرفية ومقياس التعابير الإبلاغية التواصلية.

ومن هذا المنطلق نحاول التعرف على ما استوعبه الزمخشري من هذه النظرية وطبقة في كشفه عن حقائق التنزيل بصورة مفصلة, وذلك من خلال فصول البحث الأربعة الآتية .

[1] ـ ينظر ، بدوي طبانة ، البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ، مكتبة الأنجلو المصرية ،1381هـ ـ 1962م, ط 3,ص من 160 إلى ص 199 .وشوقي ضيف، البلاغة تطور و تاريخ، دار المعارف، مصر، د ت،ط6،ص213 إلى 243.

الفصـل الأول

المقياس الصرفي ومستوياته النسقية

المبحث الأول : مستـوى المصـادر

المبحث الثاني : مستـوى الأسمـ ـاء

المبحث الثالث : مستـوى الأفعـال

قبل المرور إلى معالجة مستويات الأبنية التي يهتم بها علم الصرف ـ والتي تـبرز في كشاف الزمخشري ـ نحاول التعرف في البدء على معنى هذا المصطلح (صرف) فـي جانبـه اللغـوي و الاصطلاحي .

أولا : الجانب اللغوي :

تورد المعاجم اللغوية معاني مختلفة لهذه الكلمة (صرف) باختلاف صيغها المتعددة الأبنية والتقاليب؛ فنجد مثلا صاحب اللسان يذكر تقاليب متنوعة لهـذه اللفظـة تدور في مجمل معانيها حول التغيير والتحول, سواء كان « رد الشيء على وجـه, أو صرف النفس عن الشيء, أو انصراف اللبن من الضرع أو نزول القمر في منزل من منازلـه, أو تصـريف الأمـور وتقاليبها, أو تصريف السـيول, والخيـول, والأمور والآيات»(1) وإلى غير ذلك من المعاني الواردة باختلاف مباني هذه الكلمة وتقاليبها .

والذي يكون معتمدنا في هذه المعاني اللغوية هو كون هذه التغيـرات الناجمـة عن المبانـي والتقاليب في الحروف الأصلية لهذه اللفظة (صرف) تدل عن تنـوع الدلالات والمعاني كلما زيد حرف أو حذف آخر في صيغة من الصيغ .

تلك إذا خلاصة المعنى اللغوي لهذه اللفظة (صرف) فما هي خلاصته في نظر الاصطلاح ؟

ثانيا : الجانب الاصطلاحي :

لقد سبقت الإشارة في التمهيد إلى أن موضوع الصرف ـ عند علماء اللغة قديما ـ كان ضمن الدراسة النحوية, وكان يتأخر في التصنيف بعد النحو, بالرغم من كونه يتناول اللفظ المفرد قبل أن يركب في نظام الجملة. وكان الأجدر أن توجه له العناية قبل النحو.

ومما يدل على هذا التداخل بين النحو والصرف ـ عند القدماء ـ قول أبي حيان الذي أورده السيوطي: «...علم النحو مشتمل على أحكام الكلمة,

---

1 ـ ينظر ابن منظور, اللسان, مادة (صرف), ص 189 إلى ص 191 .

والأحكام على قسمين, قسم يلحقها حالة التركيـب, وقسم يلحقها حالة الإفراد, فالأول قسمان: قسم إعرابي وقسم غير إعرابي. وسمي هذان القسمان علم الإعراب تغليبا لأحد القسمين. والثاني أيضا قسمان, قسم تتغير فيه الصيغ لاختلاف المعاني, نحو ضرب وضارب وتضارب واضطراب, وكالتصغير والتكسير وبناء الآلات, وأسماء المصادر وغير ذلك. وهكذا جرت عادة النحويين بذكره قبل علم التصريف وإن كان منه, وقسم تتغير فيه الكلمة لاختلاف المعاني, كالنقص والإبدال والقلب والنقل وغير ذلك.

ومتعلق التصريف من أنواع الكلمة الاسم المعرب, والفعل المتصرف, فلا مدخل له في الحروف, ولا في الأسماء المبنية, ولا الأفعال الجامدة نحو ليس وعسى»[1].

ومن هذا يمكننا تبرير عدم وجود تعريف دقيق خاص بعلم الصرف, وأن التعريفات التي وقفنا عليها عند بعض علماء العربية تدور حول العملية الإجرائية للتصريف في حروف الكلمة الأصلية بالزيادة أو بالنقصان وفي هذا يقول ابن جني: « معنى التصريف هو أن تأتي إلى الحروف الأصول... فتتصرف فيها بزيادة حرف, أو تحريف بضرب من ضروب التغيير, فذلك التصرف فيها والتصريف فيها»[2].

ولما بدأت معالم الصرف تتضح وموضوعاته تنفصل عن النحو ظهرت تعريفات أكثر دقة في تحديد ماهيته؛ ومن أمثلة ذلك تعريف جلال الدين السيوطي له بقوله: « هو علم يتعلق ببنية الكلمة وما لحروفها من أصالة وزيادة وصحة وإعلال وشبه ذلك »[3].

و لعل هذه الرؤية المتقدمة في الوضوح ـ لعلم الصرف ـ هي التي استفاد منها الدارسون المتأخرون في الإحاطة بالظاهرة الصرفية في جميع جوانبها, ومن ثم كانت لهم القدرة في تحديد ماهيتها في عبارات موجزة في مثل قول أحدهم: «هو علم

---

1 ـ السيوطي, همع الهوامع في شرح جمع الجوامع, تصحيح السيد:محمد بدر الدين التعساني, 1320هـ, ط1, ص212 .
2 ـ ابن جني, التصريف الملوكي, تحقيق: دزيرة سقال, دار الفكر العربي, بيروت, 1419 هـ, 1918م, ط1, ص 12
3 ـ ا لسيوطي, همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، المرجع السابق, ص 12 .

بأصول تعرف بها صيηالكلمات العربية التي ليست بإعراب, ولا بناء, أي هو العلم الذي يبحث في الكلمات المفردة وما يطرأ عليها من تغيير كالتصغير والإعلال والإبدال والتصريف»(1), وقول الآخر: «هو علم تعرف به أبنية الكلمات العربية وأحوالها التي تعرض لها غير الإعراب والبناء»(2), وقول الثالث: «هو علم يبحث عن أبنية الكلمة العربية و صيغتها وبيان حروفها, من أصالة أو زيادة, أو حذف, أو صحة, أو إعلال أو إبدال»(3).

وإذا وازنا بين هذه التعريفات الثلاثة وجدنا الأول أكثر عبارات وأقل شمولية؛ إذ إنه لم يحدد أصول هذا العلم (علم بأصول)Ý Ż أنه كان بإمكانه الاستغناء عن التفسير بتبيان نوعية الكلمة التي يهتم بها علم الصرف في حالاőا وأطوارها المختلفة كما أنه أضاف لفظة (التصريف) التي هي في الأساس عملية إجرائية لكافة أنواع التغييرات التي تحدث على اللفظة.

ولا يختلف التعريف الثاني عنه إلا في اختزال بعض العبارات والمفاهيم في كلمات مترادفة متصلة بعملية تبيان التغيرات التي تحدث على الكلمة أثناء عملية التصريف.

وأما التعريف الثالث فيبدوا أكثر إƶازا وشمولية؛ فأبنية الكلمة وأحوالها هي مكوناőا الأساسية والإضافية التي تطرأ عليها نتيجة لعوامل شتى مثل الإعلال, والإبدال, والإمالة والإدغام وغيرها مما يعتري اللفظة في تشكلاőا العامة والخاصة.

وإذا أردنا ـ من هذا كله ـ الخروج برؤية واضحة تتعلق باهتمامات علم الصرف نقول: إن علم الصرف لا يهتم من الكلام إلا بما هو مفرد, ومن المفرد إلا بما هو كلمة, ومن الكلمة إلا بما هو اسم أو فعل ومن الاسم إلا بما هو مشتق, ومن الأفعال إلا بما هو قابل للصرف, وبذا تستبعد من إهتمام علم الصرف الحروف,

[1] ـ عز الدين خليل محمود, المفصل في النحو والصرف, دار البعث للطباعة و النشر, قسنطينة, 1989م, د ط, ج1,ص9 .

[2] ـ رضي الدين محمد بن الحسن الاستربادي النحوي, شرح شافية بن الحاجب, دار الفكر العربي, بيروت, د ط, ج1, ص1

[3] ـ عبد الله محمد الأسطي, الطريف في علم التصريف, كلية الدعوة الإسلامية, طرابلس, ليبيا, 1992م, د ط, ص34 .

والأسماء المبنية, والأفعال الجامدة, وتدخل في مجاله بقية الأسماء المشتقة والأفعال القابلة للتصريف[1].

وإذا كانت هذه الثنائية في حدود أبنية الكلمة هي التي تشكل محور الدراسة في مجال علم الصرف , فإننا في مجال الدراسة الأسلوبية تهتم بالظواهر التي تكون بارزة في أسلوب من أساليب الخطاب , و أسلوب الزمخشري في الكشاف هو طريقته في الاهتمام بالظواهر اللغوية المكونة لأسلوب القرآن الكريم. ومن بين الظواهر التي أبرزها الزمخشري في الخطاب القرآني الظاهرة الصرفية في مستوياتها الثلاث : المصادر و الأسماء و الأفعال .

المبحث الأول : مستوى المصادر :

لقد عالج الزمخشري ظاهرة تواجد المصادر في الخطاب القرآني ـ في العموم ـ في ثلاث مستويات بارزة هي: المستوى المعياري, المستوى الانزياحي, المستوى الوظيفي.

أولا : المستوى المعياري :

لقد تميز هذا المستوى بإطلاق الزمخشري بعض الأحكام الناجمة من تناوله لبعض الصيغ الواردة على زنة المصدر؛ و من بين هذه الأحكام مثلا نجده يقر بعدم صحة الإسناد إلى المصادر, كما يؤكد عدم صحة جمعها, و يشير إلى استواء الواحد و الجماعة و التذكير و التأنيث فيها .

ففي قضية الإسناد مثلا نجده يعقب على قوله تعالى: **﴿ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ﴾**[2]. بقوله: «... و(كل عدل) تصب على المصدر, وفاعل (يؤخذ) قوله: (منها), لا ضمير العدل, لأن العدل هاهنا مصدر، فلا يسند إليه الأخذ»[3] .

---

1 ـ ينظر, ايمن أمين عبد الباقي, الصرف الكافي, دار الكتب العلمية, بيروت, 1421 هـ , 2000 م,د ط, ص17 .
2 ـ الأنعام, آية 70 .
3 ـ الكشاف, ج2, ص27 , 28 .

إذا كان الزمخشري لم يطلق الحكم بعدم الإسناد إلى المصادر صراحة, واختصر لفظة, على المصدر المشار إليه (العدل), وذلك لأن هذا الحكم لا ينطبق على نفس المصدر في مخالف بمعنى مختلف, يقول: « ... وأما في قوله تعالى: ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ فبمعنى المفدى به فصح إسناده إليه ... »[1], ولكننا نجده عندما يستند إلى معيار صرفي يبين في جمع الجمع للمصادر فانه يصدر الحكم على وجه الإطلاق دون استثناء أو شرط, يقول في لفظة (السمع) من قوله تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة و لهم عذاب عظيم ﴾[2], « ولك أن تقول: السمع مصدر في أصله و المصادر لا تجمع»[3], و حكمه هذا يبدو فيه تبرير لصيغة الإفراد التي وقعت عليها هذه اللفظة (سمع) في إقترانها بضمير الجمـع (هم), ووقوعها بين صيغتين للجمع (قلوب) و(أبصار) المقترنتين بنفس الضميـر (هم). والتبرير نفسه يتكرر مع الزمخشري عندما تعترضه صيغ الألفاظ المفردة المعبرة عن الجمع في مثل قوله تعالى: ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾[4], يقول: « والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم لأنه في الأصل مصدر إضافة»[5] .

لقد اعتمد الزمخشري بتعليل تواجد هذه الصيغة المفردة (ضيف) تعليلا عاما لا يتوغل في تبيان معطيات مجرى السياق, لأنه لو أخرجها مخرجا آخر يبين فيه خصوصية التعبير في الأسلوب القرآني مراعاة للسياق التركيبي للجملة لكان أبلغ , لأننا في هذه الآية قد نلتمس توارد صيغ الإفراد في تركيب عناصر الجملة هو الذي كان وراء إفراد لفظة (الضيف) لأنها جاءت بعد صيغتين مفردتين (الحديث والإتيان), ثم أردفت بصيغة مفردة أخـرى وهـي (إبراهيم), و لعل هذا يكون

---

1 ـ الكشاف, المصدر السابق .

2 ـ البقرة, آية 07.

3 ـ الكشاف, ج1, ص 164 .

4 ـ ق, آية 24 .

5 ـ الكشاف, ج4, ص 17.

مبررا أسلوبيا لوضعية هذه اللفظة بالصيغة الإفرادية التي وردت عليها؛ لأن الكلام في مستواه العادي غير القرآني كان يمكن أن يكون بهذه الكيفية:(هل أتتك أحاديث ضيوف إبراهيم المكرمين؟) .

و يتدعم هذا الرأي بكون التعبير القرآني قد حافظ على الفاصلة المبنية على حرف (النون) في مجمل فواصل آيات هذه السورة, وذلك دون أن يخل بالمعاني المتتالية فيها, رغم التصرف في تلوين الصيغ الصرفية ـ كما هو الشأن مع هذه الصيغة (ضيف) ـ وعليه يمكن أن يكون هذا المسوغ الأسلوبي ـ المبني على السياق الداخلي ـ أقوى من المسوغ الدلالي الذي ذهب إليه الزمخشري .

والأمر نفسه ينطبق على الحكم الذي أطلقه الزمخشري في جواز استخدام الوصف بصيغة المصدر الواحد للمذكر والمؤنث معا, يقول في قوله تعالى : ﴿ و أزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾[1]؛ « وتذكيره لأنه على زنة المصدر كالزئير والصليل, والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث»[2].إلى جانب هذا المسوغ الدلالي للفظة (بعيد) التي وردت في صيغة المذكر بعد صيغة التأنيث للفظة (الجنة) نجده مسوغا أسلوبيا يمكن الأخذ به, فالتعبير القرآني قد أخرج هذه اللفظة بهذه الصيغة المخالفة قبلها مراعاة لتوحيد الحالة الإعرابية الواردة في فاصلة الآيـة قبلهـا ﴿ هل من مزيد ﴾[3], وكذا توحيد الفاصلة القرآنية التي بنيت عليها هذه السورة (ق) في جزء كبير من آياتها, والتي تتمثل في تكرار الكلمات المنتهية بحرف الدال في حركاتها الإعرابية جرا ورفعا, ولعل الزمخشري لم يمتنع بما ذهب إليه في عملية التسويغ هذه , فاستنجد بمسوغ آخر يستند إلى الحذف و التأويل فقال: « ... أو على حذف الموصوف أي شيئ غير بعيد»[4].

---

1 ـ ق, آية 31 .

2 ـ الكشاف, ج4, ص 10 .

3 ـ ق, آية 30 .

4 ـ الكشاف, ج4, ص 10 .

ويبقى الخروج عن المألوف مسوغا أسلوبيا يميز النص القرآني في مواطن أسلوبية كثيرة يأتي الكلام عنها في حينه.

بهذه الأمثلة نكون قد أعطينا عينات حول طريقة الزمخشري في تناول صيغ المصادر من الناحية المعيارية, أو الأحكام المطلقة كما سبق القول, لننتقل الآن إلى تتبع طريقته في معالجة هذه الصيغ (مصادر) من خلال العنصر المواد.

ثانيا: المستوى الانزياحي :

يمكننا تقسيم الانزياحات التي أشار إليها الزمخشري ـ من خلال تناوله لعينات المصادر ـ إلى قسمين رئيسيين هما: انزياحية المباني و انزياحية المعاني.

1ـ انزياحية المباني:

تتمحور هذه الانزياحات ـ في الأمثلة التي بين أيدينا ـ حول ثلاثة محاور رئيسية هي: النيابـة في الوظيفـة, دلالـة صيغـة على أخـرى, مضارعـة صيغـة لأخرى.

ففي أمثلـة النـوع الأول نجـده يبين علاقـة الإنابـة التي يقـوم بها المصدر على كل من الفعل والحال, ويبرز ذلك من خلال معالجته للفظة (سلاما) من قولـه تعـالى: ﴿ إذ **دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون** ﴾ (1). فيقول معقبا على ورود اللفظة بهذه الصيغة (سلاما):« ... مصدر سد مسد الفعل مستغن به عنه, وأصله نسلم عليكم سلاما» (2). إذن فالجملة الفعلية الواقعة في الأسلوب المعياري العادي هي التي حذفت لتحل مكانها لفظة واحدة في صيغة المصدر (سلاما) و تنوب عنها في إفادة المعنى دون حاجة إلى التفصيل اللفظى, نزولا عند الاختصار في اللفظة والإيجاز في المعنى اللذين يتميز بهما الأسلوب القرآني بوجه عام, هذه المعاني لم يشر إليها الزمخشري واكتفى بذكر النيابة في الوظيفة التي

---

1 ـ الذاريات, آية 25 .

2 ـ الكشاف, ج4, ص 17 .

عادة ما يراد با الجانب النحوي الذي ـ مما لا شك فيه أنه ـ يؤثر في المعنى لاختلاف المبنى .

والنيابة الثانية ـ في الوظيفة ـ التي يشير إليها الزمخشري تكمن في وقوع المصدر موقع الحال والنيابة عنه؛ ويمكن التمثيل لها بصيغتين اثنتين (بياتا) و(وحده)؛ الأولى في قوله تعالى: ﴿ **وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون** ﴾[1], يقول مبررا وقوع هذه الصيغة (بياتا) في الجملة: «... مصدر واقع موقع الحال بمعنى بائتين, يقال بات بياتاً حسنا و بيتة حسنة »[2] .

ففي قوله (بمعنى بائتين) يشير إلى وقوع الانزياح في الجملة عن طريق الاختيار والحذف, فالاختيار واقع عن طريق تفضيل صيغة (بياتا) على صيغة (بائتين), وأما الحذف فيتمثل في حذف عنصري الجملة العادية من قولنا (وهم بائتون), و المتواجدة في الجملة المعطوفة (أو هم قائلون), فالزمخشري ـ و هو يشير إلى العطف بين الجملتين, ويقدر معنى الحال المحذوفة ـ لم يتطرق إلى الفارق الأسلوبي في توظيف هذه الصيغة الدالة على المصدر دون غيرها من الصيغ التي تدل على الحال , و الذي نستشفه من خلال دلالة صيغة المصدر الواردة عليهـا لفظـة (بياتا) هو أنها ـ إلى جانب كونها تدل على أن الأمر قد وقع في جوف الليل كما ورد في اللسان[3] _ توحي بالمباغتة أو المفاجأة, لأن الأمر تم فجأة في وقت كان معظم الناس في غفلة و اطمئنان زائدتين في سكـون الليل, وأما إذا جيء بصيغـة (بائتين) أو (بائتون) قياسا على (قائلين) أو (قائلون) لالتمسنا دلالة أخرى توحي با هاتين الصيغتين الصرفيتين, وهي كون البأس طرقهم بالليل, فيجوز أن يكون في أوله أو وسطه أو آخره, فالدلالة هنا توحي بالزمن المطلق, فقد جاء في اللسان :

---

1 ـ الأعراف, آية 04 .

2 ـ الكشاف, ج2, ص66 , 67 .

3 ـ ابن منظور, اللسان, مادة, (بيت), ص16 .

« والله يكتب ما يبيتون أي يدبرون ويقدرون من السوء ليلا»[1] , فالزمن إذا مستمر من غروب الشمس إلى الفجر .

وإذا انتقلنا إلى الصيغة الثانية في لفظة (وحده) الواقعة في قوله تعالى: **﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾**[2] , وجدنا الزمخشري يشير إلى نيابة هذه الصيغة (وحده) عن الصيغ التي يمكن أن تدل على الحال المقدر في قوله: « ... في أنه مصدر سد مسد الحال, أصله يحد وحده بمعنى واحدا وحده»[3], ولكنه لا يبرر هنا أيضا سبب تواجد هذه الصيغة (وحده) بدل صيغة الحال (واحدا) كما أشرنا فيما سبق .

ويبقى التقدير الذي أورده يتم على انزياحية الأسلوب عن طريق حذف صيغة وإحلال أخرى مكانها لتقوم بوظيفة إيصال المعنى بإيجاز دون حاجة إلى تفصيل, والإيجاز هو روح البلاغة.

إن هذه النماذج في الأمثلة التي أوردناها كانت تمثيلا لانزياحية المباني عن طريق النيابة في تأدية المصادر لوظائف أخرى, والآن نورد نماذج مغايرة يكون الانزياح في أبنيتها عن طريق دلالة صيغة على أخرى, وعلى العموم يكون الانزياح عن صيغة المفعول, أو الفاعل, أو عنهما معا .

ونمثل للأول بقوله تعالى: **﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ﴾**[4], وللثاني بقوله عز و جل: **﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾**[5], وللثالث بقوله جل ذكره: **﴿ يا بني أقم الصلاة و أمر بالمعـروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾**[6].

---

1 ـ المرجع السابق .

2 ـ الإسراء, آية 46 .

3 ـ الكشاف, ج2, ص 452 .

4 ـ الأعراف, آية 143 .

5 ـ النحل, آية 09 .

6 ـ لقمان, آية 17 .

حيث يقول الزمخشري في المثال الأول: « والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد, يقال سبيل قصد وقاصد, أي مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه»[1], لم يتعد الزمخشري ـ كما هو بين في تأويل الصيغة التي يؤديها المصدر (قصد) وهي صيغة الفاعل بمعنى (قاصد) ـ إلى تبين الفارق الأسلوبي الذي يمكن أن نستشفه من انزياح هذه الصيغة (قاصد) إلى صيغة (قصد) التي حلت محلها في التعبير القرآني, ولم يتوقف عند هذا الحد, بل نجده يسوى بين معنيـي الصيغتين في قولـه:(يقال: سبيل قصد وقاصد) والتسويـة هذه من الطبيعي أن تكون في التعبير العادي غير المتميز, أما في التعبير المتميز كتعبير القرآن الكريم فيحتاج إلى التماس مبررات أسلوبية قد نجدها في المعنى الذي ذهب إليه صاحب اللسان في تفسيره الآية بقوله: « ... أي على الله تبيين الطريق المستقيم »[2] .

ولو كان المعنى واحدا لما احتاج التعبير القرآني إلى تنويعه في قوله تعالى: **لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك** [3], فالقصد في هذه الآية بذه الصيغة (قاصدا) يعني كما ورد عن ابن عرف أو إبن عرق في اللسان: الطريق غير الشاق[4], وورد في الكشاف « وسطا مقاربا »[5]. من الواضح في هذه المغايـرة بين بنيـة هاتين الصيغتين أن المعنى مختلف بين أن نقـول (قصد السبيل وقاصد السبيل) بالرغم من اشتراكهما في معنى الاستقامة .

والأمر نفسه ينطبق على المثال الثاني الذي يكتفي فيه الزمخشري بذكر الصيغة المنزاحة دون أن يعلق أو يبرر سر تواجد صيغة المصدر مكانها, يقول:

---

1 ـ الكشاف, ج2, ص 114 .
2 ـ ابن منظور, اللسان, مادة (قصد)، ص 353 .
3 ـ التوبة , آية 42 .
4 ـ ينظر، ابن منظور, اللسان, مادة (قصد)، ص353 .
5 ـ الكشاف, ج2, ص191 .

«... (فجعله دكا) أي مدكوكا, مصدر بمعنى مفعول »[1], ولكن ما هو مبرر هذه الصيغة داخل هذا الأسلوب القرآني ؟

لم يحاول الزمخشري أن يلتمس مبررا أسلوبيا لهذا التعبير بصيغة المصدر بدل صيغة المفعول! فإذا أخذنا برأي الأخفش في أن الجعل بمعنى الدك«...كأنه قال: دكه فقال: دكا» [2], وذلك تماشيا مع قولهم: «... و دكّ الأرض دكا : سَوَى صعودها و هبوطها ... ودكّ التراب يدكه دكا: كبسه وسوّاه »[3] ـ فإنه يمكن القول بأن صيغة المصدر (دكا) أبلغ من التعبير عن تسوية الجبل وجعل نتوءاته مستوية مع منخفضاته كما أنها إلى جانب هذا تحمل دلالة القوة الشديدة في عملية الكبس والتسوية. و هذا ما لا نلمسه في صيغة (مدكوكا) التي أزيحت من الأسلوب القرآني .

ولم تختلف طريقة الزمخشري في معالجته لصيغة المصدر في المثال الثالث إلا بوضع مخرجين لانزياحية الصيغتين الدالة عليهما صيغة المصدر (عَزْم) يقول: «... وحقيقته أنه من تسمية المفعول بالمصدر, و أصله من معزومات الأمور, أي مقطوعاتها ومفروضاتها, ويجوز أن يكون مصدرا في معنى الفاعل, أصلـه من عازمـات الأمور من قوله تعـالى: **﴿ فإذا عزم الأمر ﴾** كقولك: «جد الأمر وصدق القتال »[4].

وأيا ما كان المراد:اسم مفعولا أو اسم فاعلا فصيغة (العزم) هذه وظفت في الآية توظيفا أسلوبيا مغايرا للأسلوب المعتاد, لأن العزم لا يكون للأمر« وإنما يُعزَم الأمر ولا يَعزِم, والعزم للإنسان لا للأمر » [5] و هذا من جانب الإسناد, وأما من جانب الدلالة فان هذه الصيغة (عَزْم) إذا ما قوبلت بصيغتي ـ كما

---

[1] ـ الكشاف, ج2, ص114 .
[2] ـ ابن منظور, اللسان, (دكك), ص425 .
[3] ـ المرجع نفسه .
[4] ـ الكشاف, ج3, ص233 .
[5] ـ ابن منظور, اللسان, مادة (عزم), ص400 .

قال الزمخشري ـ (معزومات وعازمات) فإنها تبدو أبلغ في الإيجاز وأحكم في دلالة المجاز .

تلك هي بعض الأمثلة التي أوردناها في مجال انزياحية المبنى عن طريق دلالة صيغـة عن أخرى . و ننقل الحديث الآن إلى انزياحية المبنى عن طريق مضارعة صيغة لأخرى. والصيغة هنا دوما تعني المصدر الذي يتشكل في مفهوم الزمخشري وفقا للأنماط الآتية: (المضارعة في اللفظ, المضارعة في المعنى, المضارعة في الموضع)

1.أ ـ المضارعة في اللفظ :

ففي مضارعة المصدر باللفظ يورد الزمخشري قوله تعالى: « **أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي** » [1] , سيقول:« ... و إجرامي بلفظ المصدر و الجمع ... ونحو جـرم وأجرام, قفل وأقفال ...»[2]. يكتفي الزمخشري بهذا القول دون أن يبحث عن الجانب الأسلوبي الكامن وراء توظيف صيغة (إجرامي) الواقعة بلفظ المصدر والدالة على الجمع, بدل صيغة (جرمي) المحذوفة والدالة على الإفراد. إن الذي يبدو من خلال بنية الصيغتين, أن الأولى أكثر دلالة من الثانية لأن زيادة البناء فيها يوحي بزيادة المعنى؛ فالكثرة المستمرة في الإجرام أكثر بلاغة من الجرم الواحد المنتهي فعله زمنيا .

1.ب ـ المضارعة في المعنى :

وأما في مضارعة المصدر في المعنى يدرج قوله تعالى: « **وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون** » [3] فيقول: «... الخيرة من التخير كالطيـرة من التطير تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير, كقولهم: محمد خيـرة الله من خلقه »[4]. و إذا كانت (الخيرة)

1 ـ هود, آية 35 .
2 ـ الكشاف, ج2, ص267 .
3 ـ القصص, آية 68 .
4 ـ الكشاف, ج3, ص188 , 189 .

استخدمت في هذا التعبيـر القرآني بمعنـى المصـدر (التخير و المتخير) فما موجبات ذلك أسلوبيا ؟.

طبعا لا نجد لذلك مبررا صريحا عند الزمخشري, لكنه يعمد إلى الإشارة بان الجملة كاملة (ما كان لهم الخيرة), بيانا لقوله: « ويختار, لان معناه: ويختار ما يشاء »[1]. ثم يذكر تعليلا آخر للمعنى فيقول: « ويختار الذي لهم فيه الخيرة أي يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم من قولهم في الأمرين ليس فيهما خيرة لمختار »[2].

هذا القياس الأسلوبي الذي أقامه الزمخشري ـ بين توظيف النص القرآني لصيغة (الخيرة) وبين استعمال العرب لها في كلامهم ـ يبقى يفتقد إلى تبرير المفارقة الموجودة بين الأسلوبين لان هناك فرقا بين أن يقف المعنى على الصيغة ذاتها (الخيرة) وبين أن تردف بلفظة أخرى تميزها وتكمل معناها (خيرة لمختار).

وعليه يمكن القول إن هذه الصيغة الدالة على الاسم ـ كما ورد في اللسان[3] ـ وعلى المضارعـة للمصدر المحذوف الذي هو (التخيير) ـ على رأي الزجاج[4] ـ أفادت معنى أسلوبيا قوامه الحذف في بعض عناصر الجملة, كحذف الراجع من الضلال إلى الموصل لان « ... اصل الكلام ما كان لهم فيه الخيرة فحذف فيه ... لأنه مفهوم »[5].

وحذف الجواب الذي يمكن أن يكون لسؤال يطرح بعد هذه الجملة مباشرة (ما كان لهم الخيرة) في ماذا ؟ وبالتأكيد تتعدد الإجابة بما يمكن أن ينفيه الله سبحانه و تعالى في هذا الشأن .

---

[1] ـ الكشاف، ج3، ص188، 189 .

[2] ـ الصدر نفسه .

[3] ـ ينظر، ابن منظور, اللسان, مادة (خير), ص264 إلى 267 .

[4] ـ ينظر، المرجع نفسه, القول للزجاج .

[5] ـ الكشاف, ج3, ص189 .

1.3 ـ المغايرة في الموقع و الوظيفة:

يذكر الزمخشري بعض الصيغ الصرفية التي تقع في موضع صيغ المصادر وتقوم بوظائفها التي عادة ما تكون للتوكيد. ويدرج في هذا الصدد أمثلة نذكر منها قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا** ﴾ [1] وقوله عز و جل: ﴿ **فالذين هاجروا و أخرجوا من ديارهم و أوذوا في سبيلي و قاتلوا و قتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم و لأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله و الله عنده حسن الثواب** ﴾ [2].

فيشير في الآية الأولى إلى الانزياح الواقع في لفظة (متاع) فيقول عنهـا: «... في موضع المصدر المؤكد , كأنه قيل : تتمتعون متاع الحياة الدنيا »[3].

ويقول في اللفظة (ثوابا) من الآية الثانية ما نصه: « ... (ثوابا) في موضع المصدر المؤكد بمعنى إثابة أو تثويبا »[4] .

ففي المثـال الأول لا يورد الزمخشري صيغة المصدر المحـذوف الذي أشار إليه في قولـه (في موضع المصدر) والذي قامت مقامه صيغة (متاع), بل يكتفي بتقدير الجملة الفعلية (تتمتعون) وهي غير كافية لتبيين المصدر المنزاح في الأسلوب الظاهر للآية, لان جملة (تتمتعون) يمكن أن تتـأكد بعـدة صيـغ منهـا (تتمتعون متعة الحياة الدنيا) أو (تتمتعون بمتاع الحياة الدنيا) أو (تتمتعون تمتعكم بالحياة الدنيا) إلى غير ذلك من الصيغ التي يمكن تقديرها, والتي تـؤدي في مجملها معنى عاما هو أن المتمتع به يأتي عليه في النهاية الفناء في الدنيا كما جاء في اللسان على حد قول الأزهري[5] .

---

1 ـ يونس, آية 23 .

2 ـ آل عمران, آية 195 .

3 ـ الكشاف, ج2, ص232 .

4 ـ المصدر نفسه, ج1, ص420 .

5 ـ ينظر ابن منظور, اللسان, مادة (متع), ص329 .

وهذه الاحتمالات في التأويل مفادها أن هذه الصيغة (متاع) ضارعت صيغة المصدر الحقيقي وأدت وẓائف أسلوبية من بينها الإǭاز في اللفẓ والتوكيد في دلالة المعنى .

وإذا انتقلنا إلى المثال الثاني فإننا نجد الزمخشري ـ بعد أن يبين موقع لفظة (ثواب) من المصدر المؤكد ـ يذكر صيغتين اثنتين للمصدر المحذوف الذي وقعت صيغة (ثواب) موقعه وǖا (إثابة وتثويبا), ويقف عند هذا الحد ولا يبين كيفية الحصول على هاتين الصيغتين, وأيها أحق أن تكون هي المصدر الذي حلـت محلـه صيغـة (ثوابا), وما هي الوẓـائف الأسلوبيـة ـ إلى جانب وẓيفة التوكيد ـ التي أدǄا هذه الصيغة في التعبير القرآنيʹ

فنقول: إن بناء هذه الصيغة على التنكير يمكن أن نستشف منه التعظيم والتفخيم للجزاء الذي أعده الله لعباده الذين قاتلوا وقتلوا في سبيله, وكذا الإبام الذي يصحب التنكير ويرافق الإǭاز ويغني بلاغة عن التفصيل.

بذه الأمثلة نكون قد أتينا على التمثيل لانزياحية المباني في صيῃ المصادر, ليكون حديثنا الساعة حول انزياحية المصادر في المعاني التي تنتقل في الدلالة عليها وفقا لما تستخدم في التعبير عنه .

2 ـ انزياحية المعاني: وفي هذا اǗال يشير الزمخشري إلى الجانب الإعاري الذي تدل عليه بعض الصيῃ الصرفية للمصادر, ويستشهد في ذلك بقوله تعالى: **ﱡﭐ بلىٰ إ تصǝوا وتتقـوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﱠ**[1], وكذلك بقولـه عز وجل: **ﱡ وإن كان رجل يورث كلالة ﱠ**[2]. فيقول في المصدر الأول: «... وهو مصدر من فارت القدر إذا

[1] ـ آل عمران, آية 125 .

[2] ـ النساء, آية 12 .

غلت, فاستعيرت للسرعة, Ż سميت به الحالة التي لا ريث فيها و لا تعريج من شيء من صاحبها , فقيل: خرج من فوره كما تقول: من ساعته لم يلبث[1].

يشير الزمخشري إلى أن الصيغة الواقعة في الآية للفظة (فورهم) تدل على المصدر المħاح من معنى آخر عن طريق الإعارة الواردة مورد التسمية.

وإذا أردنا أن نلتمس مسوغا أسلوبيا لهذه الإعارة المصدرية, لا نملك إلا أن نبحث عن العلاقة القائمة بين هذا المصدر (فوران) الدال على غليان القدر وجيشانه, وبين (الفور) الذي يعني الحالة أو الوضعية التي لا تراخي فيها ولا التواء.

ومما لا شك فيه ـ كما ذكر الزمخشري ـ أن المسوǒ الأول لهذه الإعارة هو السرعة في الحركة, لان القدر عندما تفور ơرج زبدها بسرعة قوية لا يحجزه حاجز, وكذا الأمر مع السلوō الذي يحدث من أي كائن حي دون تردد أو عائق يعوقه, والمسوǒ الثاني لهذه اللفظة هو الاستجابة المتطابقة لهذه الحركة التي وعدها الله لعباده في حالة صبرهم و تقواهم.

وإذا تناولنا لفظة (كلالة) في الآية الثانية, نجد الزمخشري ـ بعد أن يطرح عدة احتمالات إعرابية لهذه الصيغة ـ سواء كوŒا خبرا أوحالا أو مفعولا به – يقول: «... والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء, قال الأعشى: فآليت لا أرثي لها من كلالة, فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد...»[2].

فالإعارة ـ على حد قول الزمخشري ـ تتمثل في المعنى الذي كانت تحمله اللفظة في حقيقة دلالتها داخل سياقها المعياري وهو الإعياء أو التعب, Ż وşفت في الدلالة على الميراث, ولكن ما نكتة تواجدها في التعبير القرآني عن الميراث Ý نقول: انه إلى جانب العلاقة التي θمع بين صفة الوهن الذي يصيب الإنسان بعدالإعياء والتعب, وبين حالة الضعف في النسب الذي يكون من جهة الموروث

---

[1] ـ الكشاف, ج1, ص462 .

[2] ـ المصدر نفسه, ص509 , 510 .

بالنسبة للوارث بعد انقطاع القرابة الحقيقية, والمتمثلة كما قال الزمخشـري وغيـره[1] ـ في الولد و الوالد ـ نجد مسوغا أسلوبيا آخر يعود إلى المعنى الذي كانت تؤديه هذه اللفظة في المجتمع العربي وبخاصة في قضية الإرث، نستشف هذا من قولهم: « ... والعرب تقول: لم يَرِثْه كلالة، أي لم يرثه عن عُرُضٍ بل عن قرب واستحقاق. قال الفرزدق :

ورثتم قناة الملك غير كلالة من * ابني مناف عبد شمس وهاشم»[2] .

و قد أردنا بهذا القول تبيان المسوغ الأسلوبي لهذه الصيغة الصرفية (كلالة) في سياقها الجديد في تأديتها المعنى المجازي داخل التعبير القرآني في الآية الكريمة .

بهذا القدر من الأمثلة يكون الحديث حول المستوى الانزياحي للمصدر قد أتى على آخره ليفسح المجال في الحديث عن المستوى الثالث والأخيرـ ـ مـن هـذا المبحث ـ والمتمثل في المحور الموالي.

ثالثا: المستوى الوظيفي :

نريد بذلك وظيفة الصيغ المصدرية التي أدتها داخل سياق الجمل القرآنية؛ وتكاد تنحصر هذه الوظيفة ـ على حد ما ورد في النماذج التي ذكرها الزمخشـري ـ في وظيفتي التوكيد والوصف. ودرءا لتكرار ما سبق ذكره من أمثلة نورد بعضـا منها على ذمة التمثيل لا الحصر؛ ففي وظيفة التوكيد نجد أمثلة كثيرة لصيغ المصادر الدالة على هذه الوظيفة، ولعل من أبرزها ما تجمـع في مصدرين اثـنين في آيـة واحدة من قوله تعالى: ﴿ **خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم** ﴾[3].

يبين الزمخشري وظيفة التوكيد التي قام بها كل من المصدريـن الواقعين في الآية في قوله: «... (وعد الله حقا) مصدران مؤكدان, الأول مؤكد لنفسـه, والثـاني مؤكد لغيـره, لان قوله ـ لهم جنات النعيم ـ في معنى وعدهم الله جنات النعيم

---

[1] ـ ينظر, ابن منظور, اللسان, مادة (كمل), ص591 , 592 .

[2] – ينظر، المرجع نفسه, ص592 .

[3] - لقمان, آية 9 .

فأكد معنى الوعد بالوعد. وأما حقا فدال على معنى الثبات أكد به معنى الوعـد، ومؤكدƵا جميعا قوله ـ لهم جنات النعيم»[1].

فبهذه الكيفية سلك الزمخشري في تبيان وظيفة التوكيد الـتي تؤديهـا المصـادر في الجمل القرآنية مستعملا أحيانا طرق المشابة مع غيرها من نظيراőـا ممـا ورد في أسلوب الخطاب القرآني، حيث يقول في صيغة (خالصة) « مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله... أي خالصة بمعنى خلوصا»[2]. ولكنه أحيانا أخـرى يلجـأ إلى خارج النماذج القرآنية ليذكر نظير وظيفة صيغة المصدر الموجودة في الآية ويـبرز وظيفتها التوكيدية، حيث يقول في قوله تعالى: ﴿ وƺد ا! ﴾: «... مصدر مؤكد كقولك: علي ألف درهم عرفا. لأن معناه اعترف لك بذا اعترافا »[3].

إضافة إلى وظيفة التوكيد هذه ـ التي تؤديها بعض المصادر في سـياق الجمـل القرآنية ـ نجد الزمخشري يذكر وظيفة أخرى تمثلت حسب قوله في الوصف، ومن أبين النماذج التي تبين وظيفة المصدر الوصفية قوله تعالى: ﴿ ومƞ يعرô ƞƺ ƿكر ربه نسلكه ƺŨابا صعدا ﴾[4]. يقول الزمخشري مفسرا وظيفة الوصف التي قام با المصدر في هذه الآية: « والصعد: مصدر صعد يقال: صـعد صـعدا وصـعودا، فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب، أي يعلوه ويغلبه ولا يطيقه. ومنه قول عمر ψ: وما تصعدني شيء ما تصعدتني خطبة النكاح، يريـد مـا شـق علـي ولا غلبني»[5].

وقد يتجاوز المصدر وظيفة الوصف من أجل المبالغة، هذا ما يؤكده الزمخشـري في قوله تعالى: ﴿ وƺسى أƿ تكرƭوا ƿيƠا ﴾[6]. في قوله: «... Ż إما أن يكـون

---

1 – الكشاف، ج3، ص236 .

2- المصدر نفسه، ص268 .

3 – المصدر نفسه، ص219 .

4- الجن، آية 17 .

5- الكشاف، ج4، ص170 .

6- البقرة، آية 216 .

بمعنى الكراهة على وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة, كقولها, فإنما هي إقبـال وإدباركأنه في نفسه كراهة يفرط كراهتهم له... »[1] . و يتأكده أيضا في قولـه عز وجل: ﴿ رب العالمين ﴾[2] , يقول الزمخشري في هذه الآية مـبرزا وظيفـة التوكيد: «... الرب: المالك, ومنه قول صفوان لأبي سفيان, لأن يربني رجل مـن قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. تقول : ربه يربه, كما تقـول: نمه عليه ينم فهو نم, و يجوز أن يكون وصفا بالمصـدر للمبالغـة, كمـا وصـف بالعدل»[3] .

وفي خاتمة هذا العنصر ـ قبل خاتمة المبحث برمته ـ نقول: إن النماذج الـتي وردت في تبيان وظيفة المصدر الوصفية قليلة إذا ما قيست بالوظيفة التوكيدية التي ظهرت بارزة في الأمثلة التي أوردها الزمخشري في هذا المجال. وجهة الحديث نكون قد أتينا على وصف ظاهرة المصادر من المنظور الذي برز في معالجة الزمخشري لهـا ضمن تواجدها في الجمل القرآنية قياسا لها أحيانا بما ورد و يرد في كلام العـرب نثره وشعره,لننتقل الآن إلى وصف ظاهرة الأسماء كما تناولها الزمخشري في كشافه.

يمثل الاسم في بناء الكلام إحدى الركائز الأساسية واللبنات الضـرورية في أداء العملية التواصلية بين الباث والمتلقي؛ فهو الذي يحرك دوما عناصر الجملة عن طريق الإسناد, إذ يسند إليه الفعل والخبر .

المبحث الثاني : مستوى الأسماء :

وفي البدء نجد علماء اللغة وضعوه في فاتحة عناصر تحقق السلوك القولي, فقالوا: إن الكلام يتكون من اللفظ المفيد ومثلوا لذلك بجملة (استقم), ثم أقروا بأنه إما اسـم أو فعل أو حرف [4] ولما « كان الاسم يخبر به ويخبر عنه, و الفعل يخبر به ولا يخبر

[1] – الكشاف, ج1, ص356 .

[2] – الفاتحة، آية 02 .

[3] – الكشاف، ج1، ص53 .

[4] – ينظر, السيوطي, همع الهوامع، المرجع السابق، ج3 , ص104, و بغية الوعاة, المرجع السابق، ص127, والأشباه والنظائر, المرجع السابق، ج3, ص2، وشرح ابن عقيل, المرجع السابق، ج1, ص13 .

عنه, والحرف لا يخبر به ولا يخبر عنـه, فقـد سمـا الاسـم علـى الفعـل والحرف»[1] .

وإذا تساءلنا ـ بعد هذا السمو ـ عن حدود ومعالم هذه الكلمة (إسـم) لمـا وجدنا جوابا شافيا وتعريفا كافيا, بالرغم من محاولة بعض العلمـاء والدارسـين تعريفه في مثل قول أحدهم: « الاسم هو ما دل على معنى في نفسه, دلالة مجـردة عن الاقتران, وله خصائص منها: جواز الإسناد إليه, ودخـول حرف التعريـف, والجر والتنوين والإضافة»[2] .وفي مثل قول الآخر: « الاسم ستة: (اسم فارق) و(اسم مفارق) و(اسم مشتق) و(اسم مضاف) و(اسم مقـتض)... »[3] وكـذا في مثل تصورهم له يكونه ما يتحدث عنـه وهـو قابـل للوصف ودخول الجر والتنوين والنداء والتصغير والألف واللام[4].

ولما لم يجد الدارسون تعريفا محكما لهذه الكلمة (اسم) لجـأ بعـض المحـدثين إلى محاولة الإحاطة بماهيته عن طريق تعداد العناصر المكونة له, فجمعها في ستـة معالم رئيسية هي (الاسم المعين ـ الاسم الحدث ـ الاسم الجنس ـ الاسم المبدوء بالميم الزائدة ـ الاسم المبهم) [5].

والذي يهمنا في هذا كله هو تتبع الأنماط التي أطلق عليها الزمخشري صفة الاسمية من خلال حركة أبنيتها داخل نظام الجملة في كونها مادة مادة صـرفية تشـكل ظاهرة أسلوبية تتنوع معانيها بتنوع مبانيها, وسيكون كلامنا منصبا حول أهم هذه الأبنية إفادة للمعاني وتبيانا للجوانب الدلالية في أساليب التعبير القرآني, ومن بـين

1- الأنباري, الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيين, تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد, دار احياء التراث العربي, (د ت), (دط)، ج1, ص7 .

2 ـ الزمخشري, المفصل في صنعة الإعراب, تقديم: إميل بديع يعقوب, دار الكتب العلمية, 1420 هـ, 1999 م, ط1, ص34 .

3 ـ ابن فارس, الصاحبي, تحقيق: عمر فاروق الطباع, مكتبة المعارف, بيروت, 1404هـ ,1993 م, ط1,ص 87 , 88 .

4 ـ ينظر، المرجع نفسه .

5 ـ ينظر، تمام حسان, اللغة العربية معناها و مبناها, دار الثقافة، الجزائر، (دت)، (دط)، ص 90 , 98 .

هذه الأبنية وضوحا و أكثرها شيوعا في الأسماء ـ كما تناولها الزمخشري ـ بنيـة الاسم عندما يكون نكرة في حالة الإنكار.

أولا : الاسم في صيغ التنكير :

إن النكرة في الأسماء «...هي الأصل و التعريف حـادث لأن الاسـم يكـون في أول أمره مبهما في جنسه... فالنكرة سابقة لأنها أعم من الجنس الـذي لكـل واحد منه... »[1].

وخاصية العموم هذه يتصف بها الاسم النكرة «... تمتلك في أساسها بـدايات العنصر الدلالي « للمجمل» ... »[2], والإجمال يحمل في ثناياه الإبهام الذي بدوره يؤدي معاني جزئية مثل: التعميم والتحقير والتقليل ... الخ[3] .

وإذا أدرجنا هذه المعاني ضمن المعايير الملازمة لصيغ النكرة المرتبطـة بالأسمـاء في دلالتها داخل السياق التعبيري لنظام الجمل, فإنه يستوجب علينا أن نورد أمثلة توضيحية لهذه المعاني المميزة لمعالم النكرة وهي:

1ـ معنى التعميم :

قلنا: إن العموم في التعبير الدلالي هو الذي تحمله الأسماء في صيغها النكرة الخالية من معالم التعريف؛ كالإضمار والإعلام, والإشارة, والأداة والإضافة المعنوية[4] .

وإذا شئنا أن نمثل لهذا المعنى ندرج قول الشاعر[5]:

إذا هاجت أخا أسف ديارُ * فليت طلول دار لم تجني

إذا خلجت بوارق في هزيع * دعوت فقلت : يا موت اختلجني

---

1 ـ ابن يعيش, شرح المفصل, عالم الكتب, بيروت, لبنان, د ط, د ت, ج 5, ص 85

2 ـ غراتشي غابونشان, نظرية أدوات التعريف و التنكير و قضايا النحو العربي, ت: جعفر دك الباب بطابع مؤسسة الوحدة للصحافة و الطباعة و النشر, دمشق, 1401 هـ, 1980م, د ط, ص2 .

3 ـ ينظر ابن يعيش, المرجع السابق, ج 5, ص 85 .

4 ـ العلوي اليمني, المرجع السابق, م2, د ط, ص11

5 ـ أبو العلاء المعري, لزوم ما لا يلزم, دار صادر, بيروت, د ط, د ت, ج 2, ص 565

فلم يكن غرض الشاعر تحديد نوعية كل من (الديار) و(البوارق) ونسـبتها إلى أصحابها, فعمد إلى تنكيرها ليفيد بها عموم المعنى وشمولية القول في التعبير عن هذه الأشياء غير الموسومة بأدوات التعريف .

2 ـ معنى التحقير و التقليل :

والمقصود منه صيغة الاسم عندما تنكر قصد الحط من شأن المسمى والتقليل من شأنه في سياق معنى الجملة التي ترد فيها, ويمكن أن ندلل على هذا المعـنى بقـول الشاعر: (1)

وضبٌ ما رأى في العيش خيرا * و ما ينفكّ من تربيت حسل

لو أن بني أفضل أهل عصري * لما آثرت أن أحضى بنسل

فكيف و قد علمت بأن مثلي * حسيس لا يجيء بغير فسل

لقد نكر الشاعر اسم (ضب), وتنكيره يعني عدم تخصيص ضب بعينه, ولكن يبقى المعنى بهذه الدلالة ناقصا ما لم يقابل هذا الاسم في السياق بجـنس آخـر, وهـو الإنسان المتمثل في الشاعر نفسه, إذ يعطي بذلك معنى آخر وهو التحقير والتقليـل من شأن الضب والإنسان المشبه به في السياق العام نفسه داخل نظام الجملة .

وإذا اكتفينا بهذين المعنيين في صفتهما سمتين ملازمتين لصيغ النكرات في الأسماء, جاز لنا اعتبارها معايير دلالية نزولا عند الذي يرى بأن الأسلوب يجب أن: «... ترى فيه مفارقة :Departure, أو انحرافا : Deviation عن نموذج آخر من القـول, ينظر إليه على أنه نمط معياري Norm, ومسوغ المقارنة بين النص المقارن والـنص النمط هو تماثل السياق The context ... »(2) .

ونريد القول من وراء هذا أن ما تحمله صيغ الأسماء النكرات ـ خلاف هذين المعنيين ـ يعد إنزياحات في التعبير يكون من مميزات الخطاب التي يجـب علـى دارسي الأسلوب الإشارة إليها. وقبل التطرق إلى الأمثلة و النماذج الـتي توصـل

---

1 ـ أبو العلاء المعري, لزوم ما يلزم, المرجع السابق, ج2, ص 345.

2 ـ سعد مصلوح, الأسلوب دراسة لغوية إحصائية, دار الفكر العربي 1404 هـ, 1984م, ط2 , ص27

الزمخشري إلى معالجتها أسلوبيا, ندرج أمثلة متفرقة نبيّن فيها معاني أخـرى قـد تؤديها صيغ النكرات للأسماء .

قلنا إنّ التعميم هو خاصية يؤديها الاسم النكرة المبهم في عمومه, ولكنـه قـد يخرج من العموم إلى الخصوص في مثل قوله تعالى: **وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين** [1] . فوقوع لفظة (رجل) نكرة كمـا قيـل: «... لإفادة أن المرسلين لا يعرفونه ليتواطؤوا معه »[2] . فهو بالرغم مـن كونـه يدخل في جنس الرجال دون النساء غير أنه خصّ بالفردية من مجموع الجـنس العام لهؤلاء, الرجال دون أن يحدد من هو هذا الرجل الذي جاء يسعى ؟

لقد قلنا إن التحقير والتقليل من المعاني التي تدل عليها صيغ النكرات في الأسماء, بشكل مخصوص, إلا أننا قد نلتمس عكس هذا المعنى, بحيث تؤدي هـذه الصـيغ معنى التكثير, إذ قد يؤتى بالاسم في صيغة النكرة يحمل معاني الزيادة والكثرة داخل السياق العام للجملة, ومـن أمثلـة ذلـك لفظـة الـدمع في قـول الشـاعر:

دمع على ما يفوت منسكب * ما الكأسُ من همتي و لا الجامُ [3]

لقد دلت لفظة (دمع) ـ بالإضافة إلى كونها صيغة للجمع ـ على كثـرة عـدد الدموع المتساقطة بغزارة, وغزارتها هذه أكدتها لفظة (تنسكب) الدالة على الجريان المستمر دون إنقطاع .

لا نريد أن نذهب بعيدا ـ في سرد النماذج التي تتميز فيها الأسمـاء النكـرات بدلالاتها على المعاني المغايرة للمألوف ـ لنفسح المجال إلى ما تجمع لدينا من أمثلة ونماذج وقف عليها الزمخشري, وهو يحاور الجمل القرآنية من خـلال الأسـاليب التعبيرية المختلفة .

---

1 ـ يس, آية 20

2 ـ الألوسي, روح المعاني, دار الفكر, 1403 هـ, 1983م, م 8, (د ط), ج 22, ص 225.

3 ـ أبو العلاء المعري, لزوم ما لا يلزم, المرجع السابق, ج 2, ص 413 .

لقد تناول الزمخشري صيغ الأسماء النكرات في شكلها المفرد ولم يعالجها في إطارها الظاهراتي الأسلوبي في الخطاب القرآني، وعليه نجده - وهو يشير إلى بعض المعاني التي أفادتها هذه الصيغ - يمزج بين عدة معاني و دلالات في الصيغة الصرفية الواحدة، والمعاني التي أشار إليها الزمخشري بعضها معياري كالتنكير الدال على التقليل المصحوب بالتوبيخ في مثل قوله تعالى: ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ [1] ، فيقول الزمخشري: «... فان قلت: لم قيل: (أذن واعية) على التوحيد والتنكير؟ قلت: للإيذان بأن الدعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم»[2]، أو بالتقليل المصحوب بالقناعة والرضا في مثل قول موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ [3] يقول الزمخشري: « وفي تنكير العقدة وإن لم يقل عقدة لساني أنه طلب حل بعضها إرادة أن الفهم عنه فهما جيدا، ولم يطلب الفصاحة الكاملة... »[4]، أو مثل التنكير المتضمن معنى الاستهزاء والسخرية كما هو الشان في قوله تعالى: ﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ [5]. يقول الزمخشري موضحا معنى التنكير في الآية بقوله: «... فان قلت: كان الرسول صلى الله عليه و سلم مشهورا علما في قريش، وكان إنباءه بالبعث شائعا عندهم، فما معنى قوله (هل ندلكم على رجل ينبئكم)، فنكروه لهم و عرضوه عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول؟ قلت: كانوا يقصدون بذلك الطنز والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك و التلهي متجاهلين به وبأمره ... »[6].

---

1 ـ الحاقة، آية 12 .
2 ـ الكشاف، ج 4، ص 481 .
3 ـ طه، آية 27 .
4 ـ الكشاف، ج 2، ص 535 .
5 ـ سبأ، آية 7 .
6 ـ الكشاف، ج 3، ص 251 .

إن أضرب هذه المعاني كثيرة في الصيغ النكرة للأسماء, سواء في التعبير العـادي أو في الأسلوب القرآني, ولكن الذي يجب أن نشير إليه ـ بعد هذا العرض، هناك معاني أخرى تدل عليها صيغ الأسماء ـ النكرة الواردة في الخطاب القرآني, وذلك من خلال رؤية الزمخشري لها في ظل السياق الأسلوبي للجمل الواردة فيها والـتي يمكن إجمالها في المعاني الآتية :

3 ـ معنى التخصيص :

لقد قلنا فيما سبق إن النكرات في الأسماء تفيد معنى العمـوم دون الخصـوص, ولكنها قد تخرج عن هذا المعنى لتدل على خصوصية الاسم وهو نكرة, وفد أشرنا إلى مثال واحد في القرآن الكريم, أما ألآن فندرج مثالا آخر مـن وجهـة نظـر الزمخشري, والمتمثل في قوله تعالى: ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة** ﴾[1] ، حيث يتساءل الزمخشري عن سبب تنكير الاسم (حياة) في الآية ويجيب بقوله «... لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ولذلك كانت القراءة بها أوقع مـن قراءة أبي على الحياة»[2] .

إذن فمفاضلة الزمخشري بين القراءتين تعود إلى كون الاسم (حياة) وهو نكـرة أبلغ في تأدية المعنى المراد من السياق والمتمثل في خصوصية الحياة التي يحياها هؤلاء ويحبذونها دون أنواع أخرى من التي لا يحبونها .

والى جانب هذا المعنى (التخصيص) الذي تدل عليه بعـض الأسمـاء النكـرة في القرآن الكريم ـ من منظور الزمخشري ـ هو الذي يقابل معنى العموم في النمط المعياري لهذه النكرات ـ هناك معاني أخرى يطلق عليها الزمخشري مصـطلحات مترادفة في مثل (التفخيم والتعظيم والتكثير) وذلك في مقابل معاني التحقير والتقليل في الجانب المعياري .

---

[1] ـ البقرة, آية 96.

[2] ـ الكشاف, ج 1, ص 298 .

4 ـ معاني التفخيم والتعظيم والتكثير:

كما هو واضح في هذه المصطلحات الثلاثة أنها تفيد عكس المعـاني السـابقة والمتمثلة في (التحقير والتقليل)، كما أنها تشير إلى خروج صيغ الأسماء النكرة عـن المعاني المألوفة في وظائفها السياقية. وعليه نجد الزمخشري يقـر صـراحة بالقيمـة الأسلوبية لبعض الصيغ التنكيرية للأسماء في الجمل القرآنية .

فنجده يقول في قوله تعالى: ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات** ﴾ (1) ـ مبينا أهمية الإبهام في أداء معنى التفخـيم «...وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله, وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على انه العلم الذي لا يشتبه والمميز الذي لا يلتبس. ويقال للرجل من فعل هـذا؟ فيقول: أحدكم أوبعضكم، يريد الذي تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح وانوه بصاحبه. وسئل الحطيئة عن اشعر الناس فـذكر زهـيرا والنابغة ثم قال: لو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال: لو شئت ذكـرت نفسي لم يفخم أمره)(2).

فالتفخيم كما بين الزمخشري لون أسلوبي يحدث جراء خروج صيغ التنكير عن دلالتها المعيارية إلى دلالتها الإنزياحية .

والمعنى نفسه يشير إليه الزمخشري في دلالة الاسم النكرة (هدى) في قوله تعـالى: ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ (3) .دون أن يقر بذلك صـراحة فيقو :« ونكر (هدى) ليفيد ضربا مبهما لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره، كأنه قيل: على أي هدى، كما نقول: لو أبصرت فلانا لأبصرت رجـلا، وقـول الهـذلي:

فلاوأبي الطير المربة بالضحى * على خالد لقد وقعت على لحم (4)

---

[1] ـ البقرة , آية 253 .
[2] ـ الكشاف, ج 1, ص 382 .
[3] ـ البقرة, آية 2 .
[4] ـ الكشاف, ج 1, ص 145 .

إذن فتنكير أسماء كل من (هدى, ورجل, ولحم) تفيد إلى جانب الإبهام في المعنى ـ وهي الخاصية الثابتة ـ معنى التفخيم الذي يفهم من سياق الكلام الوارد في الأمثلة الثلاثة التي ساقها الزمخشري ليدلل على هذا المعنى (التفخيم) الذي قد تفيده صيغ النكرة في هذه الأسماء .

ولا يفرق الزمخشري ـ و هو يتناول بعض صيغ الأسماء النكرات ـ بين معنيي التعظيم والتكثير, فيشير اليهما في سياق واحد في قوله تعالى: ﴿ ... **قالوا إن لنا لأجرا** ﴾[1] فيقول: «... والتنكير للتعظيم, تقول العرب: إن له لإبلا, وأن له لغنما, فيقصدون الكثرة »[2] .

ونجده مرة أخرى يجمع في صعيد واحد في مثال واحد بين المعاني الثلاثة: (التفخيم والتعظيم والتكبير), ولكن هذه المرة يكون الوصول إلى هذه المعاني عبر جسر إزدواجية الانزياح, في توظيف الواقع نكرة في الجملة القرآنية, ويستدل في ذلك بقوله تعالى: ﴿ **فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم** ﴾[3] فيقول معقبا على جملة (ببعض ذنوبهم) يعني بذنب التولي عن حكم الله وإرادة خلافه, فوضع ببعض ذنوبهم موضع ذلك, وأراد أن لهم ذنوبا جمة كثيرة العدد, وأن هذا الذنب مع عظمه بعضها وواحد منها, وهذا الإبهام لتعظيم التولي واستسرافهم في ارتكابه. ونحو البعض في هذا الكلام ما في قول لبيد: أو يرتبط بعض النفوس حمامها, أراد نفسه, وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام, كأنه قال نفسا كبيرة ونفسا أي نفس. وكما ان التنكير يعطي معنى التكبير وهو معنى البعضية, فكذلك إذا صرح بالبعض »[4] .

ولم يذهب الزمخشري في كلامه مباشرة إلى الانزياح الواقع في لفظة (البعض) التي ارتبط بها مصير دلالة صيغة (الذنوب) الواقعة نكرة, ولعل هذا ما قيل في

---

[1] ـ الأعراف, آية 113 .
[2] ـ الكشاف, ج 2, ص 102 .
[3] ـ المائدة, آية 49 .
[4] ـ الكشاف, ج 1, ص 615 .

معناه: «... وذكر البعض والمراد الكـل, كمـا يـذكر العمـوم ويُـراد بـه الخصوص »[1].

وقد تدل صيغة بعينها ـ في منظور الزمخشري ـ على التبعـيض أو التمـايز أو التكثير بالعدد في مثل قوله تعالى: ﴿ أ**ن تقول نفـÈ يا حسرتا ﻋﻠ? ما فرﭬـǨ في جنب ا!** ﴾[2] فيقول: « فيجوز أن يكون المراد بـا بعض الأنفس وهي نفـس الكافر, وأن يراد بـا نفس متميزة بلجاج في الكفر, أو أن يراد التكثير. كما قـال الأعشى :

و رُب بقيع لو هتفتُ بجوّه * و أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

وهو يريد أفواجا من الكرام ينصرونه لا كريما واحدا, ونظيره: رُب بلد قطعـتُ, ورُب بطل قارعتُ, وقد إختلس الطعنة ولا يريد إلا التكثير »[3] إلا أن هناك من يُجوز ـ إلى جانب هذا ـ دلالة (التعظيم) «... أي نفس متميزة من الأنفس, إما بلجاج في الكفر أو بعذاب عظيم... »[4] .

وإذا كان وقوع هذا الاسم النكرة (نفس) ـ في سياق الجملة القرآنية ـ قـد أثار معاني ثلاثة (التبعيض والتكثير والتفخيم), إذ يحتمـل أسـلوبين: أن تكـون إحداها هي المعنى المناسب لخروج النكرة عن معناها الملازم لها ـ فان الاسـم نفسه في جملة أخرى, وفي سياق آخر يثيـر إنزياحا أسلوبيـا مغايرا لما سبق من حيث البناء, ومتحدا من حيث الدلالة العامة التي يؤديها هذا الإسم النكرة, ويبرز الزمخشري هذا الحدث الأسلوبي في قوله تعالى: ﴿ **علمǨ نفـÈ ما أحـȒـرت** ﴾[5]. فيتساءل عن سبب إفراد هذا الاسم النكرة (نفس), ويجيب عن تساؤله هـذا في قوله: «... فإن قلت: كل نفس تعلم ما أحضرت, كقوله تعالى: ﴿ **يوم ﺗﺠـد**

---

[1] ـ الطبرسي, مجمع البيان, المرجع السابق، م 2, ج 6, و 7, ص 116 .
[2] ـ الزمر, آية 56 .
[3] ـ الكشاف, ج 3, ص 404 .
[4] ـ الألوسي, روح المعاني, المرجع السابق، م 8, ج 24, ص 17 .
[5] ـ التكوير, آية 14 .

كل نفس ما عملت من خير محضرا، لا نفس واحدة فما معنى قوله (علمت نفس)؟ قلت: هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه. ومنه قوله عز وجل: « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين»، ومعناه معنى كم و أبلغ منه. وقول القائل: (قد أترك القرن مصفرا أنامله)، وتقول لبعض قواد العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رُب فارس عندي، أولا تعدم عندي فارسا، وعنده المقانب، وقصد بذلك التمادي في تكثير فرسانه، ولكنه أراد براءته من التزيد، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده، فضلا أن يتزيد، فجاء بلفظ التقليل ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين »[1] .

إن هذه الحشود من الأمثلة التي أوردها الزمخشري كانت من أجل تأكيد انزياحية المعنى الذي يحدث في توظيف الاسم الواحد نكرة من تعبير لآخر، ومن سياق لغيره .

وفي مفاضلة أسلوبية بين معنيين متآلفين في عموم الدلالة ومختلفين في خصوصيتها يبين الزمخشري القيمة الأسلوبية التي يؤديها الاسم النكرة في توضيح المعنى وتوكيده. فيقول - في قوله تعالى: ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾[2] - معقبا على جملة (على ذهاب به) «... من أوقع النكرات وأخرها للمفصل؛ والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به و طريق من طرقه. ومنه إيذان باقتدار المذهب، وأنه لا يتعايا عليه شيء إذا أراده، وهو أبلغ في الإبعاد من قوله (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين) »[3] .

تلك هي بعض المعاني التي يؤديها الاسم في صيغه النكرة، من خلال بعض الانزياحات التي تحدث له جراء تنوع أساليب الجمل القرآنية في سياقاتها التعبيرية

---

1 - الكشاف، ج 4، ص 223 .
2 - المؤمنون، آية 18 .
3 - الكشاف، ج 3، ص 28 .

من موقف لآخر. لقد تعرفنا من خلال هذه الأمثلة ـ التي أوردها الزمخشري لصيغ الأسماء النكرة ـ على المعاني والدلالات التي أدتها هذه الصيغ في انزياحاتها المختلفة داخل سياقات الجمل المتنوعة, ونحاول الآن التعرف على المعاني والدلالات التي تؤديها صيغ الأسماء وهي معارف .

ثانيا: الاسم في الصيغ المعرفة :

ينقسم الاسم المعرفة إلى قسمين رئيسيين: الأول من حيث الوضع اللغوي, ويتمثل في (العلم, والضمير, واسم الإشارة والاسم الموصول) وأما القسم الثاني فيكون من حيث التركيب ويتعين في (المعرف بالإضافة, والمعرف بأل العهدية): « وهي التي يكون معهودها ذكريا, أي سبق ذكره فزال عنه الإبهام فيما سبق من كلام, أو ذهنيا لم يخل ذهن المتقبل منه و إن لم يسبق ذكره, أو حضوريا, أي دل عليه حال الكلام) »[1].

إن الذي يكون من اهتمامنا في هذه المعارف هو ما كان يمثل في منظور الزمخشري لونا من ألوان التمايز الأسلوبي للكلمة المعرفة داخل أبنية الجمل القرآنية ومن هذا المنطلق يكون البدء في كلامنا بالاسم المعرف في إطار التركيب الذي هو على ضربين: معرف بالإضافة و معرف بأل .

1 ـ الاسم المعرف بأل :

قلنا في بداية حديثنا عن الاسم أن الأصل فيه هو النكرة, وأن لهذه الصيغة (النكرة) دلالات ومعاني خاصة مثل: (الإبهام والتحقير والتقليل), كما أن لها معاني أخرى فقد تنزاح إليها, قصد التخصيص والتفخيم والتكثير والمبالغة ...الخ ولكن السؤال الذي يطرح بعد هذا العرض, هو هل يحدث تغاير وتمايز في دلالات هذه الأسماء عندما تضاف إليها أداة التعريف (أل) أي: عندما تركب معها في لفظ واحد داخل السياق؟

[1] ـ ينظر محمد الهادي الطرابلسي, الأسلوب في الشوقيات, منشورات الجامعة التونسية,1981 م, د ط, ص 377 .

تبرز (أل) التي تفيد المعرفة في الاسم – كما جاء في كتب النحاة – في نوعين: نوع يفيد العهد, وهو الذي يدخل على النكرة فيزول عنـها الإبـهام والشـيوع وتجعلها تفيد درجـة محددة من المعـرفة, ونـوع يفيـد الجنس, أو الجنسـية, وبدوره يدخل على النكرة فيجعلها تفيد معنى الجنس[1] .

والذي يهمنا من هذا كله هو الجانب الأسلوبي الذي تؤديـه هـذه الأداة (أل) في دخولها على الاسم من خلال الجملة القرآنية, وذلك من منظور الزمخشري .

فنأخذ على سبيل التمثيل لا الحصر – قوله تعالى: **﴿ وإذا قيل لهم ءامنوا كمـا ءامن الناس ﴾**[2] .حيث لم يقف الزمخشري – من أداة التعريف المتصلة بلفظـة (الناس) – موقفا واحدا إذ نجده يجمع في تبيان معناها في الآية بين ثلاث دلالات أسلوبية:

الأولى تعتمد على السياق الخارجي المرتبط بذهنية المخَاطِب, أو بالتعبير القـديم المتعلق بما عهده هذا الذي يوجه إليـه الخطـاب في الآية. فيقـول الزمخشـري: « واللام في الناس للعهد , أي آمنوا كما آمن رسول الله ρ ومن معه, أوهم ناس معهودين كعبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من جلدتهم ومن أبنـاء جنسـهم, أي كما آمن أصحابكم وإخوانكم »[3] .

أما المعنى الأسلوبي الثاني الذي أشار إليه الزمخشري – والذي يمكن أن يفهم من ارتباط هذه الأداة (أل) بلفظة (الناس) – هو إفادة معنى الاستغراق الذي يُبقي على عمومية المعنى وشموليته في الجنس المراد تعريفه, مع إمكانية التخصـيص المطلـوب في الخطاب الوارد في سياق التعبير, فيقول في هـذا الصدد: « أو للجنس كمـا آمن الكاملون في الإنسانية »[4] .

---

[1] – ينظر، عباس حسن, النحو الوافي, دار المعارف بمصر, 1966م, ط 3, ج 1, ص 383 , 385 .
[2] – البقرة, آية 13 .
[3] – الكشاف, ج 1, ص 183 .
[4] – المصدر نفسه .

وُيبقى الزمخشري ـ إلى جانب هذين المعنيين ـ دلالة أسلوبية ثالثـة توقـع أن تؤديها (أل) على لفظة (الناس)، وتتمثل في كونها فاصلة بين الحقيقة والمجاز، فمـن شملتهم من جنس البشر فهم أناس على الحقيقة، وأما من أخرجتهم فهـم خـارج جنس البشر، ويدخلون في جنس البهائم والحيوانـات، فيقـول:«... أو جعـل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة، ومن عداهم كالبهائم في فقدان التمييز بين الحق والباطل... »[1] .

إن هذه القيمة الأسلوبية التي أعطاها الزمخشري لهذه الأداة (أل) في تعريف فئـة من المؤمنين، قد لا يوافقه في جزء منها بعض المفسرين، فقد حصـرها أحـدهم في إفادة العهد دون الجنس، فقال: «... والألف واللام في الناس والسفهاء للعهد لا للجنس، والمراد بهم المؤمنون من أصحاب النبي ﷺ، وإنما سموا الناس لأن الغلبـة كانت لهم...»[2] ويخالفهما آخر في قوله:«..واللام إما للجنس أو للاستغراق »[3]

وتبقى المفارقة الدلالية بينة ـ في ما ذهب إليه الزمخشري من رأي ـ في الإثارة الأسلوبية التي قد تفيدها هذه الأداة من وراء ثلاث قراءات مختلفة انطلاقـا مـن معطيات متنوعة .

ويشير الزمخشري مرة أخرى إلى تبيان تنوع الدلالة التي قد تفيدهـا هـذه الأداة (أل) في إقترانها بالاسم، فيقول في نفس الآية ـ في لفظة (السفهاء) من قوله تعالى: ﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾[4] ـ ما نصه « واللام في (السفهاء) مشار بها إلى الناس كما تقول لصاحبك: إن زيدا قد سعى بك، فيقول: أو قد فعل السفيه؟ ويجوز أن تكون للجنس، وينطوي تحته الجاري ذكـرهم علـى زعمهـم واعتقادهم لأنهم عندهم أعرق الناس في السفه »[5]. يضع الزمخشري ـ كما نفهم

---

[1] ـ الكشاف، ج1، ص 183 .

[2] ـ الطبرسي، مجمع البيان، المرجع السابق، م 1، ج 1، ص 108 .

[3] ـ الألوسي، روح المعاني، المرجع السابق، م 1، ج 1، ص 155 .

[4] ـ البقرة، آية 13.

[5] ـ الكشاف، ج 1، ص 182 ، 183 .

من قوله هذا معنيين أسلوبيين قد تفيدهما هـذه الأداة (أل) في سـياق الجملـتين المتعاقبتين في الآية؛ ففي القراءة الأولى تفيد معنى الإشارة إلى ما سبق إسناد فعـل الإيمان إليه وهم (الناس), وأما المعنى الثاني فانه يفصل بين مساق الجملتين, بحيـث يحصر صفة في فئة رسم هؤلاء صورتها في أذهانهم واعتقادهم .

ويغوص الزمخشري في البحث عن المفارقات الأسلوبية,حتى وإن كان المعنى الذي تدل عليه هذه الأداة - في اقترانها بالاسم - واحدا؛ ففـي قولـه تعـالى: ﴿ **و بشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات** ﴾[1] . يقول: «... والصالحات كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة, واللام للجنس, فان قلتَ: أي فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد و بينها داخلة على الجمع؟ قلتُ: إذا دخلت على المفرد كان صالحا لأنْ يراد به الجنس إلى أن يحاط به وأن يراد به بعضـه إلى الواحد منه. وإذا دخلت على الجموع صلح أن يراد به جميع الجنس. وأن يراد بـه بعضه لا إلى الواحد منه. لان وزانه في تناول الجمعيـة في الجـنس وزان المفـرد في تناول الجنسية والجمعية في عمل الجنس لا في وحداته »[2] .

من الواضح في كلام الزمخشري أن هناك فرقا أسلوبيا دقيقا تؤديه أداة التعريـف (أل) في إقترانها بالاسم المفرد أو الجمع, وذلك بالرغم من كونها تحمل معنى عامـا وهو دلالتها على عمومية الجنس الذي حدده مساقها داخل نظام الجملة.

هذه إذن بعض الدلالات والمعاني التي قد يؤديها الاسم في شكله المركب مع أداة التعريف (أل) - من خلال عينة من الأمثلة - أشار إليها الزمخشري في معالجتـه للجمل القرآنية. وننتقل الآن إلى نماذج أخرى يكون الاسم فيها معرفا بالتركيـب الإضافي لنتعرف على أهم ما يؤديه من معاني و دلالات مختلفة .

---

[1] - البقرة, آية 25 .

[2] - الكشاف, ج 1, ص 255 .

2 ـ الاسم المعرف بالإضافة :

يلتمس الزمخشري في الاسم المضاف إلى معرفة معاني و دلالات أسـلوبية يمكننـا حصرها فيما يلي :

أ/ التفضيل و التعظيم :

ذهب الزمخشري في تناوله لبعض التراكيب الإضافية لأسماء إلى اعتبـار أن مـا يضاف من الأسماء إلى بعض المعارف يكتسب دلالات معنوية من الطرف الـذي يضاف إليه، فيرى في قوله تعالى: ﴿ طس تلك ءايات القرءان و كتاب مبين ﴾[1] أن «... إضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه»[2] . ويؤيده في ما ذهب إليه صاحب البحر المحيط بقوله: « وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم، لان المضاف إلى العظيم عظيم»[3] .

ويكرر هذا الاستنتاج الدلالي في قوله تعالى: ﴿ هذه ناقة الله لكـم ءايـة ﴾[4] فيقول: «... وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيما لها وتفخيما لشأنها، و أنها جـاءت من عنده مكونة من غير فحل و طروقة، آية من آياته، كما تقول: آية الله »[3] .

ولكن هل هذا الحكم ينطبق على جميع الأسماء التي تضاف إلى كل ما هو عظـيم كما هو الشأن في هذين المثالين السالفين ؟

طبعا لا يستمر الزمخشري مع هذا الحكم إذ نجده يقر في ـ مواقع تركيبية للاسـم المضاف ـ معاني أخرى يتمثل البعض منها فيما يلي :

---

[1] ـ النمل، آية 1 .
[2] ـ الكشاف، ج 3، ص 135 .
[3] ـ أبو حيان، البحر المحيط، دار الفكر، 1412 هـ ، 1992م، (د ط)، ج 8، ص 206 .
[4] ـ الأعراف، آية 73 .
[5] ـ الكشاف، ج 2، ص 89 .

ج ـ التوبيخ و الاستهزاء :

يتجلى هذا المعنى في إضافة (الشركاء) إلى الله تعالى, وذلك من خـلال قولـه تعالى: ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم و يقول أين شركائي ﴾ (1) . وفي قوله عز وجل: ﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم ﴾ (2) .

فيقول الزمخشري معقبا على الإضافة الأولى بقوله: « فشركائي علـى الإضـافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهـم»(3) . ففـي قوله (حكاية لإضافتهم) يعني أن الله تعالى لم ينسب هؤلاء الشركاء لـه, ولكنـه خاطبهم انطلاقا من قناعة هؤلاء المخاطبين في الدنيا. إذن فالسياق في هذه الآيـة غيره في الأمثلة السابقة عندما كانت الإضافة من قبل الله تعالى, سواء في الآيـات مضافة إلى الكتاب أو في الناقة, مضافة إليه عز وجل .

والأمر نفسه يؤكده الزمخشري في الإضافة الثانية يقوله: « وإضافة الشركاء إليـه على زعمهم توبيخا لهم »(4) .

فإضافة (الشركاء) إلى الله تعالى ـ هنا أيضا ـ لم تفد التعظيم و التفخـيم, بـل أفادت التوبيخ, وذلك لأن إضافتها غير حقيقية, وأن إعادة ذكرها من قبله تعـالى من باب تذكيرهم لمقولتهم في الدنيا وإفحامهم في الآخرة, وهي ـ كمـا قـال الزمخشري ـ توبيخ لهم على جرأتهم فيما ذهبوا إليه من شرك .

ولا يتوقف الزمخشري عند هذه المعاني التي قد يؤديها الاسم مضافا إلى المعارف, بل نجده يتحسس معاني أخرى نذكر منها ما يلي :

---

1 ـ النحل, آية 27 .
2 ـ الكهف, آية 52 .
3 ـ الكشاف, ج 2, ص 407 .
4 ـ المصدر نفسه, ص 488 .

ج ـ الاستعطاف : يستنبط الزمخشري هذا المعنى الأسلوبي من إضافتين مختلفتين:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ **لا تضار والدة بولدها و لا مولود له بولده** ﴾(1) .

والثانية: في قوله عز وجل: ﴿ **قال ابن أم إن القوم استضعفوني** ﴾(2) .

فيعقب على الإضافة الأولى بقوله: « فان قلت: كيف قيل بولدها ؟ قلت: لما كانت المرأة على المضارة أضيف إليها الولد استعطافا لها عليه, وأنه ليس بأجنبي منها فمن حقها أن تشفق عليه, وكذلك الوالد »(3) , ويقول على الإضافة الثانية ما نصه: «... وقيل كان أخاه لأبيه وأمه, فان صح فانه أضافه إلى الأم إشارة إلى أنهما من بطن واحدة, وذلك أدعى إلى العطف والرحمة وأعظم للحق الواجب. ولأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها, ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها»(4).

إن التعليل العاطفي الذي ذهب إليه الزمخشري في هاتين الآيتين أبلغ ما يكون في تحريك النفس عن طريق توظيف عناصر الإشارة مثل (البنوة) و(الأخوة) وغيرها ونظن أن الأمر يكون أقل تأثيرا لو صيغ الكلام بالنحو التالي:(لا تضار والدة بالولد). وكذا الأمر لو قيل: (يا بن أبي).

ويبقى التركيب الإضافي للأسماء مع المعارف يثير اهتمام الزمخشري في تقصى المعاني التي يتركها الأسلوب القرآني, فنجده يتفطن إلى المعنى المواتي .

2.د ـ القوة و الشدة :

يرى الزمخشري في أن الإضافة التي وقعت في الاسم المشتق (زلزالها) المرتبط بالمعرفة (الأرض) ـ في قوله تعالى: ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾(5) ـ تنم على منتهى شدة وقوع الفعل ومنتهاه, فيقول « فان قلت: ما معنى زلزالها بالإضافة؟

1 ـ البقرة, آية 233 .
2 ـ الأعراف, آية 150 .
3 ـ الكشاف, ج 1, ص 371 .
4 ـ المصدر نفسه, ج 2, ص 127 .
5 ـ الزلزلة, آية 01 .

قلت: معناه زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة ومشيئة الله. وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده, ونحوه قولك: أكرم التقي إكرامه. وأهن الفاسق إهانته. تريد ما يستوجبونه من الإكرام والإهانة. أو زلزالها كله, أوجميع ما هو ممكن »[1] .

وتبقى هذه المعاني و الدلالات التي استوحاها الزمخشري من التركيب الإضافي للأسماء مع المعارف في التعبير القرآني, مجرد أمثلة لنماذج كثيرة يزخر بها الخطاب القرآني في أساليبه التعبيرية المختلفة.

وإذا كانت هذه بعض السمات الأسلوبية للاسم عندما يكون ظاهرا و مركبا تركيبا بالإضافة, فما هي يا ترى بعض ملامحه عندما يكون خفيا مضمرا ؟

ثالثا: الاسم في حالة الإضمار :

لا نريد من وراء هذا العنوان الوقوف عند جل الضمائر التي تناولها الزمخشري في الأسلوب القرآني, بل نود بهذا الوقوف على المعاني والدلالات المتفرقة التي أشار إليها الزمخشري, في معرض حديثه عن الضمائر و أحوالها في الجمل القرآنية.

يشير الزمخشري إلى حالة متميزة في الإضمار الواقع في قوله تعالى: **﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه و هدى و بشرى للمؤمنين ﴾**[2] . و ذلك بقوله: « والضمير في نزله؛ للقرآن. ونحو هذا الإضمار: أعني إضمار ما لم يسبق ذكره فيه فخامة لشأن صاحبه حيث جعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه, ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته »[3]

إذن فالسمة الأسلوبية في هذا النمط من الضمائر, التي لا تعود على اسم مذكور قبلها تكمن في التفخيم والإعلاء من شان الاسم المضمر .

ويشير الزمخشري – إلى جانب هذه الحالة – إلى حالة أخرى يكون العدول من المضمر إلى الاسم المظهر – وذلك لغاية دلالية أسلوبية – في قوله تعالى: **﴿ وقالوا**

---

[1] – الكشاف, ج 4, ص 275 , 276 .

[2] – البقرة , آية 97 .

[3] – الكشاف, ج 1, ص 299 .

مال ـ lØt الرêول يأكل الÛعاÿ و ع آي في الأêواâ لولا أنزل أليه ملÕ فيكور معه نØيراً , أو يلقى أليه كنز أو تكور له جنة يأكل منZا و قـال الÑـالمور أر تتبعور ألا رجلاً مسحوراً ا [1] .

حيث يقول الزمخشري مبينا هذا الانزياح و موضحا سبب ذلك بقولـه: « وأراد بالظالمين إياهم بأعيانهم, وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيمـا قالوه »[2] يود القول من هذا أنه استغنى عن الضمير الذي ينوب عن ذكر الاسم, وجيء بذا الأخير لدلالة أسلوبية, وذلك لان تركيبه « ليس تركيبا سـائغا, بـل التركيب العربي أن يقول: وأرادهم بأعيانهم بالظالمين»[3] .

إذ اكتفينا بذين النمطين لوضعية الاسم عندما يكون مضمرا, وننتقل إلى حالته عندما يكون مشتقا في سياق الجملة القرآنية .

رابعا: الاسم في حالة الاشتقاق :

يقوم الزمخشري ـ في النماذج التي يرد فيها الاسم المشتق ـ بالمفاضـلة بـين صيغتين صرفيتين, سواء أكانتا واقعتين في الجملة الواحدة, أم واقعة إحداهما بـدل الأخرى.

ففي الحالة الأولى نجده يفاضل بين صيغتي (الرحمان) و(الرحيم) من قوله تعالى: **اا بسم ا! الرحمار الرحيم ا** [4] فيقول: «... وفي الرحمان من المبالغة ما لـيس في الرحيم, ولذلك قالوا: رحمان الدنيا والآخرة, ورحـيم الـدنيا" [5] .يسـتند الزمخشري في تبيان دلالة المبالغة الموجودة في (الرحمان) دون (الرحيم) على كـون

1 ـ الفرقان, آية 7, 8 .

2 ـ الكشاف, ج 3, ص 82 .

3 ـ البحر المحيط, المرجع السابق، ج 8, ص 82 .

4 ـ الفاتحة, آية 01 .

5 ـ الكشاف, ج 1, ص 41 .

الأولى مبنية من سبعة أحرف, والثانية من ستة أحرف فقط, وهذا ينطبق ـ كمـا قال. مع مقولة العرب: « إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى »[1].

ويتبين الزمخشري كذلك المفارقة الدلالية في مفاضلته بـين الصـيغ الموجـودة في التعبير الأسلوبي للجمل القرآنية, وبين ما يمكن أن تحل مكانها لو كانت في غير القرآن الكريم, أي في التعبير الأسلوبي العادي.

ويمكن أن نتبين ذلك من خلال تناولنا للأمثلة الآتية:

قولـه تعالى: ﴿ **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت** ﴾[2]

فيعلل الزمخشري سبب اختيار القرآن الكريم لصيغة (مرضعة) بدل (مرضع), لكون الأولى أكثر دلالة في وضعيتها من الثانية لأن: « المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي, والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حـال وصفها بها, فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت بـه هـذه وقـد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة »[3] .

وهكذا يستمر الزمخشري في تفضيل صيغ الأسماء على غيرهـا بـين (مطهـرة وطاهرة)[4] وبين (مولود له)[5] على (الوالد). فيعلل الأولى بقوله:« مظهرة فخامة لصفتهن ليست في طاهرة, وهي الإشعار بأنه مطهراً طهرهن, وليس ذلـك إلا الله عز وجل»[6]. ويُبررُ سبب تواجد الصيغة الثانية في سياق التعبير بقوله « ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم, لأن الأولاد للآبـاء, ولـذلك ينسـبون إلـيهم لا إلى الأمهات... ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهـو قولـه تعالى: ﴿ **واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده** ﴾[7] .

---

[1] الكشاف، ج 1، ص 41 .
[2] ـ الحج, آية 2 .
[3] ـ الكشاف, ج 3, ص 4 .
[4] ـ ﴿ قالوا هذا الذي رزقنا من قبل و أتوا به متشابها و لهم فيها أزواج مطهرة و هم فيها خالدون ﴾ البقرة 25
[5] ـ ﴿ لا تضار والدة بولدها و لا مولود له بولده ﴾ البقرة 233 .
[6] ـ الكشاف ، ج 1، ص 262 .
[7] ـ المصدر نفسه ، ص 370 .

فنفهم من هذه المفاضلة أن السياق هو الذي حدد الصيغة التي يجب أن تكون بدل الأخرى, لتدل على المعنى بدقة لا تقوم به غيرها من الصيغ .

ويتم هذه المفاضلات بين الصيغ الصرفية لأسماء - التي أجراها الزمخشري في التعابير القرآنية - بقوله تعالى: **﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾** [(1)] . فيقول الزمخشري مفصلا صيغة المفعول الواقع في الجملة على صيغة الفعل بقوله: « فإن قلت: لأي فائدة أوثر إسم المفعول على فعله؟ قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم, وأنه لا بد أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة, وهو أثبت أيضا لإثبات الجمع إلى الناس, وأنهم لا ينفكون منه. ونظيره قول المتهدد: إنك المنهوب مالك محروب قومك, فيه من تمكن الوصف و ثباته ما ليس في الفعل, و إن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى: (يوم يجمعكم ليوم الجمع) تعثر على صحة ما قلت »[(2)] .

كما هو بين في قول الزمخشري إن دلالة صيغة اسم المفعول أبلغ في تأدية المعنى المراد من التعبير القرآني في صيغة الفعل لو جيء بها في مكانها .

إذن فاختيار صيغة صرفية دون أخرى للاسم المشتق في التعبير القرآني يعود إلى موقعها الأسلوبي في المعنى المراد إيصاله إلى المتلقي .

يعد هذا الذي تناولناه - في صيغ الأسماء المشتقة - ضرب من أضرب الاسم في وضعة اللغوي, وننتقل الآن إلى تناول ضرب آخر تتعلق فيه المعرفة الاسمية أيضا بالجانب اللغوي .

خامسا: الاستعمال الدلالي لأسماء الإشارة :

لا نريد من وراءه هذا المبحث التطرق إلى كل أسماء الإشارة , بل سيكون كلامنا منصبا حول النماذج التي لاحظ فيها الزمخشري بعض الجوانب المتعلقة بها

---

[1] ـ هود، آية 103 .

[2] ـ الكشاف، ج 2، ص 292 .

هو مغاير للأنماط العادية في توظيف أسماء الإشارة, سواء كان ذلك في إطار البنية أم الدلالة داخل سياق الجمل القرآنية .

إن أسماء الإشارة كما هو معروف و هي غير مركبة في السياق « تـدل علـى مطلق الإشارة, من دلالته على مشار إليه أو نوعه, أو هو محسوس أم غير محسوس؟ حيوان أم غير حيوان؟... »[1] . وهذا الأمر يكون في العموم عن طريق الإشـارة المقولية المصحوبة بوسيلة من وسائل الإشارة المادية كالإصبع والـرأس وغيرهـا, وقد تكون الإشارة إلى شيء معنوي يشار إليه بالتعبير القولي الذي توظف فيه أسماء الإشارة, ويشترط في ذلك تلاؤم هذه الأسماء مع المشار إليه في الإفـراد و التثنيـة والجمع والتذكير والتأنيث والعاقل وغير العاقل والقرب والبعد وغيرها مما يشترطه النحاة في تركيب اسم الإشارة داخل سياق الجمل[2] .

وانطلاقا من هذه المبادئ العامة لاسم الإشارة نتطرق إلى بعض الملاحظات الـتي أبداها الزمخشري حول بعض أسماء الإشارة الواقعة في أساليـب الجمل القرآنيـة, ويكون البدء بما يلي:

1 ـ الجانب البنائي :

يشير الزمخشري إلى بعض المفارقات الأسلوبية في تركيب اسم الإشارة داخـل الجملة القرآنية, ويعلل ذلك سياقيا؛ فعلى سبيل المثال نجده يتساءل عن حقيقة اسم الإشارة الواقع في قوله تعالى: ﴿ هذا فراق بيني و بينك ﴾[3] بقوله: « فإن قلتَ: هذا إشارة إلى ماذا؟ »[4] فيجيب عن هذا التساؤل انطلاقا من الكلام الذي وقع في سياق الجمل السابقة فيقول: « قلتُ: قد تَصور فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام: ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصـاحبني ﴾ فأشـار إليه و جعله مبتدأ و أخبر عنه. كما تقول: هذا أخوك فلا يكـون هـذا

---

[1] ـ عباس حسن, النحو الوافي, المرجع السابق، ج 1, ص 86 .

[2] ـ ينظر، المرجع نفسه, ص 289 .

[3] ـ الكهف, آية 78 .

[4] ـ الكشاف, ج 2, ص 495 .

إشارة إلى غير الأمر »[1] ولا يكتفي الزمخشري بهذه الإجابة لفك الإشكالية الأسلوبية الواقعة في بناء هذه الجملة، إذ يَجوز حلاً آخر يُضمنهُ في قوله « يجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث: أي هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل هنا فراقُ بيني وبينك»[2].

كما يشير الزمخشري إلى مفارقة أسلوبية أخرى تكمن في عدم المطابقة بين اسم الإشارة وما تقدمه في الجملة من مشار إليه، ويبرز ذلك في قوله تعالى: **﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرءان جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾**[3]. ويفك الزمخشري هذه المفارقة الأسلوبية بتعليق اسم الإشارة بالمعنى دون اللفظ، ويوضح ذلك في قوله: « فإن قلت: ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه، والذي يقدم هو إنزاله جملة واحدة، فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرقا؟ قلت: لأن قولهم لولا أنزل عليه جملة معناه: لم أنزل مفرقا»[4].

بهذين المثالين نكون قد بينا دقة الملاحظات التي أبداها الزمخشري في تبرير بعض المفارقات في بنية عناصر الجمل المحتوية على بعض أسماء الإشارة لننتقل في الحديث إلى النوع الثاني من الملاحظات التي تمحورت حول الجانب الدلالي لأسماء الإشارة .

2 ـ الجانب الدلالي :

مما هو مسلم به أن اسم الإشارة داخل سياق الجملة يحمل معاني و دلالات مختلفة يتحكم في تحديدها السياق الذي تقع فيه. وقد حاول الزمخشري من خلال قراءته الواعية للجمل القرآنية أن يقف عند بعض هذه المعاني، والدلالات، والتي يمكننا إيجازها في ما يلي :

---

1 ـ الكشاف، ج 2، ص 495 .
2 ـ المصدر نفسه، ص 495 .
3 ـ الفرقان، آية 32 .
4 ـ الكشاف، ج 3، ص91 .

2.أ ـ دلالة التوكيد :

يلمح الزمخشري إلى هذا المعنى ـ في قوله تعالى: ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ [1] ـ بقوله « وفي اسم الإشارة الذي هو أولئك إيذان بأن ما يرد عقيبه, فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عددت لهم, كما قال حاتم, ولله صعلوك عدد خصالا فاضلة, ثم عقب تعديدها بقوله:

« فذلك إن يهلك فحسنى ثناؤه * و إن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما »[2] .

وإذا تحثنا عن تبرير حقيقة هذه الإشارة في قول الزمخشري هذا ـ مُسلمين بالقاعدة القائلة بأن اسم الإشارة من حقه أن يشار به إلى محسوس مشاهد, أو ما يضاهيه و يحل محله في التميز و الظهور ـ فإننا نجد مبررات ذلك في كون: «... الصفات المجراة على المتقين مميزة لهم جاعلة إياهم كأنهم حاضرون مشاهدون, وضع أولئك موضع المضمر إشارة إليهم من حيث أنهم موصوفون بما كأنه قيل: أولئك المتميزون بتلك الصفات, فصار الكلام من ترتيب الحكم على الأوصاف المناسبة ومفيدا للعِلّية, بخلاف المضمر فإنه راجع إلى الذات وليس فيه ملاحظة أوصافها, وإن كانت متصفة بما في نفسها , فلا ترتيب هناك على وصف مُناسب»[3] .

ومجمل القول في هذا هو أن الإشارة الواقعة في لفظة (أولئك) لم تكن مبنية على شيء مادي مشاهد محسوس, وإنما بنيت على ذكر صفات ومميزات لهذه الفئة من الناس. والتوكيد الواقع فيها هو: « توكيد استحقاق المبتدأ للخبر, وذلك إذا تقدمه تعديد صفات للمبتدأ, كل صفة منها ترشحه لاستحقاق هذا الخبر»[4] .

وإضافة إلى هذا التوكيد المعنوي , فهناك توكيد لفظي حملته لفظة (أولئك) المكررة مرتين في جملتين متسقتين بحرف نسق واحد و هو الواو .

---

[1] ـ البقرة , آية 5 .

[2] ـ الكشاف, ج 1, ص 141 , 142 .

[3] ـ حاشية الكشاف, ج 1, ص 141 .

[4] ـ حسين أبو موسى, البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري, المرجع السابق، ص 257 .

نعيد القول بالرغم من عدم وجود وسائل مادية تصاحب الأسماء الحاملة للإشارة في تعابير الجمل، فإن الزمخشري يستنطق هذه الإشارات داخل السياق ليعطينا معاني ودلالات نذكر منها ما يلي :

2. أ ـ دلالة التعظيم و التنويه :

يبرز لنا الزمخشري هذا المعنى في قوله تعالى: **« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة »**[1] فيقول : « وأشار إليها إشارة تعظيم و تقريب دالا على أنها مـوطن نبيه ومهبط وحيه »[2] . ويستعين الزمخشري في تجسيد الإشارة الحسية باستحضار السياق الخارجي الذي وقعت فيه هذه الإشارة فيقول: « والبلدة مكة حرسها الله تعالى اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها لأنها أحب بلاد إليه و أكرمها عليه، وأعظمها عنده ، و هكذا قال النبي صلى الله عليه و سلم حين خرج في مهاجره، فلما بلغ الحزوزة استقبلها بوجهه الكريم فقال: « إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت »[3] .

فإذا وافقنا الزمخشري في كون اسم الإشارة (هذه) يدل على القريب، والقـرب قد يكون حقيقة أو مجازا للاسب موقع المشير، ولكن كيف نقره على أنها أفـادت معنى (التعظيم)؟

قلنا في موضع سابق أن الأسماء المضافة تكسب معانيها من طبيعة المضـاف إليـه، والحقيقة الأسلوبية هنا تكمن في كون البلدة مضافة إلى عظيم و هو الله سـبحانه وتعالى و من ثم اكتسبت الإشارة معنى التعظيم و التقريب .

وإذا انتقلنا إلى مثال آخر وجدنا الأمر يعكس تماما في توظيف اسم الإشـارة، إذ توضع الإشارة الدالة على البعيد بدل القريب الواقع في الخطاب أثناء الإشـارة إليه. ونجد ذلك في قوله تعالى: **« فذلكن الذي لمتنني فيه »**[4] . حيث لم نجـد

---

1 ـ النمل , آية 91 .

2 ـ الكشاف, ج 3, ص 163 .

3 ـ المصدر نفسه, ص.163.

4 ـ يوسف, آية 32 .

الزمخشري مبررا ماديا أو حسيا لهذه الإشارة إلا اللجوء إلى المعنى البعيد في السياق العام للموقف, وذلك في موقعين, الأول بقوله: « ولم تقل فهذا و هو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن, واستحقاق أن يحب ويفتتن به موربا بذلك, واستبعادا لمحلـه »[1] والثاني في قوله: « ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقـولهن: عشـقت عبـدها الكنعاني, تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيـه, تعني أنكن لم تصورنه بحق صورته, ولـو صـورتنه بمـا عـاينتن لعـذرتنني في الافتتان به»[2]

إن موقع اسم الإشارة بهذا التعبير في هذه الجملة أثار جدلا أسلوبيا ـ كما هو بين عند الزمخشري ـ وعند غيره ممن تأثروا به, يقول أحدهم ـ بعد أن يستعرض رأي الزمخشري في هذه المسألة ـ «... وقيل: إن يوسف عليه السـلام كـان في وقت اللوم غير حاضر, و هو عند هذا الكلام حاضرا, فإن جعلتُ الإشارة إليـه باعتبار الزمان الأول كانت على أصلها, وإن لوحـظ الثـاني كـ ـان قريبـا, وكانت الإشارة بما ذكر لتنزيله لعلو منزلته منزلة البعيد, واحتمال أنه عليه السـلام أبعدهن وقت هذا الكلام لئلا يزددن دهشة وفتنة, ولذا أشير إليه بـذلك بعيـد. وجوز ابن عطية كون الإشارة إلى حُب سيدنا يوسف عليه السـلام, وضمير (فيه) عائد إليه, وجعل الإشارة على هذا إلى غائب على بابها و يبعده على ما فيه»[3] .

فنفهم من هذا أن دلالة اسم الإشارة (ذلك) في سياق الجملة القرآنية تراوح بين الحقيقة ـ في حالة البعد ـ و التي لا تحمل سمة أسلوبية, وبين تجاوز الحقيقـة ـ في حالة الحضور ـ والتي تحمل مفارقة أسلوبية جعلت المعنى يكـون في التعظـيم ورفع المنزلة للمشار إليه يوسف عليه السلام .

---

1 ـ الكشاف, ج 2, ص 318 .

2 ـ المصدر نفسه .

3 ـ الألوسي, روح المعاني, المرجع السابق، ج 4 , ج 12, ص 233 .

وإلى جانب هذه المعاني الرفيعة ـ التي يؤديها اسم الإشارة في التعبير الأسـلوبي في الجمل القرآنية ـ نجده قد يؤدي عكسها من معاني وضيعة نوجزها فيما يلي :

2. ج ـ دلالة التحقير و الإهانة :

قد يُحَمَل مساق الجملة اسم الإشارة المعنى الـذي يريـد المُخَاطـب إيصـاله إلى المُخَاطَب, وعندها يكون المعنى قريب المأخذ, ولعل هذا ما نجـده في قولـه تعالى: ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب** ﴾ [2] ، بقوله: « هذه فيهـا ازدراء وتصغير لأمرها »[3] . فكما هو بين ـ من خلال المعنى العام في تعبير الخطـاب القرآني ـ أن التحقير والتقليل من شأن الدنيا مصرح بهما عن طريق توظيف الاسم المشير اليهما إفرادا وتأنيثا و قربا .

إلا أننا قد نضطر إلى إحالة الفكر مع الزمخشري في محاولة الوقوف على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ **ماذا أراد الله بهذا مثلا** ﴾ [4] . للوصول إلى المعنى المـراد مـن وقوع اسم الإشارة (هذا) في أسلوب الجملة القرآنية، يعقد الزمخشري مماثلة بـين هذا النمط الأسلوبي القرآني، وبين نمط قولي آخر ورد على لسان عائشة رضي الله عنها فيقول: « وفي قولهم ماذا أراد الله بهذا مثلا, استرذال وإستحقار كما قالـت عائشة رضي الله عنها في عبد الله بن عمرو بن العاص: يا عجبـا لابـن عمـرو هذا»[5] .

يصعب على القاريء العادي أن يعثر على معنى التحقير والتقليل من شأن المشار إليه في الآية، وهو المثل المصرح به في سياق الجملة، ولكنه يتوصل إلى المعنى نفسه في قول عائشة رضي الله عنها، لأنه في سياقه تعجب من حالة المشار إليه، وهـو بالطبع تعجب استنكار, وليس تعجب استملاح واسترضاء ، ولكننا عندما نـدقق مع الزمخشري في الربط بين حقيقة الموقفين السياقيين ـ لكل من الـذين كفـروا

---

2 ـ العنكبوت, آية 64 .
3 ـ الكشاف, ج 3, ص 211 .
4 ـ البقرة, آية 26 .
5 ـ الكشاف, ج 1, ص 260 .

في استهجانهم لقيمة المثل المضروب بالباعوضة، وموقف السيدة عائشة رضـي الله عنها من السلوكات التي لم تعجبها في ابن عمرو بن العاص ـ يتبين لنا المعنى البعيد الذي أثاره اسم الإشارة (هذا) داخل السياق العام للخطاب القرآني .

نقف عند هذا الحد من الأمثلة التي يقع فيها الاسم مشارا به إلى غيره، وما يمكن أن يحمله من دلالات ومعاني ظاهرة وخفية، لننتقل بالكلام إلى الاسم عندما يكون موصولا .

ثانيا ـ الاسم في وضعية الموصول :

يعرف الاسم في هذه الحالة بأنه «... مبهم يحتاج دائما في تعـيين مدلولـه ـ أو إيضاح المراد منه ـ إلى أحد شيئين بعده، إما جملة وإمـا شـبهها ، ولا بـد في الجملة من ضمير يعود عليه، أو ما يغني عن الضمير»[1] .

إذن فالإبهام هو اصل في الأسماء الموصولة، بل هو سمة خصوصية لا تُرفع إلا بعد أن تركب داخل نظام الجملة. والذي يعول عليه « في ذلك كله هو الغرض مـن الموصول, فان كان الغرض منه أمرا معهودا للمخاطب جـاءت صـلته معهـودة مفصلة، وإن أريد به التعظيم, أو التهويل جاءت مبهمة بمثالة المفصلة »[2] .

والذي يمكن أن يثيره الاسم الموصول ـ إضافة إلى ما سـبق في هـذا الجانـب التركيب ـ هو استبدال أو توظيف أداة بدل أخرى لضرورات أسلوبية متعـددة . وهذا ما سنحاول التعرض إليه من خلال بعض الأساليب القرآنية التي أثار حولهـا الزمخشري تساؤلات, ثم حاول الإجابة عنها بمبررات أسلوبيـة تضاهيهـا مـبنى ومعنى .

ففي قوله تعالى: ﴿ **له ما في السماوات و الأرض كل له قانتون** ﴾[1] يقـول متسائلا«فإن قلت:كيف جاء بـ(ما) التي لغير أولي العلم مع قوله: (قانتون)؟ »[2]

---

[1] ـ عباس حسن, النحو الوافي, المرجع السابق، ج 1, ص 307 .

[2] ـ المرجع نفسه, ص 376 .

[1] ـ البقرة, آية 116 .

[2] ـ الكشاف, ج 1, ص 307 .

Ź يب عن طريق التمثيل بقوله « قلت هو كقوله سبحانه ما سخركن لنا»[1] .

Ź بعد ذلك يلتمس مبررا دلاليا لتواجد الاسم الموصـول (مـا) بـ ـدل (مـن) فيقـول:« وكأنه جاء بـ(ما) دون (من) تحقيرا لهم و تصغيرا لشأم»[2]. ولعل الزمخشري اعتمد في تبريره هذا على الدلالة الخاصة لكل من (ما) الدالة على غـير العاقل و هم عاقلون و(من) الخاصة بالعاقل ولم يخاطبوا با .

والأمر نفسه يعالجه الزمخشري في قوله تعالى: **اا و والد وما ولد ا** [3] . يقـول مستفسرا و مجيبا: « فإن قلتَ: هلا قيل ومن ولد؟ قلتُ: فله ما في قوله (والله أعلم بما وضعت؟) أي بأي شيء وضعت يعني موضوعا عجيب الشأن»[4]

إذن في هذين المثالين يشير الزمخشري إلى الافتراض الواقع بين الاسمين الموصولين (من وما) و د لذلك مبررات دلالية قصدها التعبير القرآني في توصيل الخطـاب إلى المتلقي, والتأثير فيه .

ويقترب الحدث الأسلوبي الواقع في قوله تعالى: **اا و السـماء و مـا بناهـا و الأرض و ما طحاها و نفس و ما سواها ا** [5] . من هذا النمط التعبيري, ويبرز ذلك في قراءة الزمخشري له في قوله: « والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على (من) لارادة معنى الوصفية كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها ونفـس والباهرالحكمة الذي سواها, وفي كلامهم سبحان ما سـخركن لنـا »[6] ففـي قولـه: « أوثرت على (من) يعني أن الاختيار قد وقع بين (ما) الدالة على الوصفية و(من) الدالة على الاسمية, وقد اختيرت الأولى على الثانية لمبررات منها مـا هـو معنوي مثل (الوصف) ومنها ما هو بنائي قياسي للاسب ما ورد في كلام العرب .

---

[1] ـ الكشاف, ج1, ص.307

[2] ـ المصدر نفسه .

[3] ـ البلد, آية 3 .

[4] ـ الكشاف, ج4, ص 255 .

[5] ـ الشمس, آية 5، 6، 7 .

[6] ـ الكشاف, ج 4, ص 258 .

وما يمكن أن نشير إليه ـ في نهاية هذا العنصر بخاصة والمبحث بعامة ـ هـو أن الزمخشري حاول جاهدا أن يجد مبررات أسلوبية لما بدا له مخالفا للأنماط التعبيريـة العادية, وذلك من خلال قياسه ببعض ما ورد في كلام الله تعالى وكلام العرب إلا أنه لم يحاول الوقوف على مواطن التفرد التي يتوفر عليهـا الخطـاب القـرآني في أساليب تعبيرية متعددة .

بهذه الملاحظات نكون قد أتينا على نهاية المحور الثاني من الفصل الأول لنتحـول إلى معالجة المحور الثالث والأخير من هذا الفصل و المتمثل فيما يلي :

المبحث الثالث: مستوى الأفعال :

لقد سبق القول بأن علماء اللغة العربية قد رتبوا الفعـل في الدرجـة الثانيـة في الكلام المفيد بعد الإسم, وجعلوا منه ثلاثة أقسام, ولكـل قسـم علامـات؛ فالماضي عندهم ما دل على معنى في نفسه و اقترن بالزمن الماضي, وقبل أن تتصل به تاء التأنيث الساكنة. وأما المضارع فهو الذي دل على زمان في نفسـه أيضـا, ولكن شريطة أن يقترن بزمن يحتمل الحال والاستقبال, ومن علاماتـه أن يقبـل دخول السين وسوف, أو لم أو لن, وأما القسم الثالث فيتمثل في الأمر الذي يبنى على طلب وقوع الفعل من طرف الفاعل الذي يوجه إليه الخطاب دون دخول لام الأمر عليه, ومن علاماته أن يؤدي معنى الطلب بالصيغة التي يكون عليها مع قبول دخول نون التوكيد وياء المخاطبة[1] .

وتعد هذه التفريعات و التقسيمات نتيجة حتمية لما يتميز به الفعل في العمليـة التواصلية, فهو «... النواة الدافعة للحركة المتجـددة المتوخـاة مـن الأدوات أو الأحداث المحققة في الواقع اللغوي »[2] .

وإذا أردنا أن نبحث عن القيمة الحقيقية للفعل « فإننا نجدها تنبعث من كونه

[1] ـ ينظر، ابن عقيل, الشرح, المرجع السابق، ص24,27,ومصطفى غلاييني,جامع الدروس العربية, المرجع السابق، ص 34 .
[2] ـ أحمد حساني, المكون الدلالي للاسم, ديوان المطبوعات الجامعية, 1993م, د ط, ص 33 .

كلمة يدخل فيها عنصر الزمن والحدث»[1] , إن هذه الثنائية مركبة في الفعل تركيبا مزجيا ارتبطت بذهن كل فرد من أفراد الجمع اللغوي لكل أمة من الأمم, فالزمن الماضي مثلا لا يدل إلا على حدث تم وقوعه وإنتهى أمره, أما المضارع فإن زمنه يجري في ساعة الإشارة إلى وقوع الحدث. وأما الأمر فيأتي ليعلن بوجوب وقوع الحدث في الزمن المحدد أثناء إصدار الأوامر بذلك .

تلك هي علاقة الزمن بالحدث في الأطوار الثلاثة: الماضي والمضارع والأمر, وذلك هو التعبير المعياري الذي تواضع عليه أهل اللغة الواحدة أثناء عملية تواصلهم فيما بينهم, وفي حالة ما إذا حدثت مغايرة أسلوبية كالجمع بين زمنين مختلفين في جملة واحدة, أو توظيف زمن دون آخر, أو إحلاله بدل غيره, فان ذلك يستلزم إيجاد تفسيرات ومبررات أسلوبية لهذه الظواهر الحاوية الكثير من المفارقات, والمغايرات اللفظية والمعنوية.

إن هذه الأنماط الأسلوبية هي التي عالجها الزمخشري في مواقع متفرقة من الخطاب القرآني, وسنحاول جمعها وفقا للمباحث الآتية :

أولا: المفارقة الأسلوبية للأفعال :

ونقصد با تلك التساؤلات التي يبديها الزمخشري حول كثير من مظاهر الفعل اللافتة للانتباه داخل نظام الجمل القرآنية, ولعل من بين هذه المظاهر بروزا المفارقة الزمنية بين الأفعال في الجملة الواحدة, وهو اجتماع زمنين مختلفين في وصف حدثين متحدين زمنيا, ويمكننا أن نجمل هذه المفارقات بين الأفعال على النحو الآتي: المفارقة بين الماضي والمضارع, وبين المضارع والماضي وبين المضارع والأمر.

1 ـ المفارقة بين الماضي و المضارع :

يقف الزمخشري متسائلا عن المفارقة الواقعة بين فعلي (الاستكانة والتضرع) في قوله تعالى: **﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم**

[1] ـ أحمد درويش ,دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث,دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع, القاهرة,د ط, د ت, ص 151

وما يتضرعون [1] فيقول: « فان قلت: هلا قيل: وما تضرعوا أو فما يستكينون؟ قلت لان محناهم فما وجدنا منهم عقيب المحنة استكانة, وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد »[2] . فلما وجد الزمخشري اجتماع زمنين: ماضيا ومضارعا في سياق واحد للتعبير عن زمن وقوع حادثي الاستكانة و التضرع, لجأ إلى تبرير هذه المفارقة الاسلوبية عن طريق المعنى الذي يمكن أن يكون من كلام محذوف على حد قوله (محناهم فما وجدت فيهم عقيب المحنة) حتى يمهد لطبيعة ورود الاستكانة في صيغة الماضي (استكانوا), ثم يلجا إلى البحث عن تعبير أسلوبي محذوف في قوله: (أو ما من عادة هؤلاء) حتى يعلل وضعية ورود التضرع في صيغة المضارع (فيتضرعوا), ففي هذا السياق - كما هو بين - ورد الفعل الأول ماضيا والثاني مضارعا, وكان من الطبيعي في التعبير العادي أن يتحد الفعلان في زمن وقوعهما, ولهذا وجدنا الزمخشري حاول جاهدا أن يجد مخرجا لهذه المفارقة عن طريق المعنى العام للسياق .

والمفارقة نفسها يتعرض لها في قوله تعالى: « **وودوا لو تكفرون** »[3] فيقول: مبررا اختلاف زمن الفعلين الماضي (ودوا), والمضارع (تكفرون) بقوله: « فان قلت: كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله, ثم قال (و ودوا) بلفظ الماضي؟ قلت: الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فان فيه نكتة كأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم و ارتدادكم»[4] .

كما يستند تبرير الزمخشري هذا على جانبين: جانب معياري و جانب معنوي تقديري؛ فالأول يتعلق بوضعية الفعل الماضي الإعرابية عند وقوعه في جملة الشرط حيث يجري عليه ما يجري على الفعل المضارع من إعراب, وأما التبرير الثاني فينطلق من المعنى العام للجملة للايث يفترض كلاما محذوفا يمكن تقديره

[1] - المؤمنون, آية 76 .
[2] - الكشاف, ج 3, ص 39 .
[3] - الممتحنة, آية 2 .
[4] - الكشاف, ج 4, ص 90 .

ب ـ (وودوا قبل كل شيء كفركم و ارتدادكم) حتى يستقيم التناسق الزمني للفعلين في وصف الحدثين الوَدُ و الكُفرُ .

وإذا كان تبرير المفارقة في هذه الأمثلة اعتمد فيه الزمخشري على المعنى في السياق العام أكثر من اعتماده على خصيصات الأسلوب القرآني, فإننا نجده في قوله تعالى: ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** ﴾ [1] . يلجا إلى استعمال مميزات ظاهرة الإخبـار في القرآن الكريم التي تستعمل الفعل الماضي للدلالة على المستقبل, فالفتح الذي أخبره به النبي صلى الله عليه و سلم لم يقع أثناء عملية الإخبار, ولكنـه جاء بلفظ الماضي (فتحنا), وفي هذا يقول الزمخشري: « وجيء به على لفظ الماضي على عادة العزة سبحانه في أخباره لا لأنها في تحققها و تيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة, وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لم يخف »[3] .

والزمخشري بقوله (على عادة العزة) دليل على أنه عاين تواجد الأفعال الماضية في وصف الأحداث المستقبلية في الخطاب القرآني في كونها ظاهرة أسلوبية تميز النص القرآني على غيره من النصوص في الخطابات البشرية .

والحكم نفسه ينطبق على المفارقة الزمنية في الإخبار بالفعل الماضي عن حدث لم يقع بعد في قوله تعالى: ﴿ **و يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات و من في الأرض** ﴾ [4] فيعلق الزمخشري على هذا الفارق الزمني بين وقوع الفعل والحدث بقوله: « فان قلتَ: لِمَ قيل (ففزع) دون فيفزع؟ قلتُ: لنكتة وهي إشعار بتحقيق الفزع وثبوته, وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السماوات والأرض, لأن الفعـل الماضي يدل على وجود الفعل و كونه مقطوعا به ... »[5] .

---

1 ـ الفتح, آية 01 .
2 ـ الكشاف, ج3, ص 540 , 541 .
3 ـ المصدر نفسه .
4 ـ النمل, آية 87 .
5 ـ الكشاف, ج3, ص.161

ويستمر الزمخشري في البحث عن المفارقات الزمنية بين الأفعال الواقعة في الجمل القرآنية, وذلك للسبب ترتيبها في هذه الجمل. وقد مرت معنا أمثلة يزاحم فيهـا الفعل الماضي الفعل المضارع, ونورد الآن أمثلة مغايرة يكون فيها الفعل المضـارع مزاحما للفعل الماضي, وذلك من خلال المبحث الآتي :

2 ـ المفارقة بين المضارع و الماضي :

يبذل الزمخشري جهدا كبيرا في محاولة تعليل المفارقة الأسلوبية التي تحدث مـن مزاحمة الفعل المضارع للماضي داخل سياق الجمل القرآنية؛ فـفـي قوله تعالى: **﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم و فريقـا تقتلون ﴾**(1) فيقف متسائلا عن المعادل الزمني لفعلي التكذيب والقتل, فيقـول: « فان قلت: هلا قيل: وفريقا قتلتم؟ قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فضيع, فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب, وأن يراد فريقا تقتلونهم بعد, لأنكم تحومون حول قتل محمد صلى الله عليه و سلم ... »(2) . إن هذا التبرير يحتوي على شقين, شق يجعل من الفعل المضارع مزاحما للماضي في أداء ويفيتـه الزمنية في تصوير حوادث القتل الماضية وكأنها مرئية تحدث في الزمن الحالي, وذلك لغرض نفسي كما قال الزمخشري, وأما الشق الثـاني فيعطـي لحـوادث القتـل استمرارية وقوعها دون توقف .

والمفارقة نفسها يشير إليها الزمخشري في قوله تعالى: **﴿ أولم يـروا إلى الطـير فوقهم صافات و يقبضن ﴾**(3) . فيقول: « فان قلت: لم قيل: ويقبضن ولم يقـل قابضات»(4) ثم يبحث عن مبررات لهذه المفارقة بين فعلي (صافات) و(يقبضـن) ويجدها في دلالة الفعل على طبيعة الحركة فيقول: « قلت: لأن الأصل في الطـيران هو صف الأجنحة, لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء, والأصل في السـباحة

---

1 ـ البقرة, آية 87 .
2 ـ الكشاف, ج 1, ص 295 .
3 ـ الملك, آية 19.
4 ـ الكشاف, ج 4, ص 138 .

مد الأطراف وبسطها, وأما القبض فطاريء على البسط للاستظهار به على التحرك, فجيء بما هو طار على غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنه من صفات, ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح ... »[1] .

و تشتد مزاحمة الفعل المضارع للماضي أكثر عندما يقع بين فعلين ماضيين مثل قوله تعالى : **والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور** [2] . و تثير هذه المفارقة اهتمام الزمخشري فيقف متسائلا بقوله : « فان قلت : لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعة للدلالة على القدرة الربانية. و هكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز و خصوصية لحال تستغرب, أو تهم المخاطب, أو غير ذلك, كما قال تأبط شرا :

بأني قد لقيت الغول تهوي * بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت * صريعا لليدين و للجران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها و يطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجيب من جرأته على هون و ثباته عند كل شدة , و كذلك سوق السحاب إلى البلد الميت و إحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة »[3] .

من خلال هذه المماثلة بين التعبيرين القرآني و الشعري – في توظيف أفعال المضارعة المزاحمة للأفعال الماضية الواردة في سياق الجمل – يريد الزمخشري أن يلتمس مبررا معنويا, مستغلا في ذلك وظيفة هذه الأفعال المضارعة في تقريب الأحداث و تصويرها للعيان, وكأنها تجري مباشرة أمام المخاطبين, ويرتكز الزمخشري على هذه الخاصية الوظيفية للفعل المضارع ليعلل سبب اختيار التعبير

---

[1] ـ الكشاف، ج4، ص 138 .

[2] ـ فاطر ، آية 9 .

[3] ـ الكشاف ، ج 3 ، ص 301. 302 .

القرآني لكثير من صيغ المضارعة في مثل (يسبحن ـ يطـيعكم ـ فتصـبح) ,
فالأولى في قوله تعالى: ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي و الإشراق ﴾ [1] ,
والثانية في قوله عز وجل: ﴿ و اعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ [2], والثالثة في قوله جل ذكره: ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ﴾ [3] .

فيرجع الزمخشري سبب اختيار التعبير القرآني لصيغة المضارعة (يسبحن) في سياقها على صيغة الفعل الماضية (مسبحات) إلى الجانب الدلالي الراجع إلى توالي حدوث التسبيح دون انقطاع, وذلك لجعل المخاطب يعيش حدث التسبيح مـن خـلال الاستمرارية الدلالية للفعل المضارع, ولعل هذا ما يريده في قوله: « فإن قلت: هل من فارق بين يسبحن ومسبحات؟ قلت: نعم وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك, وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحـالا بعـد حال, وكأن السامع حاضر تلك الحال يسمعها تسبح. ومثله قول الأعشـى: إلى ضوء نار في بقاع تحرق, ولو قال محرقة لم يكن شيئا »[4] , فقوله: «لم يكن شيئا» يشير به الزمخشري إلى الجانب ألتأثيري الذي تتركه صيغة المضارعة في نفسية المتلقي بدل صيغة الماضي المنتهية وظيفته الدلالية بعد التأكد من وقوع الفعل وانتهائه زمنيا وفعليا, ولعل هذا ما كرره الزمخشري مع صيغة المضارع الثالثة في (فتصبح), حيث فاضل بين الأخبار بوقوع الفعل و انتهائه, وبين استمرارية وقوعه, وجعل الثالثـة ملائمة للسياق الواردة فيه, وهو الإخبار بنزول المطر على فترات متعاقبة ويقـول: « فإن قلت: هلا قيل: فأصبحت, ولم صرف إلى لفظ المضارع؟ قلت: لنكتة فيه, وهي إفادة بقاء أكثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول: أنعم علي فلان عام كـذا وكذا. فأروح و أغدو شاكرا له. ولو قلت: فرحت وغـدوت لم يقـع ذلـك

[1] ـ ص, آية 18 .
[2] ـ الحجرات, آية 07 .
[3] ـ الحج, آية 63 .
[4] ـ الكشاف, ج 3, ص 364 .

الموقع»[1] ,فقوله (لنكتة فيه) يعني ملاءمة الفعل للحدث الذي يريد التعبير القرآني إيصاله إلى المخاطب, كما يوحي بجمالية التعبير في مثل هذا السياق بلفظ المضارعة بدل لفظ الماضي, الذي يتوقف مع إنتهاء الحدث الذي يجب أن يستمر في الواقع, لأن نزول المطر وإخضرار الأرض حدثان مستمران دون توقف تام بـالرغم مـن إنقطاعهما لفترات متباينة واقعيا ومستمرة ذهنيا في عقول المتلقين للخطاب

ولا يخرج الزمخشري عن هذا التعليل الدلالي مع صيغـــة المضـارعة الثانيـة (يطيعكم) إلا في تغيير العبارة في قوله: « فـإن قلـت: لم قيـل: يطـيعكم دون أطاعكم؟ « قلت: للدلالة على أنه في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصـوبونه, وأنه كلما عن لهم رأي في أمر كان معمولا عليه بدليل قوله ـ في كثير من الأمـر ـ كقولك فلان يقرىء الضيف, ويحمي الحريم: أنه ممـا اعتـاده ووجـد منـه مستمر»[2]

نفهم من هذه الأمثلة التي سقناها للأفعال المضارعة ـ التي زاحمـت الأفعـال الماضية وأخذت منها وصف الأحداث ـ أنها أحدثت مفارقات أسلوبية في التعبير بالزمنين المختلفين, وأن الزمخشري حاول أن يلتمس لها مبررات معنوية خارجة عن أساليب التراكيب المعيارية التي تكون في الجمل النمطية, ولكن الذي لم يوضـحه الزمخشري صراحة ـ وإن أشار إليه ضمنيا ـ هو التنوع الـدلالي النـاجم عـن المفارقة الأسلوبية الناجمة عن تنوع الأزمنة الواقعة في الأسلوب الواحد في الجمـل القرآنية والتي تعد ميزة من مميزات الأسلوب في التعبير القرآني .

وإذا كانت بعض هذه الأمثلة كافية للتدليل على المفارقـة بيـن معاني المضارع والماضي زمنيا في الجملة الواحدة, فإننا نتطرق الآن إلى المفارقة إلى الفعل في زمـن المضارعة والأمر بالفعل في نفس الزمن .

---

1 ـ الكشاف, ج 3, ص20 .

2 ـ المصدر نفسه, ص 561 , 562 .

3 ـ المفارقة بين المضارع و الأمر :

نكتفي بذكر مثال واحد نبه إليه الزمخشري في قوله تعالى: **﴿ قال إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون ﴾**[1].

فيبحث الزمخشري عن معادل زمني ليستقيم التعبير في درجته النمطيـة السـياقية فيتساءل, ويجيب بقوله: « فإن قلت: هلا قيل إني أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأن معنى إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده, وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم و دليل على قلة المبالاة بـهم فحسب, فعدل به عن لفظ الأول لإختلاف ما بينهما, وجيء بـه علـى الأمـر بالشهادة»[2] .

ويبرر الزمخشري ورود فعلي المضارعة (أشهد) والأمر (أشـهدوا) إنطلاقـا مـن الإختلاف الواقع بين الشهادتين, حيث تكتسب الأولى مصداقية الشاهد و الثانيـة تفتقر إلى هذه المصداقية, ويعد هذه المفارقة عدولا من فعل لآخر.

وإذا وافقنا الزمخشري على أن هذا المبرر الأسلوبي هو الذي كان سببا في الجمع بين الفعلين المختلفين, فإننا لا نتفق معه في إعتبار هذه المفارقة عدولا مـن فعـل لآخر, لأن التعبير على حد قوله ـ يعد طبيعيا, مادام كافيا للتفريق بـين نـوعي الفعل: المضارعة والأمر به, ولكن الذي نميل إليه في تبرير هذا العـدول اللفظـي للفعلين ـ بالرغم من إجتماعهما في زمن واحد ـ هو اعتبار المعنى واحدا علـى إختلاف صيغتي الفعلين (مضارع وأمر). وأن هذا التلوين والتنويع في الأفعـال ـ كما سبق القول ـ سمة تميز أساليب التعبير القرآني, ويؤيدنا في هذا قول الطبرسي موضحا المعنى: «... أي و أشهدكم أيضا بعد إشهاد الله »[3] .

---

[1] ـ هود, آية 54 .

[2] ـ الكشاف, ج 2, ص 276 .

[3] ـ الطبرسي, مجمع البيان, المرجع السابق, م 3, ج 11, ص 12 .

ويستمر الزمخشري في البحث عن الفروق الدلالية لصيغ الأفعال الواردة في التعبير القرآني, وذلك من خلال المفاضلة بينها في تأدية المعنى, ولعل هذا ما سنتتبعه من خلال العنصر الموالي :

ثانيا: المفاضلة الأسلوبية بين صيغ الأفعال :

يتوغل الزمخشري في البحث عن الفوارق الدقيقة في الدلالات التي قد تؤديها صيغة صرفية دون أخرى, فنجده يفاضل بين صيغتي (التنزيل والإنزال) ـ إنطلاقا من قوله تعالى: ﴿ **وإن كنتم** في **ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾[1] ـ بقوله: « فإن قلتَ: لم قيل (مما نزلنا) على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلتُ: المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم »[2] . نفهم من قوله هذا أن التعبير القرآني إختار صيغة التنزيل على صيغة الإنزال لتتناسب مع الطريقة التي نزل بها القرآن الكريم منجما؛ أي: أن هذه الصيغة (نزلنا) دلت على التراخي في عملية النزول, ولوجيء بـ (أنزلنا) لدلت على نزوله دفعة واحدة, و هذا التفريق بين الصيغتين ينفرد به الزمخشري خلاف أهل اللغة, فقد جاء في اللسان أن لا فرق بين هاتين الصيغتين إلا في دلالة الكثرة في صيغة التنزيل فيقول ابن منظور: «... ونزله وأنزله ونزله بمعنى. قال أبو الحسن لا فرق عندي بين نزلتُ وأنزلت إلا صيغة التكثير في نزلت »[3] .

وإذا كانت صيغة (نزلت) تدل على التكثير لكونها مضعفة الحرف (الزاي) في صيغتها المجردة خارج إطار السياق, فإنها لا تدل على هذا المعنى في الجملة القرآنية, لأن الكثرة هنا لا موقع لها في السياق. ويبقى المعنى الذي التمسه الزمخشري أقرب مخرجا لدلالتها الدقيقة في إفادة المعنى.

---

[1] ـ البقرة, آية 23 .

[2] ـ الكشاف, ج 1, ص 238 .

[3] ـ ابن منظور, اللسان, مادة (نزل), ص 656 .

ويقر الزمخشري المعنى نفسه في موقع آخر لهذه الصيغة (التنزيل) في قوله تعـالى: **﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه و أنزل التوراة و الإنجيـل ﴾** [(1)]
إن إجتماع هاتين الصيغتين (نزل وأنزل) في سياق واحد, وفي وصـف لحـدثين متحدين في مصدر الفعل ومختلفين في كيفيته, ويعزز رأيه في إختلاف الصـيغتين داخل السياق فيقول: « فإن قلتَ: لم قيل: نزل الكتاب وأنزل التوراة والإنجيـل؟ قلتُ: لأن القرآن نزّل منجما ونزل الكتاب جملة»[(2)] .

وتتوالى جهود الزمخشري في المفاضلة بين الصيغ المختلفة للفعل الواحد, كلما عثر على ما يوحي بالإختلاف الجزئي في دلالة الصيغة الصرفية داخل سياق الجملـة, فنجده يفاضل بين صيغتي (أمطر ومطر) في قوله تعالى: **﴿ وامطرنا عليهم مطـرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾** [(3)]. فيقول متسائلا و مجيبا في نفس الوقـت: « فإن قلتَ: أي فرق بين مطر وأمطر؟ قلتُ: يقال مطرتهم السماء وواد ممطور... ومعنى مطرتهم أصابتهم المطر... ويقال: أمطرتُ عليهم بمعنى أرسلت عليهم إرسال المطر... »[(4)] . ولم يعط الزمخشري ـ في قوله هذا ـ فرقا دلاليا واضـحا بـين الصيغتين (مطر وأمطر), ولعله لم يفعل ذلك لأن الصيغتين يمكن اسـتخدامهما في وصف نزول المطر, فيقال: « ومطرتهم السماء تمطرهم مطرا وأمطرتهم: أصـابتهم بالمطر . وهو أقبحهما »[(5)] . إذن فصيغة (أمطر) تحتمل معنيين؛ إما أن يكون نزول المطر نزولا عاديا, أو نزولا فيه بأس, وهذا الأخير أكثر شيوعا في التعابير القرآنيـة كما أورد بعضها صاحب اللسان في قوله: « و امطـرهم الله مطـرا أو عـذابا. ابن سيده: أمطرهم الله في العذاب خاصة كقوله تعالى: **﴿ و أمطرنا عليهم مطرا**

---

1 ـ آل عمران, آية 03 .
2 ـ الكشاف, ج 1, ص 411 .
3 ـ الأعراف, آية 84 .
4 ـ الكشاف, ج 2, ص 93 .
5 ـ ابن منظور, اللسان, مادة (مطر) , ص 178 .

فساء مطر المنذرين » و قولـه عـز وجل: « **وأمطرنا عليها حجارة من سجيل** » جعل الحجارة كالمطر لنزولها من السماء »[1]

وعليه يمكن القول: إن الزمخشري حاول الوقوف على الإختلاف الدلالي لهـاتين الصيغتين بشكل عام, دون أن يخضعهما للسياق الذي يحدد المعاني الجزئيـة الـتي تؤديها كل صيغة صرفية داخل الإطار الخاص للجملة الواحدة .

تلك هي بعض الأمثلة حول الجهد الذي بذله الزمخشري, في الوقـوف علـى مميزات الصيغ الصرفية للأفعال في دلالتها داخل سياق الجمل القرآنية, وكان ذلك عن طريق المفاضلة بين صيغة وأخرى .

ونبقى مع الزمخشري في تتبع الأفعال , و لكن هذه المرة في المفاضلة بين تراكيبها

ثالثا: المفاضلة الأسلوبية بين تراكيب الأفعال :

ونريد بتركيب الفعل: وضعيته في حال التعدية بالحروف أو بـدون تعـديـة. وسنبدأ بالوضعية الثانية من خلال المحور الموالي :

1 ـ الفعل غير المعدى :

تعد هذه الوضعية للفعل غير المعدى ـ سواء للظرف أو بمفعول بـه ـ معيـارا تقاس على منواله الحالات التي يقع فيها الفعل المعدى بأدوات التعديـة المختلفـة, وعليه فإننا نكتفي بمثال واحد يرى فيه الزمخشري رمزا لكل الأفعال غـير المعـداة في التعبير القرآني, والمتمثل في قوله تعالى: « **لنبين لكم** »[2] يقول الـزمخشري: « وورود الفعل غير معدى الى المبين, إعلام بأن أفعاله هـذه يَتَبَـين بـها مـن قـدرتـه وعلمه ما يكتنفه الذكر ولا يحيط به الوصف »[3] .

إن هذه القراءة التي قدمها الزمخشري لهذا الفعل (المبين) ـ غير المعـدى بمفعـول يحدد وظيفته, ويعين غاية الحدث الذي تصفه ـ تعد متميزة في معالجـة ظـاهرة

1 ـ ابن منظور, المرجع السابق، القول لابن سيده.
2 ـ الحج, آية 05 .
3 ـ الكشاف, ج 3, ص 5 .

الأفعال اللازمة في الخطاب القرآني, حيث يصف الإبام الذي تؤديه ـ في عـدم التصريح بالمعدى إليه ـ بأنه ينبئ على القدرة على فعل الأشياء, والعلم الواسـع الذي لا يحيط به محيط ولا يقدر على وصفه أحد .

وإن كنا قد أوردنا هذا المثال حول عدم تعدية الفعل بمفعول على سبيل التقعيد لا الخروج عن المألوف في تعدية الأفعال, سواء بمفعول أم بحرف مـن حـروف المعاني, فإننا نحاول في المبحث الموالي الوقوف على الحالات ذات التميز الأسـلوبي المخالف لما هو مألوف في الحالات العادية من التعبير الدارج وفقا للمعايير الصرفية المتعارف عليها في اللسان القولي المنطوق والمكتوب, وهذا ما سنعالجه تحت غطاء العنوان الموالي :

2 ـ الفعل المعدى :

نعيد القول: لا نريد تحت هذا العنوان الوقوف عند الأفعال المتعديـة بمختلـف أنواعها وأشكالها, ولكن الذي نريده هو الوقوف عند الظاهرة الأسـلوبية الـتي رصدها الزمخشري والمتعلقة بتناوب حروف التعدية بين الأفعال, أي الخروج عـن المألوف في عملية إرتباط الأفعال إرتباطا أسلوبيا معياريا ببعض حروف المعاني التي تتعدى بها هذه الأفعال, وهذه العملية هي التي تتبعها الزمخشري وحاول تعليلـها في بعض الجمل القرآنية التي إحتوت على بعض الأفعال المتعدية وهذا ما سنحاول التطرق إليه بنوع من التفصيل.

ففي قوله تعالى: **﴿ فمن عفي له من أخيه شيء ﴾**[1] يقول الزمخشري متسائلا عن تعدية فعل (عفا) بحرف اللام في (له) مبررا ذلك بقوله « فإن قلت: إن (عفا) يتعدى بعن لا باللام, فما وجه قوله عفى له؟ قلت: يتعدى بـ(عن) إلى الجـاني وإلى الذنب؛ فيقال : عفوت عن فلان و عن ذنبه . قال الله تعالى ـ عفا الله عنك ـ و قال: عفا الله عنها ـ فإذا تعدى إلى الذنب و الجاني معا, قيل: عفوت لفلان عما جنى, كما تقول: غفرت لذنبه وتجاوزت له عنه, وعلى هذا ما في الآية كأنه

---

[1] ـ البقرة, آية 178 .

قيل: فمن عفي له عن جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية»[1] , ويرجع الزمخشري هذا التناوب الذي حدث بين حرفي التعدية (اللام) الذي حل محل (عن) ـ التي ألـف التعبير المعياري إرتباطها بالفعل (عفا) ـ إلى الحذف في التعبير الأسلوبي للجملـة القرآنية, والتي مفادها كما قال (فمن عفي له عن جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية). فقد يكون هذا التبرير مقنعا إلى حد كبير, إلا أنه يفتقد إلى التفرقـة بـين دلالـة التناوب في التعدية بعن وباللام في كل من التعبيرين الآنفي الذكر .

إن هذه التفرقة في دلالة التناوب للحرف مرة, وبغيره مرة أخرى علـى نفـس الفعل, يقرها الزمخشري في قوله تعالى: **﴿ و من يسلم وجهه إلى الله و هو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾**[2] ,حيث يثير تساؤلا عن سبب هذا التناوب بين الحرفين مع نفس الفعل وذلك بقوله: « فإن قلت: ما له ما له عُدي بـإلى, وقـد عُدي باللام في قوله ـ بلى من أسلم وجهه لله؟ قلت: معناه مع اللام أنه جعـل وجهه, وهو ذاته ونفسه سالما لله, أي خالصه له, ومعناه مع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه, والمراد التوكل عليه والتفويض إليه»[3] . إذن فالتناوب بالتعدية بـ (إلى) مرة وبـ (اللام) أخرى تعطي فارقا دلاليا جزئيـا كما قال الزمخشري, فالأول يتمثل في (الوجه) بما تحمله هذه الكلمة من دلالـ ـة, والثاني يتعلق بـ (النفس) في جملتها و عموميتها .

ونبقى مع تناوب تعدية الفعل لحرفين مختلفين, وفي وضعيتين متغايرتين وذلك من خلال قوله تعالى: **﴿ قل آمنا بالله و ما أنزل علينا و ما أنزل على إبراهيم ﴾**[4]. ولم يجد الزمخشري ـ وهو يقف أمام وضعية لتناوب التعدية في فعل الإنزال ـ بدا من الإقرار بطريقة التنوع في عملية التعدية بفعلين مختلفي الدلالة؛ أحدهما للاستعلاء والآخر للانتهاء بقول: « فإن قلت: لم عُدي أنزل في هذه الآية لحرف الاسـتعلاء

---

1 ـ الكشاف, ج 1, ص 332 .

2 ـ لقمان, آية 22 .

3 ـ الكشاف, ج 3, ص 235 .

4 ـ آل عمران, آية 84 .

وفيما تقدم من مثلها للطرف الإنتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعا لأن الوحي ينزل من فوق و ينتهي إلى الرسل, فجاء تارة بأحدى المعنيين وأخرى بالآخر»[1] .

وتدخل جل هذه الأمثلة التي سقناها ضمن محور المفارقات الأسلوبية في أنماطها الثلاثة بين؛ الفعل والفعل, و بين الصيغة و الأخرى, و بين التركيب و الأخر

وننقل حديثنا الآن إلى المحور الثاني المتعلق ببعض الإنزياحات الأخرى التي تقع للفعل دائما في إطار أساليب التعبير القرآني, و يكون عنوانه على النحو التالي :

رابعا: الإنزياحات الأسلوبية للأفعال :

ويراد بها تلك الأنماط التعبيرية التي تتميز بظاهرة الخروج عن المألوف في صيغ الأفعال وأوزانها, ومن ظاهرها إلى خفيها, وذلك من خلال رؤية الزمخشري لها من جوانب أسلوبية مختلفة.

ولعل أبرز ما يمكن جمعه في محاور رئيسية من خلال النماذج التي وقفنا عليها هو الإنزياح بنوعيه: الأول يكون في صيغ وأوزان الفعل الظاهرة في أسلوب التعبير, والثاني يكون من ظاهر الفعل إلى خفيه, ولعل هذا ما سنحاول التعرف عليه من خلال المحورين الآتيين :

1 ـ الإنزياح الظاهر في الصيغ و الأفعال:

ويندرج تحت هذا المحور خروج صيغ الأفعال من أوزان إلى أخرى, يحددها الزمخشري في مجموعة من الأنماط التعبيرية في أساليب الجمل القرآنية, ويمكن أن نشرع في تناول هذه الأنماط الإنزياحية بدءا مما يلي :

1. أ ـ الانزياح من صيغة (فعل) إلى (فاعل) :

يدرج الزمخشري في هذا السياق قوله تعالى: **﴿ يخادعون الله و الذين آمنوا و ما يخدعون إلا أنفسهم و ما يشعرون ﴾**[2] , فيقول مبينا هذا الانزياح فيما نصه: « فإن قلت: هل للاختصار بخادعت على واحد وجه صحيح؟ قلت: وجهه

1 ـ الكشاف, ج 1, ص 441 .

2 ـ البقرة, آية 09 .

أن يقال: عنى به فعلت, إلا أنه أخرج به في رنة فاعلـ ـتُ, لأن الزنـ ـة في أصـ ـلها للمغالبة و المباراة, والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلƞ و أحكم منه إذا زاولـ ـه وحده من غير مغالب ولا مبار لزيادة قوة الداعي إليه»[1] . ويبرر الزمخشري هذا الانزياح من صيغة (فعلت) إلى (فاعلت) بأن هذه الأخيرة تحمل دلالات أقوى من التي أزاحتها وحلت محلها, وهذه الدلالة هي قوة المغالبة الكامنة في صيغة (فاعلت) التي جاءت على منوالها (خادعت), لأن التعبير العادي في الجملة المألوفـ ـة يكـ ـون بالقول: « يخدعون الله و الذين ءامنوا و ما يخدعون إلا أنفسهم » .

1. ā ـ الانزياحية مـ ـة ةنة الفعل بـ ةنة المفعول :

يبرز الزمخشري هذا الإنزياح في صيغة الفعل (سؤل) في قوله تعالى: اا **قال قـ ـد أوتيƘ ŎلŰè يا موƼè** ا[2] بقوله: « السؤول: الطلبة, فعل بمعـ ـنى مفعـ ـول, كقولك خبر بمعنى مخبور وأكل بمعنى مأكول»[3] . والانزياح نفسه يظهره في قوله تعالى: اا **وقالوا ƇǾŁ أنعاȳ و حرƍ حƊǳر لا يƯعمȔ إلا مـ ƞ ـƢ Îاء بزƴƴ مƎ** ا[4] . ويقول معقبا على لفظة (حجر): «... فغل بمعنى مفعـ ـول كالـ ـذبح والطحـ ـن, ويستوي في الوصف الذكر والمؤنث والواحد والجمع, لان حكمه حكم الأسمـ ـاء غير الصفات»[5] , ويشير الزمخشري بقوله في هذين المثالين إلى جواز التناوب بين صيƞ الأفعال, للايث يعبر بصيغة الفعل بدل صيغة المفعول, ولا يرى في ذلك مانعا أسلوبيا, إلا أنه لم يعلل هذا التناوب في دلالته المستجدة من صيغة لأخرى .

1. ǯ ـ الانزياƩ بلفȘ الفعل بـ ـةينته :

ويراد بذا أن يغيب ذكر الفعل المراد من الحدث الذي يصفه ويعوض بزينة الفعل التي يرجع إليها في كل الأفعال, ويورد الزمخشري مثالا لهذا الانزياح في قوله تعالى:

---

[1] ـ الكشاف, ج 1, ص 172 , 173 .
[2] ـ طه, آية 36 .
[3] ـ الكشاف, ج 2, ص 536 .
[4] ـ الأنعام, آية 138 .
[5] ـ الكشاف, ج 2, ص 54 , 55 .

﴿ فإن لم تفعلوا و لن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين ﴾(1) . يتساءل الزمخشري عن هذا الانزياح الذي حدث في هذا التعبير القرآني بقوله: « فإن قلتَ: لم عبر عن الإتيان بالفعل, وأي فائدة في تركه إليه؟ قلتُ: لأنه فعل من الأفعال, تقول: أتيت فلانا فيقال لك نعم ما فعلت, والفائدة فيه أنه جار مجرى الكناية التي تعطيك اختصارا ووجازة تغنيك عن طول المكنى عنه»(2) , وإذا كان الزمخشري لم يبرر الانزياح الواقع في المثال السابق, فإنه في هذا التعبير يلتمس مبررا أسلوبيا بلاغيا و المتمثل في الإيجاز و الاختصار الذي يغني ـ كما قال ـ عن (طول المكنى عنه) .

بهذه الأمثلة ننهي الحديث حول المحور الأول, والمتعلق بالانزياح الواقع في ظاهر الصيغ و الأفعال , لننتقل إلى المحور الآتي:

2 ـ الانزياح بالفعل في التعبير القرآني :

ويتمثل هذا التعبير بطرق متنوعة, وفي جمل قرآنية مختلفة, ويكون حسب الأمثلة التي عالجها الزمخشري في هذا المجال عن طريق الطي, أو النسخ أو الحذف أو التضمين أو المجاز.

2. أ ـ الانزياح عن طريق الطي :

والمثال الذي يحتوي على هذا الانزياح هو قوله تعالى: **﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾**(3) . فيقول فيه الزمخشري بعد أن يتساءل و يجيب عن سؤاله حول الصفة: « أما الفعل فقد إنطوى تحت ذكر الإيمان الذي هو أساس الحسنات و منصبها, وذكر الصلاة و الصدقة لأن هاتين, إما العبادات البدنية والمالية وهما العيار على غيرهما»(4) . وإذا تساءلنا عن حقيقة الفعل الذي أزيح خلف ذكر الإيمان الذي يبينه الزمخشري بقوله: (أما الفعل فقد إنطوى تحت ذكر الإيمان)

---

1 ـ البقرة, آية 24 .
2 ـ الكشاف, ج 1, ص 247 .
3 ـ البقرة, آية 03 .
4 ـ الكشاف, ج 1, ص 124 .

وجعل الكلام مبهما, إذ تحتمل أن تتناوب عدة أفعال على توضيح جملة (الـذين يؤمنون بالغيب) في أفعالهم الـكثيرة والمتنوعة, وهنا تكمن خصيصة هذا الانزياح المنطوية أفعاله المعروفة معانيها من سياق الجملة كما قال الزمخشري ـ تتمثـل في كل ما تعنيه لفظة الحسنات .

2. ā ـ الانزياح dz ꜩ ꜩ الحذف :

لقد نقب الزمخشري في قوله تعالى: **﴿ و لتكƎوا ا ! ƺ ﺂﻟ ما ﻫداكم و لعلكم تشكرون ﴾**[1] . عن انزياحية الفعل بطريق الحذف لفظـا دون المعـنى, أي: أن القول قد حذف ليترك المعني يدل عليه, وقد إستطاع الوقوف عليه بقوله: « الفعل المعلل محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره (ولتكملوا العدة و لتكبروا الله على مـا هداكم ولعلكم تشكرون) شرع ذلك يعني جملة ما ذكر من الشواهد»[2] , فقوله: « مدلول عليه بما سبق » يعني أن السياق العام للجمل هو الذي حمل المعنى الـذي كان من المفروض أن يدل عليه الفعل المحذوف, و أن حذفه في الجملـة لم يكـن إعتباطيا دون رابط معنوي يدل عليه, ويؤدي معناه في جملـة القـول, لأن فعـل (شرع) الذي قدره الزمخشري يفيد في تشريع الله لهم بإكمال العدة, والتكبير بعدها على الهداية. وهذه العلاقة السياقية ـ بين الفعل المحذوف و جملة الأفعـال الـتي وردت قبله و التي إستنبطها الزمخشري ـ تعد لفتة دقيقة لقـراءة متفـردة لهـذا الانزياح الفعلي في هذا الأسلوب القرآني .

2. ǯ ـ الانزياح dz ꜩ ꜩ التقدير :

يلجأ الزمخشري في تبيان هذا الانزياح الواقع في الجمل القرآنية إلى إرجاع التعبير الوارد فيها إلى صورته الإعتيادية بعد أن يتساءل عن إمكانية ذلك؛ فمثلا في فعـل الكيد من قوله تعالى: **﴿ قال يا بني لا تقصص رءياك على إخوتك فيكيدوا لك**

1 ـ البقرة, آية 185 .
2 ـ الكشاف, ج 1, ص 336 .

كيدًا ﴾ (1) . يقول: « فإن قلت: هلا قيل: فيكيدوك كما قيل فيكيدوني؟ قلـت: ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل (الكيد) مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد و أبلغ في التخويف, وذلك نحو فيحتالوا لك, ألا تـرى إلى تأكيـده بالمصدر»(2) ويريد الزمخشري بهذا القول إن الانزياح واقع في عدم التصريح بالفعل الذي يحمل معنى الكيد, وإكتفى التعبير القرآني بذكر مـا يـدل عليـه في جملة (فيكيدوا لك) التي تترك المعنى مفتوحا للكيد الذي يمكن أن يحدث والذي لا يخرج عن كونه (كيدًا), وتعليله كما قال لزيادة التخويف, فلو ذكـر لفـظ التأكيـد بالتفصيل لكان أقل تأثيرا وأدنى تخويفا .

ويلتمس كذلك الزمخشري في فعل أحببت ـ من قوله تعـالى: ﴿ **فقـال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب** ﴾ (3) ـ انزياحا مفاده أن هذا الفعل ناب مناب فعل آخر وتضمن معناه, فيقول: « فإن قلت: مـا معـنى (أحببت حب الخير عن ذكر ربي) قلت: (أحببت) مضمن معـنى فعـل يتعـدى بـ (عن) كأنه قيل: أنبت حب الخير عن ذكر ربي, أو جعلت حب الخير مجزيا أو مغنيا عن ذكر ربي»(4) . إذن لقد لمح الزمخشري عن فعل يتعدى بعن حتى يكون التعبير في صورته العادية قبل الانزياح الذي حدث عليه حيث جيء بجملة (أحببت) نيابة عن الفعل الذي يؤدي حقيقة الحدث الوارد في سياق التعبير, والذي إقترحـه الزمخشري فـي فعلي (أنبت وجعلت). ويبقى التقدير مفتوحا لأي فعل يتعـدى بعن و يؤدي المعنى المطلوب.

2. د ـ الانزياح في تركيب الجملة :

ويدخل في هذا المجال ظاهرة التوسع في توظيـف الفعـل ـ علـى حـد رأي الزمخشري ـ داخل المعنى السياقي للجمل, ويتناول الزمخشري في هـذا المسـتوى

---

1 ـ يوسف, آية 05 .

2 ـ الكشاف, ج 2, ص 303 .

3 ـ ص, آية 32 .

4 ـ الكشاف, ج 3, ص 373 .

واقع الإسناد المجازي للفعال في صفته ظاهرة أسلوبية تميزت بها كثير من الأفعـال التي تسند إلى الله تعالى, وهو في نظره إسناد غير حقيقي. وينطلق في توضيح ذلك من خلال فعل الختم في قوله تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ [1], فبعد أن ينفي الزمخشري وجود ختم حقيقي وتغشية حقيقية ـ ويرجع ذلك إلى كون الكلام يحتـوي على الإستعارة أو التمثيل, ويشرع الإحتمالين معا ـ ينتهي في الأخير إلى تبرير هـذا الانزيـاح الإسنادي بقوله: « ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله لله فيكون الختم مسندا إلى إسم الله على سبيل المجاز وهو لغيره حقيقة. تفسـير هـذا أن للفعـل ملابسات شتى يلابس الفاعل, والمفعول به, والمصدر والزمان والمكان والمسبب له؛ فإسناده الى الفاعل حقيقة وقد يسند الى هذه الأشياء على طريق المجـاز المسـمى إستعارة, وذلك لمضاهاتها الفاعل في ملابسته الفعل كما يضاهي الرجـل الأسـد في جراءته فيستعار له إسمه, فيقال في المفعول به عيشـة راضـية, ومـاء دافـق, وفي عكسه سيل مفعم, وفي المصدر شعر شاعر وذيل ذائل, وفي الزمان نهاره صائم وليله قائم, وفي المكان طريق سائر ونهر جار»[2] .

فنلحظ من خلال كلام الزمخشري هذا أن الأفعال الـتي لا تتماشـى وحقيقـة الأحداث التي تصفها ـ وبخاصة إذا تعلق الأمر بالأفعال التي تنسب إلى الله تعـالى ـ فهي أفعال قد إنزاحت عن تأدية وظيفتها الإخبارية المبنيـة علـى الحقيقـة, إلى الإخبار المجازي الذي تكون الإعارة فيه أبلغ في تأدية المعنى المراد مـن التعـبير القرآني .

ويدخل في هذا الإسناد غير الحقيقي, إسناد المشابهة أو المضارعة, والذي أشـار إليه الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ وألقي السحرة ساجدين ﴾ [3] بقوله: « كأنمـا

---

1 ـ البقرة, آية 07 .

2 ـ الكشاف , ج 1, ص 160 , 162 .

3 ـ الأعراف, آية 120 .

ألقاهم ملقٍ لشدة خرورهم, وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا »[1] , فقد حاول الزمخشري - بقوله هذا - أن يربط ما بين سياق الموقف الذي تم فيه حادث وقوع الفعل, وبين سياق الفعل داخل نظام الجملة؛ فالأول يؤكد وقوع الفعل التلقائي من قبل السحرة, والثاني في صيغة الفعل المبنية للمجهول, والتي تدل على أن الفعل وقع من قبل فاعل لكنه غير معلوم, ولم يجد الزمخسري في التوفيق بين هذين السياقين إلا أن يلجأ إلى التوسع في الربط بين موقفين متشابين في عملية الخرور والإلقاء, فيكون بذلك مخرج الإسناد غير الحقيقي للفعل (الإلقاء) الذي تم من قبل السحرة (سحرة فرعون) .

بهذا القدر من انزياحية الأفعال داخل نظام الجمل القرآنية - من منظور الزمخشري - نأتي على نهاية هذا المبحث بخاصة و الفصل الأول المتعلق بالمقياس الصرفي بعامة, لنتحول بالحديث عن المقياس المتعلق بالتراكيب النحوية من خلال الفصل الثاني من هذا البحث .

---

[1] - الكشاف, ج 2, ص 103 .

الفصـــل الثـــاني

المقياس النحوي ومستوياته البنائية

المبحث الأول : المستـــوى المـــعيـــاري

المبحث الثاني : المستـــوى الإختيـــاري

المبحث الثالث : المستـــوى الإنزيـــاحي

قلنا فيما سبق من الفصل الأول إن النحو يأتي في الدرجة الثانية بعد الصرف من الناحية العملية, إلا أن الدراسات النحوية القديمة كانت تقدمه في عملية التبويـب والدراسة، و ذلك بالرغم من كونهم يعترفون بأولوية الصرف في ترتيب تنظيم الجمل، وأن النحو يبدأ من حيث ينتهي الصرف فهو-النحو-الصورة النهائية التي تستقر عليها الصورة الصرفية بمختلف تشكلاتها و أنماطها البنائية، و هو الذي يستقر عليه وجه الكلام في صورته النهائية مبنى و معنى, و لهذا قيل : « إن النحو هو الذي يقدم العنصر الجوهري للوصف البنيوي، و هو الذي يحدد بشكل لا لبس فيه وصف الصوائت و وصف المعاني من جهة أخرى» [(1)].

و في هذا الشأن قال قديما عبد القاهر الجرجاني مبينا قيمة النحو في بناء الكلام واستوائه على الطريقة السليمة ليؤدي الاتصال القديم :« ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو و يعمل على قوانينه و أصوله» [(2)] .

إذا اعتبرنا نظرة عبد القاهر هذه إلى النحو نظرة معيارية مفادها أن لعلم النحو قوانين و أصول يخضع إليها المتكلم كلامه, و المطلوب من النحوي أن يتحقق من مدى تطابق هذا الكلام مع معايير النحو و قوانينه، و لعل هذا ما خول لبعض المحدثين القول بان علم النحو كان في القديم « ...علما معياريا يهتم بصحة العبارة اللغوية فيحدد لها نماذج تضبط قواعديتها [(3)] ». و الكينونة هذه تعني أن نظرة المحدثين إلى علم النحو و وظيفته قد اختلفت, فما هو يا ترى نوع هذا الاختلاف؟

تعددت وجهات نظر الدارسين المحدثين إلى علم النحو و جلها تحاول تخليصه من الوظيفة المعيارية؛ فالبعض يراه عبارة عن« عملية تنظيميـة تضـع الأصوات

---

[1] ـ منذر عياشي ، مقالات في الأسلوبية ، المرجع السابق ، ص 18 ، نقلا عن (رينية) ، Introduction a la grammaire génerature – P 29

[2] ـ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، المرجع السابق، ص 55 .

[3] ـ عدنان بن ذريل ، اللغة و الأسلوب ، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ،1980م،(د.ط) ، ص 88.

والمعاني في علاقة متبادلة Ž يفسرها تفسيرا دلاليا[4] » . ويراه البعض الآخر كونه « عملية تنظيمية منتهية قادرة على توليد مجموعة غير منهية من الجمل» [1] .
غير أن هذه النظرة الشمولية لم تمنع بعض الدارسين من Өزئة علم النحو إلى أنواع مختلفة، ارتكازا على الوȿيفة التي يقوم با ؛ فهو إما وصفي أو تفسيري أو مقارن أو معياري [2] .

وإن حاولت هذه النظرة تشتيت ماهية النحو من خلال وȿيفته, فإننا لا نعتقد في كل هذه الأحوال أن ينطلق النحو من غير معايير أو مقاييس، أو أنماط للتعبير الموسوم بسلامة التراكيب عند أهل اللغة المتخاطب با, و إن حاول (بلومفيلد) تمييع هذه المعايير في اعتباره« أن كل بنية نحوية هي قياس، و أن دراسة لغة من اللغات تتمثل في الكشف عن مجموعة العناصر التي يتعاطاها أفراد اǾموعة اللسانية مما يؤالف قياسات تلك اللغة التي يستعملوŒا[3] ». فهذه القياسات و إن كانت جزئيـة و متفرقة للاسب التعابيـر الشائعة، فإŒـا تبقى معاييـر يرجـع إليهـا النحـو في« ضبط الصيɳ الأساسية في اللغة حسب درجة التواتر» [4].

و لا يربط (رءويت) بين ما يسميه بالقواعدية و الصحة النحوية, إذ لا تعني بالضرورة عنده أن يكون الكلام خاضعا للقواعد النحوية, و في الوقت نفسه يكون صحيحا تركيبيا, لأن القواعد النحوية نسبية ơضع إلى لهجة المتكلم و أسلوبيته و يشير في ذلك إلى« ...أن ǫة درجات للقواعد تستعمل تراكيب نحوية متفاوتـة في صحتها » [5] .

وفي القديم تفطن علماء اللغة العربية إلى هذه النسبة و أخضعوا ذلك إلى القراءات المختلفة واللهجات المتباينة, وخرجوا بقواعد ثابتة وأخرى قابلة

---

[4] ـ رءويت ، مدخل إلى علم النحو التوليدي ، باريس ،1968م ،(د ط) ، ص23 .
[1] ـ المرجع السابق ، ص93 .
[2] ـ ينظر ـ مدخل إلى علم اللغة لجاكبسون ، ترجمة ديبواشاوليه، لاروس ، باريس ، 1969م ، (د ط) ، ص162.
[3] ـ عبد السلام المسدي ، الأسلوبية و الأسلوب، المرجع السابق، ص208 .
[4] ـ المرجع نفسه .
[5] ـ رءويت ، مدخل إلى علم النحو التوليدي، المرجع السابق، ص28 .

للتأويل وثالثة للتبرير، ومنها جاء التوسع والعدول والشذوذ, وكلها مصطلحات تنم عن الحركية المتواجدة في قواعد اللغة العربية. هذه الحركية هي التي تهتم بها الدراسات الأسلوبية الحديثة في منظورها إلى الأسلوب كظاهرة متميزة تخترق السنن والقواعـد وترسم أشكالا متفردة دون أن تخرج عن التراكيب العامة للكلام في اللغة المتخاطب بها داخل الشبكة اللغوية لهذا المجتمع أو ذاك.

من هذا التصور العام للقواعد النحوية يقف الزمخشري ـ من خلال نظرته إلى هذه القواعد المنظِمة للخطاب القرآني ـ نظرة متحررة ترتكز على ثلاثة مستويات: المستوى المعياري, المستوى الاختياري و المستوى الإنزياحي .

المبحث الاول : المستوى المعياري :

إذا كان التعبير بصورة عامة يعني: التقدير بين الأشياء في موازينها و مكاييلها التي أصبحت ترتبط بتحديد ماهيتها [1]. فإنه في مجال النحو يرتبط بتلك النتائج التي توصل إلى إرسائها علماء اللغة، عند جمعهم لها في محاولة منهم لوضع ضوابط عامة تتحكم في تنظيم الكلام عبر بناء العبارات و الجمل المفيدة داخل الإطار العام للغة، عبر ما ترسب من أنماط تعبيرية لأفراد هذه اللغة. و عليه يمكن مسايرة ابن خلدون في القول: بأن النحاة قد استنبطوا من أساليب كلام العرب قوانين و قواعد مطردة يقيسون عليها باقي أنواع الكلام, فيلحقون المتشابه بنظيره [2]. و هذه كما قيل ليست حكرا على أمة بعينها و لكنها« صنيعة العقل البشري وما السليقة إلا مجرد تلقائي لمعايير يقاس عليها الكلام, فإذا انحرف عنها لحن [3]» .

و لعل هذا ما فعله علماء اللغة العربية الأوائل كأبي الأسود الدؤلي و عبد الله بن أبي إسحاق و غيرهم, إذ شرعوا في جمع اللغة و استقراء ظواهرها المطـردة والخروج بضوابط مشتركة للهجاتها المختلفة, فكانت بذلك قواعد معيارية معتمدة

---

[1] ـ ينظر، ابن منظور ، اللسان، مادة (عير) ص623 .

[2] ـ ينظر، ابن خلدون ، المقدمة ، (د ت) ،ط 1 ، ص 470 .

[3] ـ حسن خميس الملخ، نظرية الأصل و الفرع في النحو العربي، دار الشروق للنشر و التوزيع ،2001م، (د.ط) ، ص 32.

على كثرة أنماط تعابير كلام العرب, و يعد الخروج عما ثبت في كلام العرب ـ فيما لم يدخل تحت حكمها ـ شذوذا، ويعد من الكلام الذي يأتي فيما بعد،ولم يخضع لها خطأ، إذن فالشذوذ عن القاعدة قبل و أثناء وضعها واقع لم يستطع علماء اللغة إنكاره؛ فابن السراج يؤكد هذه الظاهرة بقوله :« و اعلم أنه ربما شذ الشيء عن بابه, فينبغي أن يعلم أن القياس إذا اطرد في جميع الباب لم يُعْنَ بالحرف الذي يشِذ منه فلا يطرد في نظائره. و هذا يستعمل في كثير من العلوم و لو اعترض الشاذ على القياس المطرد لبطل أكثر الصناعات و العلوم فمتى وجدت حرفا مخالفا لا شك في خلافه لهذه الأصول، فاعلم أنه شاذ [(1)] ». نفتح هنا قوسا فنقول بأن الشذوذ في التعبير و عدم الخضوع إلى القاعدة التي بنيت على قياس كثرة الاستعمال [(2)]؛ يعد نوعا من الانزياح سيأتي الحدث عنه في مبحثه والذي يجب أن نؤكد عليه في هذا المجال أن القاعدة المطردة المبنية على استقراء كثرة الاستعمال، لا تعد بالضرورة شاملة جامعة لكل ما تكلم به العرب من أساليب التعبير القولي, ولكنها في الوقت ذاته تمثل دستورا مانعا لكل من أراد القول بعد صدورها من منظور علماء اللغة ومقعديها. ومن ثمة نجد هؤلاء العلماء يعترفون بمجالات الخروج عن هذه القواعد, فيستعملون مصطلحات متنوعة مثل الأصل والتوسع والعدول و...الخ، ثم يردفونها بنماذج تعبيرية وردت على ألسنة العرب .

هذه الحركية داخل أطر القواعد و المعايير النحوية هي التي نريد الإشارة إليها قبل أن نلج إلى التعابير التي تطرق إليها الزمخشري من خلال النص القرآني .

ولعل من أبرز مظاهر حركية القواعد النحوية اختلاف النحاة حول كثير من الأحكام، وانقسامهم في ذلك إلى مدارس على أساس المقاييس المتبعة في كل مدرسة، وهذا الاختلاف كان بمثابة منافذ ومساحات يتحرك فيها المتكلم أو المنشيء للخطاب, فهو أمام مبدأ الاختيار, اختيار معايير التراكيب لم يخرج

---

[1] ـ ابن السراج ، الأصول في النحو ، تحقيق عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1985 ، ج1 ، ص56

[2] ـ ينظر ,السيوطي ، الأشباه و النظائر في النحو, المرجع السابق، ج 2, ص 304 .

كلام العرب في نظمه على منوالها. كما يعد اعتراف النحويين بمبدأ اختلاف اللغات واعتبارها حجة [1] في إقامة المعايير المختلفة للظاهرة الأسلوبية ـ التي ثبت التعبير بها عند مختلف قبائل العرب ـ مركب النجاة لكثير منهم في استنتاج كثير من المعايير و القواعد النحوية .

و مما شاع أيضا في لغة النحاة استخدام الأصول و الفروع إذ« يطلق الأصل في النحو و يراد منه ما يستحقه الشيء بذاته تارة, و القاعدة أخرى و المراد من العلامة ثالثة, و الأكثر الغالب رابعة, و الأقدم تاريخيا خامسة, و غيرها من المعاني, و الفرع بخلافه[2] ». و الذي يميز الأصل عن الفرع هو كون الأول يحمل معاني ودلالات الثبات بينما الثاني يحمل خصائص التجدد و التعدد و التغيير[3] .

مما تقدم يمكن القول: إن الأحكام و المعايير و القواعد النحوية في مجملها كانت وليدة هذه المعطيات العامة في تاريخ نحونا العربي.

وإذا جئنا إلى الزمخشري ـ وهو واحد من هؤلاء النحويين القدامى ـ و حاولنا أن نتعرف على المعايير التي اعتمد عليها في محاورة النص القرآني _ من خلال تفسيراته وشروحاته المتعددة ـ نقول إنه انطلق من نوعين من المعايير: معايير الأحكام المسبقة, ومعايير واقع السياق الداخلي أو الخارجي, ونحاول الآن التعرف على أمثلة كل نوع على حده .

أولا: معيارية الأحكام المسبقة :

يوظف الزمخشري أحكاما معيارية ـ و هو يتناول التعابير القرآنية بالدراسة والتحليل ـ تتعلق ببعض القضايا النحوية من خلال العناصر المكونة للجمل من حيث المباني والمعاني, فنجده مثلا يتطرق إلى الحدود التي لا تتجاوزها بعض الأدوات داخل نسيج الجمل القرآنية, فعندما يتناول بعض الأدوات مثل (ما ومن

---

1 - ينظر,ابن جني، الخصائص, تحقيق محمد النجار ، دار الكتاب العربي , (د ط) , (د ت) , ج2 , ص10، 11 .

2 - حسن خميس الملخ ، نظرية الأصل و الفرع في النحو، المرجع السابق، ص 75 .

3 – ينظر، المرجع نفسه .

وقد ولولا) في سياق التراكيب التي وردت فيها, فإنه يطلق الحكم المتعلق بكل أداة بعد أن يتساءل عن إمكانية وقوعها في غير ما هي عليه؛ فلو أخذنا على سبيل المثال الأداة (ما) في قوله تعالى: ﴿ **وكانوا قليلا من الليل ما يهجعون** ﴾ [1] نجده يتساءل عن جواز إمكانية النفي بـ (ما) نزولا عند أقوال البعض, ثم يطلق حكما مانعا بقوله :« فإن قلت لا لأن ما النافية لا يعمل بعدها فيما قبلها, تقول : زيدا لم أضرب و لا تقول : زيدا ما ضربت [2]». لقد استند الزمخشري ـ كما هو مصرح به ـ في إصدار هذا الحكم على القياس التعبيري الوارد في كلام العرب, حيث ينتفي عندهم معنى النفي مع الاسم الموصول (ما)، رغم تجويزه عند البعض منهم ممن أشار إليهم الزمخشري في قوله : « فإن قلت : هل يجوز أن تكون (ما) نافية كما قال بعضهم، و أن يكون المعنى أنهم لا يهجعون من الليل إلا قليلا ويحيونه كله[3] » .

و نبقى مع نفس الأداة (ما) و لكن في تعبير آخر في قوله تعالى : ﴿ **وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون** ﴾ [4] و لكي يقر الزمخشري بدلالة الفعل المضارع (يأتيهم) على الحال الماضية المطابقة لفعل الكينونة (كانوا) جاء بالحكم مطلق يتعلق بـ (ما) في علاقتها مع الفعلين الماضي و المضارع يقول:« في قوله تعالى : ﴿ **ما يأتيهم** ﴾ : حكاية حال ماضية لأن (ما) لا تدخل على مضارع إلا و هو في معنى الحال, ولا على ماض إلا و هو قريب من الحال » [5] .

رغم كون هذا الحكم معياريا حصريا لموقع هذه الأداة (ما)، إلا أن الزمخشـري أورده ليبرر به وقوع الفعل المضارع في وصف الحالـة الماضـية المنتهيـة فعليـا و زمنيا, و قد سبق الحديث عنه ضمن انزياحية الأفعال في الفصل السابق.

---

1 ـ الذاريات، آية 17 .
2 ـ الكشاف ، ج 4 ، ص 16 .
3 ـ المصدر نفسه .
4 ـ الحجر ، آية 11 .
5 ـ الكشاف ، ج2 ، ص388 .

و إذا انتقلنا إلى الأداة الثانية (من) _ في التعبير القرآني من قوله تعالى: **﴿ من خشي الرحمن بالغيب و جاء بقلب منيب ﴾**[1] _ فإننا نجد الزمخشري بعد أن يعرض عدة احتمالات لعبارة (من خشى) في كونها بدلا لا يجوز أن تكون في« ...حكم أواب و حفيظ, لأن (من) لا يوصف به, و لا يوصف (من) بين الموصولات إلا ب(الذي) وحده [2] » . بهذا الحكم القطعي _ لعلاقة هذه الأداة من حيث الوصف بأداة أخرى _ يقطع الزمخشري الباب أمام أية قراءة أخرى تفتح معنى آخر و حكما إعرابيا مغايرا .

و في تعبير قرآني مختلف ترد فيه هذه الأداة (من) في قوله تعالى : **﴿ قل ارءيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾**[3] يطلق الزمخشري حكما قطعيا مفاده أنه : « يجب أن تكون (من) للبيان في هذا الوجه[4] » . يعني في هذا التركيب النسقي للجملة القرآنية. و الوجوب كما هو بيّن يمنع أي تخريج لمعنى آخر يمكن أن تدل عليه هذه الأداة في مثل هذا التعبير القرآني أو غير القرآني.

و من أمثلة الأحكام المعيارية أيضا ما حدده الزمخشري مع الأداة (قد) التي وردت في قوله تعالى: **﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ﴾**[5] .إذ نجده _ وهو يبحث عن معناها و دلالتها الجزئية في هذا التعبير القرآني _ يربط دخولها على الفعل المضارع بأداء المعنى الذي تؤديه أداة أخرى و هي (ربما) في خروجها عن المعنى الأصلي الذي يرتبط بها إلى معنى آخر, و هو التكثير في الشيء الذي تصفه. ويظهر هذا جليا في قوله:« أدخل (قد) ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن

---

[1] ـ ق ، آية 33 .
[2] ـ الكشاف ، ج4 ، ص10 .
[3] ـ يونس ، آية 50 .
[4] ـ الكشاف ، ج2 ، ص240 .
[5] ـ النور ، آية 63 .

الدين و النفاق, و موقع توكيد العلم إلى توكيد الوعيـد, و ذلـك أن (قـد) إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما في خروجها إلى معنى التكثير[1] »

ومن الأحكام المعيارية التي أطلقها الزمخشري على بعض الأدوات نـذكر: أداة الشرط (لولا) التي حكم بعدم تقدم جوابا عليها, و عليه فقد اضـطر في التعـبير القرآني ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رءا برهان ربه ﴾[2] ـ إلى تقدير محذوف نزولا عند حدود الحكم السابق فقول:« فإن قلتَ: لم جعلت جـواب (لـولا) محذوفا يدل عليه (هم بها), وهلا جعلته هو الجواب مقدما؟ قلتُ: لأن (لـولا) لا يتقدم عليها جوابا من قبل أنه في حكم الشرط و للشرط صدر الكلام[3] » .

وتتنوع الأحكام المعيارية التي يطلقها الزمخشري كلما وقف أمام تعبير قرآني يثير فيه تساؤلات حول وضعيته الإعرابية المتحكمة في دلالته و معناه؛ فمـثلا نجـده يرفض أن يكون (شيء) في معنى المفعول به الواقع بعد فعل« عفا » من قوله تعالى : ﴿ فمن عفي له من أخيه شيء ﴾[4]، للاجة الحكم المسبق الـذي يقـر بـأن :« عفا لا يتعدى إلى مفعول به إلا بواسطة [5] » .

ويصدر أحكاما أخرى تتعلق بالمصدر الذي لا يستند إليه, و الصـلة الـتي لا تتقدم على الموصول, وكذلك حال المجرور التي لا تتقدم عليـه؛ فـالحكم الأول يتضمنه قوله :« و قوله: منها[6] لا ضمير العدل لان العدل هـا هنا مصـدر لا يسند إليه الأخذ [7]». و أما الحكم الثاني فيجسده في القول :« و قوله فيـه[8] ليس من صلة الزاهدين لأن الصلة لا تتقدم على الموصول، ألا تراك تقول:وكـانوا

---

[1] ـ الكشاف ، ج3 ، ص79.

[2] ـ يوسف ، آية 24 .

[3] ـ الكشاف ، ج2 ، ص311 .

[4] ـ البقرة ، آية 178 .

[5] ـ الكشاف ، ج1 ، ص332 .

[6] ـ من قوله تعالى :﴿ و إن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ الأنعام ، آية 70 .

7ـ الكشاف ، ج2 ، ص28 .

[8] ـ من قوله تعالى :﴿ و شروه بثمن بخس دراهم معدودة و كانوا فيه من الزاهدين﴾ يوسف ، آية 20 .

زيدا من الضاربين, وإنما هو بيان كأنه قيل : أي شيء زهدوا ؟ فقـال: زهـدوا فيه [1] » . وأما الحكم الثالث فهو في قوله:« فان قلت : على قميصه[2] فمـا محله؟ قلت: محله النصب على الظرف كأنه قيل: وجاءوا فوق قميصه بدم. كمـا تقول : جاء على جماله بأحمال. فان قلت: هل يجوز أن تكون حـالا متقدمـة ؟ قلت: لا، لأن حال المجرور لا تتقدم عليه [3] » .

إذا أردنا أن نقدم قراءة موضوعية لهذه الأحكام المعيارية من الوجهة الأسـلوبية الحديثة, فإننا يجب أن ننطلق من التسليم القائل بأنه لا أسلوب بدون نحو, وأن هذا الأخير يحدد لنا ما لا نستطيع قوله, و يضع لنا قوانين تضبط الكلام« بينما تقفو الأسلوبية ما بوسعنا أن نتصرف فيه عند استعمال اللغـة [4] ». وعليـه تكـون الأحكام التي أصدرها الزمخشري في منظور الدرس الأسلوبي هي بمثابـة مقـاييس بنائية يعتمد عليها الدارس للأسلوب في معرفة مجالات التصرف من خلال الظواهر الأسلوبية التي يحتويها الخطاب موضوع الدراسة, و هذه الأحكام المعيارية ضرورية لتعيين أي تصرف يحدث مغايرا لها بأي شكل من الأشكال .

تلك هي إذا خلاصة المبحث الأول - الذي تناول بعض الأحكـام المعياريـة المسبقة التي مما لا شك فيه أنها كانت نتيجة الملاحظات كثيرة و متنوعـة حـول التعابير التي صدرت عن المتكلمين الأوائل باللغة العربية - لننقل حديثنا إلى المبحث الثاني حيث يعتمد الزمخشري في إصدار أحكامه على أنماط السـياق الـداخلي والخارجي للجمل .

---

1 - الكشاف ، ج2 ، ص309 .
2 - من قوله تعالى :﴿ و جاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ يوسف ، آية 18 .
3 - الكشاف ، ج2 ، ص308 .
4 - المسدي ، الأسلوبية و الأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، 1982م ، ط2 ، ص56 .

ثانيا: معيارية الأحكام السياقية :

يمثل السياق (Context) مقياسا من مقاييس الدراسة الأسلوبية القديمة والحديثة, بل ينسب إليه بعض الدارسين نوعا خاصا من الدراسة يقال لها الأسلوبية السياقية[1]. ويقسمها قسمين: سياق صغير و سياق كبير[2].

ويحتل السياق مكانة بارزة في الكشف عن الدلالات« ...التي تحملها المفردات في سياقاتها اللغوية والاجتماعية والحضارية على نحو عام [3] » . فهو إذا يقوم بوظيفة تحديد المعنى الدقيق للكلمة داخل نظام الجملة. وهو أيضا:« ...الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها, وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية[4] ». ومن ميزات دلالة السياق كذلك انه يجعل« الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة بمفرداتها نفسها إذا قيلت بنصها في مواقف مختلفة, تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه مهما كانت بساطة هذه الجملة وسذاجتها » [5]. إن الجملة تخضع في الدراسة إلى سياقات لغوية مختلفة أبرزها السياق الداخلي المنظم لعناصرها و المحدد لدلالاتها المتنوعة، و يمثل التركيب النحوي العنصر الرئيسي في هذا المجال, للايث لا يأتي المعنى إلا بعد استقامة التركيب وترتيب العناصر وفقا للمعايير النحوية, ولكن هذه المعايير تكون نتيجة لسياقات تركيبية معينة .

من هذا المنطلق السياقي لبعض التعابير القرآنية، ينطلق الزمخشري في استنباط بعض معايير الأحكام النحوية. فمن بين الأحكام التي استنبطها الزمخشري من

---

1 ـ ينظر، هنريش بليث ، البلاغة و الأسلوبية ترجمة محمد العمري ، إفريقيا الشرق ،1999م، د ط ، ص60

2 ـ ينظر، المرجع نفسه .

3 ـ عدنان حسين قاسم، الإتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، المرجع السابق، ص189 .

4 ـ فندريس،اللغة،ترجمة عبد الحميد الدواخلي،ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950م، (د ط)، ص231

5 – محمد حماسة ، النحو و الدلالة ، القاهرة ، 1403 هـ ، 1983 ، (د ط) ، ص113 .

السياق في قوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾[1]، عدم اعتبار اللام زائدة فيقول :« فان قُلتَ: فهلا زعمتم أنها زيدت لتظاهر (لا) في لا يؤمنون ؟ قلتُ : يأبى ذلك استواء النفي و الإثبات. و ذلك قوله: ـ فلا اقسم بما تبصرون و ما لا تبصرون[2]» , إذًا فالحكم هنا خضع للتعبير الوارد في السياق العام للمعنى بشقيه النفي و الإثبات .

و ننتقل إلى حكم سياقي آخر ينطلق فيه الزمخشري من قوله تعالى: ﴿ فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾[3].
فيقول فيه:« بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله, و (أشد) معطوف على الحال, فإن قلتَ : لم عدلت عن الظاهر و هو كونه صفة للمصدر, و لم تقدر يخشون خشية مثل خشية الله. بمعنى مثل ما يخشى الله ؟ قلتُ : أبى ذلك (أو أشد خشية) لأنه و ما عطفت عليه في حكم الواحد[4] ». فالحكم هنا هو استحالة التقدير انطلاقا من ظاهر القول, لأن عبارة (أو أشد خشية) الواقعة في سياق الجملة المعطوفة تمنع ذلك التقدير.

ويسوق الزمخشري أحكاما تتعلق بعدم جواز العطف في بعض التعابير القرآنية من خلال السياق الواردة فيه هذه الظاهرة ؛ ففي العطف الوارد في قوله تعالى: ﴿ ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء ﴾[5]. يقول:« وليس بسديد أن يعطف على المجرور في فيهن لاختلاله من حيث اللفظ والمعنى[6] » .

1 ـ النساء ، آية 65 .
2 ـ الكشاف ، ج1 ، ص538 .
3 ـ النساء ، آية 77 .
4 ـ الكشاف ، ج1 ، ص543 ، 544 .
5 ـ النساء ، آية 127 .
6 ـ الكشاف ، ج1 ، ص567 .

ومن الأحكام المعيارية الناجمة عن سياق الجملة في التعبير القرآني من قوله تعالى: **﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾**[1] فهو حكم عدم صحة التقدير الذي نفاه الزمخشري بقوله:« هلا زعمت أن المحذوف الذي تعلقت به الباء ما دل عليه قوله : بل طبع الله عليها فيكون التقدير: فبما نقضهم ميثاقهم،طبع الله على قلوبهم بل طبع الله عليها بكفرهم ؟ قلت : لم يصح هذا التقدير لأن قوله بل طبع الله عليها بكفرهم رد وإنكار لقولهم قلوبنا غلف فكان متعلقا به[2] » .

وإذا كان الزمخشري في الأحكام التي سقناها ينطلق في إصدارها من السياق الداخلي , فإنه في الحكم الموالي يعتمد على السياق الخارجي ويمنع عودة الضمير إلى الفاعل نزولا عند الزمن الحقيقي لحدوث الفعل؛ ففي قوله تعالى: **﴿ ولقد ءاتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾**[3]. يقول:« ولا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون ومثله، لأن التوراة إنما أُوتيها بنوا إسرائيل بعد إغراق فرعون[4] » .

نلاحظ مما تقدم أن هذه الأحكام التي توصل إليها الزمخشري – من خلال هذه التعابير القرآنية – آنية ليست قطعية, فقد تزول بزوال التعبير الذي وردت فيه, بينما الأحكام التي سقناها في المبحث الأول قطعية، لا يمكن تجاوزها على الأقل من منظور الزمخشري و من سار معه في هذا المذهب النحوي .

بهذا القدر من الأمثلة التي سقناها في إطار الأحكام المعيارية بنوعيها المسبق والسياقي، نكون قد أتينا على نهاية المستوى المعياري للقواعد النحوية التي اعتمدها الزمخشري في قراءة النص القرآني, و نتحول في الحديث الآن إلى النوع الثاني من المستويات النحوية و المتمثل فيما يلي :

---

1 ـ النساء ، آية 155 .

2 ـ الكشاف ، ج1 ، ص578 .

3 ـ المؤمنون ، آية 49 .

4 ـ الكشاف ، ج3 ، ص33 .

المبحث الثاني : المستوى الاختياري .

الاختيار أو الانتقاء عملية يسلكها منشيء الخطاب, و هي كما قال البعض على أنماط أربعة :« استبدلالية و نحوية و أسلوبية و غير أسلوبية [1] » . و يحـددها البعض الآخر في نوعين من الاختيار :« اختيار محكوم بالموقف العام, و اختيـار تتحكم فيه مقتضيات التعبير الخالصة [2] ». و الذي يقترب من مجـالات هـذا المبحث هو النوع الثاني و المتمثل في الاختيار النحوي، إذ يختار المتكلم أو المنشيء للخطاب التراكيب التي تكون قواعد صياغتها إجبارية في مثل الجمل الاسـتفهامية أو الجمل الخبرية [3]. و عليه يمكن القول :« إن معظم الإمكانات النحويـة ذات طبيعة اختيارية , تتيح للمبدع ـ بشكل أو بآخر ـ أن يقدم المعنى بطرق مختلفـة في الوضوح و الخفاء, و الزيادة و النقصـان [4]» و المـراد في هـذا المسـتوى الاختياري النحوي هو :« قواعد اللغة بمفهومها الشامل الصـوتية و الصـرفية والدلالية و نظم الجملة » [5]، و لكن من وجهة خاصة تجلت بوضوح في القراءة النحوية التي أجراها الزمخشري للنص القرآني ، من خلال الجمل التعبيرية المتنوعـة صياغة و دلالة .

وبتعبير آخر نقول: إننا لا نريد من هذا الاختيار حصـر الحـديث حـول التراكيب المتعلقة بموضوعات التقديم و التأخير و الذكر والحذف، والـتي سـيأتي الحديث عنها في مبحث الانزياح, وإنما نريد الوقوف على الإمكانات التي أتاحهـا

1 ـ صلاح فضل ،علم الأسلوب، المرجع السابق، ص 102 .
2 ـ نور الدين السد ،الأسلوبية و تحليل الخطاب ،دار هومة ، الجزائر،1997م، (د ط) ، ص156 .
3 ـ ينظر ، صلاح فضل ،علم الأسلوب، المرجع السابق، ص103
4 ـ محمد عبد المطلب ،النحو بين عبد القاهر و تشومسكي ،مجلة فصول القاهرية،مجلد5،عدد1،1984م،ص320
5 ـ سعد مصلوح ،الأسلوب ،عالم الفكر، 1992م، ط3، ص39

الزمخشري أمام القاريء للوصول إلى المعنى من خلال الاختيارين الآتيين: إما عن طريق القراءة أو عن طريق حمل الكلام و تقديره .

أولا: الاختيار بالقراءة :

و نريد به القراءات القرآنية و ما لها من اثر في تغيير المعنى و تحويله في معاني الجمل القرآنية .

تمثل القراءات المختلفة, سواء بالحروف أو بالحركات مجالا لاختيار المعنى وانتقائه من بين المعاني الناجمة عن هذه القراءات ؛ و القراءات في حكم الأصوليين« هي تلك الوجوه اللغوية و الصوتية, التي أتاح الله بها قراءة القرآن تيسيرا و تخفيفا على العباد [1] »، أو هي في العموم« علم بكيفية أداء كلمات القرآن و اختلافها بعزو الناقلة [2] » و قد توسع هذا العلم و ظهرت فيه مصنفات كثيرة و متنوعة تناولته بالدراسة و التحليل, سواء كان ذلك في مجال اختلافها ككتاب (الاختلاف بين القراءات) لأحمد البيلي, أم في مجال تأثيرها في النحو ككتاب (أثر القراءة القرآنية في تطور الدرس النحوي) للدكتور عفيف دمشقية, و كتاب (القراءات القرآنية و أثرها في الدراسات النحوية)للدكتور عبد العال سالم مكرم، و كذا كتاب (القراءات أحكامها و مصادرها) للدكتور سفيان محمد إسماعيل الذي افرد دراسة دقيقة لمعرفة هذه القراءات و أنواعها و اختلاف العلماء و الدارسين لها و كتاب (موقف اللغويين في القراءات القرآنية الشاذة) لصاحبه محمد السيد احمد عزوز, الذي أورد فيه الآراء المختلفة لأهل اللغة حول القراءة الشاذة و مدى صحة الأخذ بها في القضايا النحوية التي تؤدي مما لا شك فيه إلى التغيير في المعنى .

---

1 ـ محمد سمير اللبدي ، أثر القرآن و القراءات القرآنية في النحو العربي ، دار الكتب الثقافية ، الكويت، (د ت) (د ط) ، ص206

2 ـ ابن الجزري ، منجد المقرئين و مرشد الطالبين ، دار الكتب العالمية ، 1980م ، (د ط) ، ص03 .

و الذي يهمنا من هذا كله ـ من الوجهة الأسلوبية ـ هو أن تنوع القـراءات يعني حركية الاختيار في استنباط المعاني و تخريجها. و قد تم اختيارنا ـ مما يترتـب عن هذه القراءات من أشكال تعبيرية ـ لنمطين من التغيير, تغيير بالحروف و تغيير بالحركات الإعرابية .

1 ـ التغيير بالحروف:

و نريد تغيير المعنى بتغيير القراءة للحرف من الحروف, فمثلا نجد الزمخشري يشير إلى هذا الفارق المعنوي عندما يتناول قوله تعالى: **﴿ قل للذين كفـروا ستغلبون و تحشرون إلى جهنم و بئس المهاد ﴾** [1] . بقوله:« فإن قلتَ : أيّ فرق بـين القراءتين من حيث المعنى ؟ قلتُ : معنى القراءة بالتاء الأمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة و الحشر إلى جهنم فهو إخبار بمعنى سيغلبون و يحشـرون و هـو الكائن من نفس المتوعد به, و الذي يدل عليه اللفظ, و معنى القراءة بالياء الأمـر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه كأنه قال : أدّ إليهم هذا القول الذي هو قولي لك سيغلبون و يحشرون [2] » . فالفارق المعنوي الذي بيّنه الزمخشري في قوله هذا دقيق، يتمثل في عملية الإخبار المباشرة و غير المباشرة, فالقراءة بالتاء غير مباشرة و هي تحمل المعنى (سيغلبون و يحشرون) و أما القراءة بالياء فهو مطـابق للوعيد بلفظه .

و من الأمثلة التي وضح فيها الزمخشري اختلاف المعنى في القراءة بأحد الحروف ما أورده في قوله تعالى:« **و انظر إلى العظام كيف ننشزها** [3] » . بقوله:« ... كيف نحييها،وقرأ الحسن ننشرها من نشر الموتى ،بمعنى :أنشرهم فنشروا وقـريء بالزاي بمعنى: نحركها و نرفع بعضها إلى بعض للتركيب [4] » . و يبدو الفـارق هنا أيضا في المعنى يتميز في كيفية إعادة الأموات, فالقراءة بالراء تذكر عموم إعادة

---

1 ـ آل عمران ، آية 12 .

2 ـ الكشاف ، ج1 ، ص414 ، 415 .

3 ـ البقرة ، آية 259 .

4 ـ الكشاف ، ج1 ، ص391 .

الأحياء, و أما القراءة بالزاي فتدل على الحركة الناجمة عن رفع الأجزاء بعضـها فوق بعض لتتم عملية التركيب.

و بهذه الطريقة يتوغل الزمخشري في الكشف عن تغير المعاني الجزئية التي تؤديهـا القراءة لحرف من الحروف .

1 ـ التغيير بالحركات:

يؤدي تغيير الحركات الإعرابية تغييرا كبيرا في المعاني, و بخاصـة في القـرآن الكريم, و الزمخشري يجد في هذا المجال للحديث عن المعاني الناجمـة مـن تغـيير الحركات لحسب تنوع القراءات؛ و تستوقفه في هذا نماذج كثيرة و متنوعة يمكننـا الوقوف على بعض منها, فمن أمثلة ذلك قوله تعالى : **﴿ و إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾** [1]. يبين الزمخشري اختلاف المعنى باختلاف الحـركتين الإعرابيتين (الرفع و الجزم) بقوله :« فان قلتَ : أي فرق بين رفعه و جزمـه في المعنى ؟ قلتُ : لو جزم لكان نفي النصر مقيدا بمغافلتهم كتولية الأدبار, و حـين رفع كان نفي النصر وعدًا مطلقا [2] » . فالفارق على حد قوله جزئي يتمثـل في صفة القيد و الإطلاق التي يتصف بها النصر الموعود به هؤلاء القوم .

و قد تحول الحركة الإعرابية المعنى من مخاطب إلى مخاطب آخر كما هو الشـأن في القراءة لحركة الكسر التي أشار إليها الزمخشري في قوله تعالى: **﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾** [3]. يقول في ذلك:« وقريء لقد كشفنا عنـك غطاءكِ فبصركِ بالكسر على خطاب النفس [4] ». هذا الخطاب هو الذي يحتويه السياق فهو :« مقول قول محذوف دلَّ عليه تعينه من الخطاب, أي يقـال هـذا الكلام لكل نفس من نفوس المشركين فهو خطاب التـهكم التـوبيخي للـنفس

---

1 ـ آل عمران ، آية 111 .

2 ـ الكشاف ، ج1، ص455 .

3 ـ ق ، آية 22 .

4 ـ الكشاف ، ج4 ،ص7 .

الكافرة، لأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر و الجزاء ... و علامات الخطـاب في كلمات (كشف و عنك و غطاءȪ و بصرȪ) مفتوحة لتأويل النفس بالشخȌ أو بالإنسان, Ż غُلب فيه التذكير على التأنيث [1] » .

و نبقى مع دور الحركة في تغيير المعنى في مثل قوله تعالى: **﴿ ȅيعلمون ȡدا مـȸ الكȐّاāȈ الأȉȸر ﴾** [2]. يقول الزمخشري في هذه القراءة :« و قريء الأشربضـم الشيء كقولهم: حدث و حدث وحذر و حذر و أخوات لها ،و قُريء الأشر هـو الأبلȠ في الشرارة [3] »

ٮذه الكيفية يتناول الزمخشري الفروق المعنوية الناجمة عن تغير الحركات الإعرابية للاسب القراءات الواردة فيها, فيذكر المعاني الظاهرة و الخفية،العامـة و الجزئيـة, مفضلا أحيانا قراءة على أخرى ترجيحا لقوة المعنى و بلاغته .

وعليه يمكن القول إن الزمخشري ٮذه الطريقة قد قرأ الخطاب القرآني من خلال أساليب قولية متنوعة تمثلتها هذه القراءات للاروفها و حركاٮٔا, و كان الاختيـار فيها من أجل تبيان اختلاف المعنى من وجهة كل قراءة .

ۿانيا: الاختيار للامل الكȲّ̄ و ƍرƶه:

يبحث الزمخشري في تراكيب الجمل القرآنية و يدقق في مفاصلها, فلا يستوقفه تركيب إلا و حاول أن ƶد له علائق تربطه مع سياقاته الداخلية في المعنى, و غالبا ما يقف متسائلا أولا عن هذه العلاقة Ż ƶيب معللا وشائج القرابـةالتي تـربط أركان الكلام ببعضه البعض, و لتجسيد هذه الفكرة ندرج قوله تعالى: **﴿ و مـȸ الناس مȸ يعƴبȰ قوله** في **الحياȰ الدنيا ﴾** [4] يقف الزمخشري متسائلا عن علاقة شبه الجملة (في الحياة الدنيا) بما قبلها من أداء المعنى, Ż يختار لهذه العلاقة ƍـرƶين

---

[1] ـ ابن عاشور ، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م ، د ط ،ج26 ، ص309.308

[2] ـ القمر ، آية 26 .

[3] ـ الكشاف، ج4، ص39 .

[4] ـ البقرة ، آية 204 .

اثنين؛يقول :« فإن قلت: Ŷ يتعلق قوله (في الحياة الدنيا) قلـت : بـالقول: أي يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا, لان دعاة المحبة بالباطل يطلب به حظا من حظوŨ الدنيـا و لا يريد به الآخرة كما تراد بالإيمان الحقيقي والمحبة الصادقة للرسـول, فكلامه إذن في الدنيا لا في الآخرة, و ƶوز أن يتعلق بيعجبك : أي قولـه حلـو فصيح في الدنيا فهو يعجبك و لا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الحبسة واللكنة, أو لأنه لا يؤذن له في الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه [1] ». كما هو بين لقد أجهد الزمخشري فكره لا ƶاد علائق معنوية وفقا لȺختيارات السياقية المناسبـة و المتاحة أمامه في تركيب عناصر الجملة .

والأمر نفسه يعالجه الزمخشري في قوله تعالى: اا في **الدنيا و الآخـرة** ا [2] . فيقول:« إما أن يتعلق بتتفكرون فيكون المعنى : لعلكم تتفكرون فيمـا يتعلـق بالدارين فتأخذون بما هو أصل لكم... أو تتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاƵـا وأكثرƵا منافع, و ƶوز أن يكون إشارة إلى قوله ـ وإƢهما أكبر من نفعهمـا ـ لتتفكروا في عقاب الإŹ في الآخرة و النفع في الدنيا ... و إما أن يتعلق بيبين على معنى : يبين لكم الآيات في أمر الدارين و فيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون [3] »

و أوجه الاختيار هذه ƶسدها أيضا الزمخشري في قوله تعالى: اا **ود كثير مـن أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم** ا [4] . فيقول متسائلا و مجيبا في الوقت نفسه:« فإن قلت: Ŷ تعلق قوله : (مـن عنـد أنفسهم)؟ قلت: فيه وجهان : أحدƵا أن يتعلق بود على أĔم تمنوا أن ترتدوا عـن دينكم و تمنيهم ذلك من عند أنفسهم ومن قبل شهوēم لا من قبل التدين والميل مع

---

1 ـ الكشاف ، ج1 ، ص392 .
2 ـ البقرة ، آية 220 .
3 ـ الكشاف ، ج1 ، ص360 .
4 ـ البقرة ، آية 109 .

الحق, لأنهم وجدوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق فكيف يكون تمنيهم من قبل الحق, و إما أن يتعلق بالحسد مبالغا منبثا من أصل أنفسهم [1] ».

تعد طريقة إختيار العلائق هذه سهلة المنال لأن لها روابط لفظية يمكن إيصال بعض أجزاء الجملة بها, و الحصول على المعنى المرتبط بها, و لكن قد يستعصي هذا الاختيار أحيانا, فيصير عند الزمخشري من (من المضايق) لأنه يجد حواجز تعبيرية داخل السياق تمنع عملية السبك الظاهري, فيضطر إلى إيجاد حلول تحريكية أخرى عن طريق التأويل مثلا, و لعل هذا ما نتبينه في محاولته إيجاد علائق سياقية تربط لفظتي (رسولا و مصدقا) - في قوله تعالى: **« و رسولا إلى بني إسرائيل ..... ومصدقا لما بين يدي من التوراة »** [2] - بالمعنى العام ضمن نظام الجمل المتعلقة بها, فيقول:« فإن قلت : علام تحمل ورسولا ومصدقا من المنصوبات المتقدمة وقوله بأني قد جئتكم و لما بين يدي يأبى حمله عليها ؟ قلت: هو من المضايق و فيه وجهان: أحدهما: أن يضمر له و أرسلت على إرادة القول تقديره ونعلمه الكتاب والحكمة, ويقول : أرسلت رسولا بأني قد جئتكم و مصدقا لما بين يدي. و الثاني أن الرسول والمصدق فيهما معنى النطق فكأنه قيل: وناطقا بأني قد جئتكم وناطقا بأني أصدق لما بين يدي [3]» .

بهذه الكيفية وغيرها يلتمس الزمخشري خيارات للمعاني عن طريق حمل الكلام وتحريكه بواسطة العلائق المتاحة أمامه في السياق أو خارجه عن مجرى التأويل, ولعله ينطلق في ذلك من أن عناصر الجمل القرآنية محكومة النظم متقنة السبك لا يوجد شارد منها عن سابقه ولا حقه ولا مبرر أسلوبي يربطه بما سواه لفظا و معنى.

لا ندعي - إن إكتفينا بهذه الأمثلة - بأننا قد أتينا على كل ما تطرق إليه الزمخشري من أساليب تعبيرية كان مبدأ الاختيار فيها للمعاني وفقا للروابط السياقية

---

1 - الكشاف ، ج1 ، ص304 .
2 - آل عمران ، آية 49 ، 50 .
3 - الكشاف ، ج1 ، ص431 .

المختلفة, و لكن نقول إننا قد وضعنا القاريء أمام عينات قليلة توضح طريقة مـن طرق الزمخشري في قراءة النص قراءة بنائية تنطلق في صريح المعنى من السيـاق وتعود إليه .

بهذا القدر تكون قد أوجزنا حديثنا حول المستوى الاختياري بمبحثيه (القـراءة وحمل الكلام و صرفه) لننقل الحديث إلى المستوى الثالث والأخير من هذا الفصل و الممثل في العنوان الآتي :

المبحث الثالث : المستوى الانزياحي :

لم يرد هذا المصطلح (الانزياح) بهذا اللفظ عند الزمخشري في كشافه, ولا حـتى في الدراسات العربية القديمة والحديثة منها، قبل أن يرد مترجمـا عـن المصـطلح الفرنسي (ECART) . هذا المصطلح نظنه يحتوي عدة مصطلحات قديمة وحديثة عربية وغربية؛ ففي المصنفات العربية القديمة نجد اللغويين و النحـاة يسـتعملون مصطلحات تضاهي هذا المصطلح في بعض أوجهه, و لعل من أبرزهـا مصـطلح الإتساع أو التوسع الذي أفرد له سيبويه بابا مستقلا أسماه« باب في إستعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعه في الكلام و الإيجاز و الاختصار » [1]

إذا كان الاتساع في منظور سيبويه يتمثل في توظيف الفعل بلفظة لا في معنـاه نزولا عند الإيجاز و الإختصار, فإنه عند إبن جني يرتبط بمصطلح آخر هو العدول الذي يوظفه ليكون الإتساع نتيجة من نتائجه إذ يقول :« و إنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة بمعاني ثلاثة وهي: الإتساع والتوكيد والتشبيه[2] ». ويفرد إبـن جني بابا لكل هذه الألوان الخارجة عن المألوف و يطلق عليه (بـاب في شـجاعة العربية) إذ يوجزه في قوله:« إعلم أن معظم ذلك إنما هو الحـذف والزيـادة والتقديم و التأخير و الحمل على المعنى و التحريف [3] ».

---

1 ـ سيبويه ، الكتاب ، تحقيق: عبد السلام هارون ، دار القلم ، 1966م ، د ط، ج1 ، ص211 .

2 ـ ابن جني ، الخصائص ، المرجع السابق، ج2 ، ص442 .

3 ـ المرجع نفسه ، ص360 .

و لا نبالغ إذا اعتبرنا أن هذه المعالم هي اللبنات الأساسية في الدراسات الأسلوبية الحديثة المبنية على إنزياحية التراكيب، و هذا ما سيكون حديثنا عنه في هذا المستوى الإنزياحي عند الزمخشري، الذي لم يخرج في تتبعه لهذه الانزياحات عن جوانب النظم التي حدد معالمها عبد القاهر الجرجاني, هذا الأخير الذي نظر إلى الإتساع من جانبه الفني في توظيف اللفظ إذ يقول :« و اللفظ يطلق و المراد به غير ظاهره, و اعلم أن لهذا الضرب إتساعا و تفننا لا إلى غاية إلا أنه على إتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين الكناية و المجاز [1] ». و نجده في سياق آخر – و هو يتكلم عن علاقة الألفاظ بالمعاني – يشير إلى العدول و المجاز و الإتساع في تذليل صعوبة الربط بين دلالة الألفاظ و صياغتها المبنية على السجع و بين المعاني المراد الوصول إليها فيقول :« فصعوبة ما صعب من السجع هي صعوبة عرضت في المعاني من أجل الألفاظ, و ذلك أنه صعب عليك أن توفق بين معاني تلك الألفاظ المسجعة و بين معاني الفصول التي جعلت أردافا لها, و لم تستطع ذلك إلا بعد أن عدلت عن أسلوب إلى أسلوب أو دخلت في ضرب من المجاز أو أخذت في نوع من الإتساع [2] ».

وإذا إنتقلنا إلى الدراسات الغربية الحديثة و بحثنا عن المصطلحات التي تبنت خاصية الخروج عن المألوف, فإننا نجدها كثيرة و متنوعة الدلالات الفرعية الخاصة بكل مصطلح على حده, ولعل من أشهر هذه المصطلحات – إلى جانب الإنزياح لفاليري – نذكر التجاوز (L'ABUS) للكاتب نفسه, و الإنحراف (LADEVIATION) لسبيتزر, والمخالفة (L'INFRACTION) لتيري, والإنتهاك (LE VIOL) لكوهن, وخرق السنن (LA VIOLATION DES NORMES) لتودوروف, واللحن (L'INCORRECTION) للكاتب نفسه [3]. إلى غير ذلك من المصطلحات

1 – عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، المرجع السابق، ص52 .
2 – المرجع نفسه ، ص53 .
3 – ينظر ، عبد السلام المسدي ، الأسلوبية و الأسلوب ، المرجع السابق، ص100 .101 .

التي عددها المسدي والتي تصب في معين واحد هو الخروج عن المألوف في بنـاء الأسلوب مع خصوصية كل مصطلح. إلا أن الشائع في الإستعمال هو مصـطلح الإنزياح بالرغم من كون بعض الدارسين العرب [1] فضلوا مصطلح العدول المقابل للإنزياح, و ذلك إنحيازا منهم إلى التراث العربي الذي وصف هذا المصطلح .

و نحن إذ نتبنى هذا المصطلح (الإنزياح) في الدراسة لأننا نـراه مناسـبا لجـل المصطلحات الأخرى بما فيها العدول و الإتساع و الأنحراف لأنه :« يمتاز عـن ذلك بأن دلالته - إذ يرد في كتب الأسلوبية - منحصرة تقريبا في معـنى فـني. وهذا يعني أن المصطلح لا يحمل لبسا من أي نوع كان. فهو لا يحمل ما يحملـه (الإنحراف) من بعد أخلاقي سيء يجعل المرء غير مطمئن إليه [2] ».

كما أنه يحمل دلالات إيحائية تنطبق مع ما تقوم به الدراسة الأسلوبية في تـوخي مستويات الخروج عن النمط المعياي للغة .

و الخروج عن النمط المألوف مجال عام يؤديه معنى الإنزياح« بإعتباره قضـية أساسية في تشكيل جماليات النصوص الأدبية [3] ». و لهذا المصطلح (الأنزياح) في تعلقه بالأسلوب تعريفات مختلفة لا نريد الخوض في سردها لأنها في الأخير تلتقي في كونه خروجا عن الأنماط التعبيرية المتواضع عليها في قواعد اللغة و اللجـوء إلى الصيغ النادرة [4]. و يقاس الخروج عن قواعد اللغة على« أساس المعيار النحوي - (الذي هو على العموم اللغة المعيار standare أو اليومية) - « نحـوا ثانويـا »مكونا من صور الإنزياح. و يمكن أن تكون هذه الصور من طبيعـتين : فهـو خرق للمعيار النحوي من جهة, و تقييد (أو تضييق) لهذا المعيار بالإستعانة بقواعد إضافية من جهة ثانية [1] ».

---

1 - تبناه كل من المسدي و تمام حسان .

2 - أحمد محمد ويس ، الإنزياح و تعدد المصطلح ، مجلة الفكر ، م25 ، عدد3 ، يناير مارس 1997م ، ص67 .

3 - نور الدين السد ، الأسلوبية و تحليل الخطاب ، المرجع السابق، ج1 ، ص179 .

4 - ينظر ، المرجع نفسه ص181 .

1 - هنريش بليث ، البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق، ص57 .

و إذا استرسلنا في عرض تعريفات الإنزياح – من منظور الدارسين الغربيين و العرب القدماء و المحدثين – لطال بنا الحديث و تشعب إلى شعب كثيرة، لأن مفهوم الإنزياح و العناصر الداخلة تحت لوائه تتسع بتوسع إدراكنا له, و يكفينا القول : إن لكل شكل من أشكال التعبير – من حيث المبنى و المعنى – إنزياحات عن الأنماط المألوفة يمكن أن يحدثها منشيء الخطاب تحت مبرر من المبررات الأسلوبية. و مهمة دارس الأسلوب أو الأسلوبي هي الكشف عن هذه الإنزياحات و تبرير تواجدها لتستقيم العملية التواصلية بين الباث و المتلقي .

و عليه نقول : إن الإنزياح الذي نريد الحديث عنه في هذا المبحث من هذا الفصل هو الإنزياح الواقع في الأنماط النحوية ضمن مواقعها المعيارية التي استقرت عليها في العرف النحوي, للايث أصبحت معايير قارة يقاس عليها كل خرق أو خروج عن منوالها. و الكلام عن هذه الإنزياحات في هذه الأنماط ينطلق من محصلة قراءة الزمخشري لهذه التعابير في النص القرآني .

من خلال ما تجمع لدينا من هذه التعبيرات الإنزياحية ارتأينا أن نصنفها إلى ثلاثة أنواع هي : الإنزياحات المألوفة و المتميزة و المتفردة .

أولا: الإنزياحات المألوفة :

و يراد بها تلك التجاوزات المقبولة في إطار القوانين و المعايير التي تضبط خروجها عن هذه الأطر المعيارية التي أقرها الوضع بعد الدراسة الدقيقة والمستفيضة لتراكيب اللغة و تعابيرها. و هذه التجاوزات التي تحدث لا يعرفها إلا العارفون بالمعايير التي تتحكم في نظم الكلام و ضبطه .

و الزمخشري يعد من بين هؤلاء العارفين بهذه المعايير, و لذا نجده – و هو يدرس النص القرآني – يقف عند هذه التجاوزات واصفا إياها و مبررا تواجدها في الحالة التي هي عليها في التعبير القرآني. و لعل من بين الإنزياحات التي أشار إليها الزمخشري ما يلي :

1 ـ انزياحية الƎ :

و تتمثل إنزياحته في كونه : إما مقدما على المبتدأ أو محذوفا, و الزمخشري عندما يرصد ظاهرة إنزياحية الخبر في تقدمه على المبتدأ فإنه يحاول أن يبرر هذا الإنزياح بالتماس مسوغ أسلوبي ؛ فمثلا إذا أخذنا قوله تعالى: **﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾** [1] نجد الزمخشري يبحث متسائلا عن سر هذا التقديم الموجود في خبر (إن) فيقول:« فإن قلت: ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها ؟ قلت : القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم استتباع رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم لآرائهم فوجب تقديمه لانصباب الغرض عليه ... » [2] .

قد لا يكون التقديم للخبر بنفس الغرض و بنفس العلة لأنه في تعبير آخر من قوله تعالى: **﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾** [3] يرى الزمخشري أن التقديم هنا يعود للعناية بالخبر المقدم فيقول :« فإن قلت : كيف جعل (خير من إستأجرت) اسما لأن و (القوي الأمين) خبرا ؟ قلت هو مثل قوله :

ألا إن خير الناس حيا و هالكا * أسير ثقيف عندهم في السلاسل

في أن العناية هي سبب التقديم [4] ». و يريد الزمخشري من وراء تبرير تقديم الخبر عن طريق الإستشهاد بالبيت الشعري أن يؤكد تواجد هذه الظاهرة عند العرب في تقديم الشيء لكونه محل عناية و إهتمام .

و يلتمس الزمخشري في تقديم الخبر ـ في تعبير آخر من قوله تعالى: **﴿ و ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾** [5] ـ مبررا معنويا آخر دقيقا فيقول:« فإن قلت: أي فرق بين قولك (و ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم و بين النظم

---

1 ـ الحجرات ، آية 07 .

2 ـ الكشاف ، ج3 ، ص561 .

3 ـ القصص ، آية 26 .

4 ـ الكشاف ، ج3 ، ص172 .

5 ـ الحشر ، آية 02 .

الذي جاءت عليه ý قلت : في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم للاصانتها و منعها إياهم » [(1)].

ومن إنزياحات الخبرالمألوفة ـ إلى جانب التقديم ـ الحذف, هذه الظاهرة تتبعها الزمخشري في الخطاب القرآني, و حاول أن يبرر بعضا منها سواء عن طريق التقدير, أو التقدير و التعليل معا, فمن الأول نأخذ قوله تعالى: ﴿ **قيل يانوdz اLبطÙ بسyY منا و بركات عليكÕ و علىَ أمم ممن معكÕ و أمم سنمتعهمè ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ [(2)] ـ يفصل الزمخشري إعرابيا تركيب الجملة القرآنية فيبحث عن المبتدأ و الخبر, فيقول:« ... و (أمم) رفع بالإبتداء (و سنمتعهم) صفة و الخبر محذوف تقديره (و ممن معك أمم سنمتعهم), إنما حذف لأن قوله ـ ممن معك ـ يدل عليه [(3)] ». فحذف الخبر هنا ـ كما قال الزمخشري ـ مبرر سياقيا داخليا وهو (الحذف) مألوف في كلام العرب, شائع في أساليبهم, حيث يكثر لدواعي عدة منها :« إذا كانت الجملة محذوفة الخبر معطوفة على جملة اسمية أو معطوفا عليها جملة اسمية، و المبتدآن مشتركان في الحكم ... [(4)] », أو« ... إذا جاءت الجملة التي يرد فيها الحذف جوابا عن استفهام علم منه الخبر »[(5)], أو إذا كان في الجملة الواقعة بعد« إذا »الفجائية, و كان الخبر يدل على المعنى العام الذي يفهم من السياق [(6)]. و من الدواعي البارزة في حذف الخبر هو« الاحتراز من العبث بعدم ذكر ما لا ضرورة لذكره [(7)] ». فهذه الدواعي و ما ذكره الزمخشري تعد من المسوغات المألوفة في إنزياحية الخبر عن طريق الحذف المشروط بعدم إحداث ابام في المعنى وغموضه .

---

[1] ـ الكشاف ، ج4 ، ص80 .

[2] ـ هود ، آية 48 .

[3] ـ الكشاف ، ج2 ، ص274 .

[4] ـ عبد العزيز عتيق ، علم المعاني ، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ، 1405هـ ، 1985م ، ص128 .

[5] ـ المرجع نفسه .

[6] ـ ينظر ، المرجع نفسه .

[7] ـ المرجع نفسه .

ويمكن أن نقيس جميع الأنماط التعبيرية الوارد فيها إنزياح الخبر ـ عن طريق الحذف ـ في الجمل القرآنية التي أشار إليها الزمخشري في سياق حديثة، عن التغيير الواقع في نظم هذه الجمل،على ما سبق توضيحه من أمثلة .

ومن حركية التغيير الأخرى في عناصر الجملة ـ إلى جانب إنزياحية الخبر بنوعيه التقديم و الحذف ـ نجد التغيير الذي يتعلق بالظرف، و الذي سنتعرف على بعض أحواله ضمن العنصر الموالي .

2 ـ انزياحية الظرف :

يعالج الزمخشري هذه الظاهرة من خلال حركتين إثنتين هما :(الاتساع) و(التقديم)

2 .أ ـ الاتساع

ينطلق الزمخشري في إصدار هذا المصطلح من قوله تعالى: ﴿ **ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾ [1] ، فبعد أن يجوز الفصل بين (لولا) و جملة (قلتم)، يلتمس مبررات لإنزياحية الظروف في عمومها, فيقول:« ... للظروف شأن و هو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها و أنها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها [2] ». و معنى هذا أن الظروف يمكن أن تعدد إنزياحاتها و تتنوع بحسب علاقتها بما يلابسها داخل السياق؛ و لهذا نجد الزمخشري يشير إلى بعض منها في مثل صيغة (مبينات) التي هي في الأصل (مبينا فيها) على حد قول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات** ﴾ [3] إذ يجوز ذلك بقوله:« و يجوز أن يكون الأصل مبينا فيها فاتسع في الظرف » [1] . و الإنزياح نفسه يشير إليه الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ **وذلك يوم مشهود** ﴾ [2] حيث يكون الأصل (مشهود فيه) لكن

---

[1] ـ النور ، آية 16 .
[2] ـ الكشاف ، ج3 ، ص54 ، 55 .
[3] ـ النور ، آية 34 .
[1] ـ الكشاف ، ج3 ، ص67 .
[2] ـ هود ، آية 13 .

إتسع « في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به[3] » والوضع الإنزياحي نفسه ينطبق على قوله تعالى: ﴿ ذلك وعد غير مكذوب ﴾[4] . فالأصل كما قال الزمخشري (غير مكذوب فيه) فاتسع في الظرف بالحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به »[5].

ويخص الزمخشري من الظروف ظرف الزمان إذ ينعته بخصوصية التوسع أكثر من غيره من الظروف ـ وذلك عندما يقف أمام وقوع الأداتين (إذ وإذا) الملازمـتين للظرفية مضافا إليها ـ يبين ذلك في قوله تعالى: ﴿ بعد إذ جاءكم بـل كنـتم مجرمين ﴾[6] فيقول:« ... قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره »[7].

بهذه الطريقة يتعامل الزمخشري مع الظروف في حركية إنزياحيتها فيبين التغـيير الذي حدث في تركيبها داخل نظام الجملة, و يبرره بالتوسع الذي يجوز في مثـل هذه الحالات الخاصة بالظروف. كما أنه لا يكتفي بهذه الحركية إذ يشير إلى التغيير الثاني الذي يطرأ على هذه الظروف؛ بحيث تترك وضعها الطبيعي في الجملة لتتقدم عما سبقها من عناصر, و هذا ما نحاول التطرق إليه من خلال العنصر الموالي :

2.ب ـ التقديم :

يمثل التقديم مجالا من مجالات إنزياحية الظروف ـ إلى جانب التوسع ـ و هو ما يشير إ ليه الزمخشري في كثير من الأمثلة القرآنية, و يعطـي لـذلك مـبررات أسلوبية عمادها المعنى المراد إيصاله إلى المتلقي, و إذا أردنا أن نعطي أمثلة توضيحية لذلك نأخذ التقديم الوارد في قوله تعالى: ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾[1]. فيبحث الزمخشري عن فائدة التقديم الذي وقع للظـرف في

---

3 ـ الكشاف ، ج2 ، ص292 .
4 ـ هود ، آية 65 .
5 ـ الكشاف ، ج2 ، ص279 .
6 ـ سبأ ، آية 32 .
7 ـ الكشاف ، ج3 ، ص291 .
1 ـ النور ، آية 16 .

هذه الجملة فيقول :« فإن قلت : فأي فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا؟ قلت : الفائدة في بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك من التكلم به, فلما كان ذكر الوقت أهم : وجب التقديم (2) ». فالتقـديم الواقـع للظرف ـ كما قال الزمخشري ـ كان نتاجا لسياق الموقف الذي حـدث بعـد واقعة الإفك, مما أوجب التقديم للزمنية التي تعلقت مع زمن وقوع الحادثة .

و من المبررات الأسلوبية ـ التي تخول للظرف أن يتقدم في تركيب الجملة على بعض عناصرها ـ معاني الاختصاص؛ و يبرز الزمخشري هذه المعاني في مثل قولـه تعالى: ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ (3) فيقول:« تقديم الظـرف يـدل علـى الاختصاص، يعني لا يتيسر ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن » (4).

والمسوغ نفسه يلتمسه الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ (5). إذ يعلل التقديم الحاصل للظرفين في هذا التعبير القرآني فيقول:« ... قدم الظرفان ليدل بتقدمهما على معنى اختصاص الملك و الحمد بالله عز و جل, و ذلـك لأن الملك على الحقيقة له لأنه مبديء كل شيء و مبدعه و القائم و المهيمن عليه (6) »

بهذا القدر من الأمثلة نكون قد بينا طريقة الزمخشري في تتبع ظاهرة الإنزياح التي تحدث للظرف داخل نظام الجملة, و ننقل الحديث الآن لتتبع إنزياحـات أخـرى لعناصر أخرى من العناصر المكونة للجملة, نبدأ بالإنزياحية الموالية :

---

2 ـ الكشاف ، ج3 ، ص55 .
3 ـ ق ، آية 44 .
4 ـ الكشاف ، ج4 ، ص12 .
5 ـ التغابن ، آية 01 .
6 ـ الكشاف ، ج4 ، ص112 .

3 ـ انزياحية المفاعيل :

يرصد الزمخشري ظاهرة إنزياحية المفاعيل في حركيتين اثنتيـن هـما: التقـديم والحذف .

3. أ ـ التقديم :

يتعقب الزمخشري ظاهرة تقديم المفاعيل في الجمل القرآنية و يلتمس لها مبررات أسلوبية يمكن إجمالها في مسوغات ثلاثة ـ و هي (الاختصـاص و السيـاق, و الأهمية) .

فإذا أخذنا مسوغات تقديم المفعولات للاختصاص نجدها تـبرز بقـوة عنـد الزمخشري و هو يعالج قوله تعالى: ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ [1] فيقول ـ معترفا بجواز هذا التقديم في عدة جمل قرآنية ـ «تنظر إلى ربها خاصـة لا تنظر إلى غيره. و هذا معنى تقديم المفعول؛ ألا ترى إلى قوله: (إلى ربك يومئـذ المستقر ـ إلى ربك يومئذ المساق ـ إلى الله تصير الأمور ـ و إلـى الله المصيـر ـ و إليه ترجعون ـ عليه توكلت و إليه أنيب) دل فيها التقـديم علـى معـنى الإختصاص [2] ». و يعد كلام الزمخشري هذا في منظور الدارسين الأسـلوبيين خطوة سليمة في تقصي الظاهرة الأسلوبية و تعليلها تعليلا أسلوبيا .

و من أمثلة تقديم المفاعيل للاختصاص ندرج قوله تعالى: ﴿ **وأنفسهم كـانوا يظلمون** ﴾ [3] فيقول الزمخشري مبررا هذا التقديم :« و تقـديم المفعـول بـه للاختصاص كأنه قيل : و خصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدها إلى غيرها [4] ».

و يتعدى الزمخشري في إبراز تقديم المفعول على غيره من العناصر الأخرى لأجل الإختصاص إلى إظهار تقديم المفعول على نظيره لأجل السياق, و يشير إلى هـذه

---

1 ـ القيامة ، آية 22 ، 23 .
2 ـ الكشاف ، ج4 ، ص192 .
3 ـ الأعراف ، آية 177 .
4 ـ الكشاف ، ج2 ، ص131 .

الحالة في قوله تعالى: ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾[1]. فيقول متسائلا عن سبب تقديم مفعول على آخر:« فإن قلت: هلا قيل مخلف رسله وعده و لم قدم المفعول الثاني على الأول ؟ »[2], ثم يجيب مبررا هذا التقديم نزولا عند المعنى الخاضع للسياق فيقول :« قلت : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله ـ إن الله لا يخلف الميعاد ـ ثم قال (رسله) ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه إخلاف المواعيد, كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته[3] » .

و لم يفت الزمخشري أن يبرز تقديما آخر للمفعول, و لكن هذه المرة لمبرر آخر وهو أهمية المقدم من المفاعيل, ففي قوله تعالى: ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾[4], يقول الزمخشري:« وقدم المفعول الذي هو (غير دين الله) على فعله لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل[5] ».

تلك بعض أمثلة إنزياحية المفاعيل عن طريق التقديم بمبرراتها الأسلوبية؛ (الإختصاص و السياق, و الأهمية). و نتحول الآن في الحديث إلى تناول النوع الثاني من الإنزياح و المتمثل في ما يلي :

3. الحذف :

يشير الزمخشري إلى ظاهرة إنزياح المفاعيل عن طريق الحذف في قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم و أبصارهم ﴾[6] إذ يربط حذف مفعول (شاء) بدلالة الجواب عليه فيقول:« و مفعول شاء محذوف لأن الجواب يدل عليه[7] », ثم يعقب على خاصية هذا الحذف بقوله :« و لقد تكاثر هذا الحذف في

---

1 ـ إبراهيم ، آية 47 .
2 ـ الكشاف ، ج2 ، ص384 .
3 ـ المصدر نفسه، ص131 .
4 ـ آل عمران ، آية 82 .
5 ـ الكشاف ، ج1 ، ص441 ، 442 .
6 ـ البقرة ، آية 20 .
7 ـ الكشاف ، ج1 ، ص221 .

(شاء), وأراد لا يكادون يبرزون المعمول إلا في الشيء المستغرب، كنحو قوله: (فلو شئت أن أبكي دما لبكيته) و قوله تعالى: **﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ﴾** (لو أراد الله أن يتخذ ولدا) ... »[1]. إذا تكرار حـذف مفعـول (شاء) شكل للزمخشري سمة بارزة في الأسلوب و بخاصة في القرآن الكريم. و الذي نجده أحيانا يطلق عليه مصطلح الترك؛ ففي حذف المفعول في قوله تعالى: **﴿ فـلا تجعلوا لله أندادا و أنتم تعلمون ﴾**[2] يقول:« ... و مفعول تعلمون متـروك , كأنه قيل : و أنتم من أهل العلم و المعرفة و التوبيخ فيه آكـد »[3] . فـالتوبيخ المؤكد في هذا الحذف يكفي أن يكون بمثابة مبرر أسلوبي في هذه الجملة القرآنية .

نكتفي بهذا القدر من أمثلة إنزياح المفاعيل عن طريق التقديم و الحذف و لنفسح المجال لإنزياحات أخرى في مثل الإنزياحية الآتية :

4 ـ الانزياحية الجمع و الأفراد :

لقد شكلت ظاهرة المفارقات بين الجمع و الإفراد سمة أسلوبية عالجها الزمخشري في كثير من التعابير القرآنية، و حاول جاهدا أن يجد لها مبررات من داخل النـص و خارجه, ففي قوله تعالى: **﴿ و ما من دابة في الأرض و لا طائر يطير بجناحيـه إلا أمم أمثالكم ﴾**[4]. يحاول التوفيق بين ما جاء مفردا في بداية الآية و بين صيغة الجمع التي وردت في تبيان حقيقة ما أفرد سابقا (دابة + طائرة = أمم) فيقول مبررا هذه المفارقة في الجمع :« فإن قلتَ : كيف قيل : الأمم مع إفراد الدابة و الطائر؟ قلتُ : لما كان قوله تعالى ـ و ما من دابة في الأرض و لا طائر ـ علـى معـنى الاستغراق و مغنيا على أن يقال : و ما من دواب و لا طير, حمل قوله (إلا أمـم) على المعنى[1] » إذا كان الحمل على المعنى هو المسوغ في جمع ما هو مفرد, فمـا

---

[1] ـ الكشاف، ج1 ، ص .221.
[2] ـ البقرة، آية 22 .
[3] ـ الكشاف ، ج1 ، ص237 ، 238 .
[4] ـ الأنعام ، آية 38 .
[1] ـ الكشاف ، ج2 ، ص17 .

هو مسوّغ جمع المفرد في (الشيطان) و (إخوانهم) من قوله تعالى: ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، و إخوانهم يمدونهم في الغي ﴾ (2). يُرجع الزمخشري هذه المفارقة في جمع المفرد في هذا التعبير القرآني إلى عموم المعنى في إرادة الجنس فيقول:« فإن قلتَ :لِمَ جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟ قلتُ : المراد به الجنس كقوله (أولياؤهم الطاغوت) (3) ».
ويلتمس المسوّغ نفسه في إفراد لفظة (النور) مع جمع لفظة (الظلمات) في قوله تعالى: ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات و الأرض و جعل الظلمات و النور ﴾ (4) فيقول متسائلا و مجيبا :« فإن قلت: لم أفرد النور؟ قلتُ: للقصد إلى الجنس, كقوله تعالى - و الملك على أرجائها - أو لأن الظلمات كثيرة، لأن ما من جنس من أجناس الأجرام إلا و له ظل و ظله هوالظلمة, بخلاف النور فإنه من جنس واحد و هو النار (5) ».

وعندما لا يجد الزمخشري مبررا من المعنى أو من عموم الجنس يلتمس مبررا آخر يتعلق بالتوسع في القول الوارد في كلام العرب, أي ينطلق من السياق الخارجي المتمثل في ما أُثِرَ عن العرب في إحلال جمع مكان جمع آخر, و يعده ظاهرة أسلوبية شائعة عندهم. و يبرز هذا عندما يتناول قوله تعالى : ﴿ و المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ (6). فيقول مبررا جمع المميز في هذه الجملة :« فإن قُلتَ : لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الإفراد ؟ قلتُ : يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لإشتراكهما في الجمعية, ألا ترى قوله (بأنفسهن) و ما هي إلا نفوس كثيرة، و لعل القروء كانت أكثر إستعمالا في جمع قرء من الإقراء, فأوثر عليه تنزيلا لقليل الإستعمال منزلة المهمل فيكون

2 - الأعراف، آية 201 .
3 - الكشاف ، ج2 ، ص139 .
4 - الأنعام ، آية 01 .
5 - الكشاف ، ج2 ، ص02 .
6 - البقرة ، آية 228 .

مثل قولهم ثلاثة شسوع [1] ».و بقول (لعل) يوحي الزمخشري بجـواز وجـود إحتمالات أخرى لمسوغات إحلال صيغ الجمع دون الإفراد في هذا التعبير و غيره مما هو شائع الإستعمال في القرآن الكريم, و الذي لم يتناوله الزمخشري في صـفته ظاهرة مميزة و مألوفة في أسلوب الذكر الحكيم .

و من أنماط الإنزياحات المألوفة - إلى جانب ما تقدم - و التي لم يجد الزمخشري صعوبة تذكر في تعليلها و في تعليل إنزياحاتها, نـذكر :« الإضـافة و الشـرط و العطف و النفي و الجر, و الضمائر و نظم الجمل ». و هو في كل هذه الأنماط التعبيرية يتناولها من جانبين, التوسع في الإستعمال و الحـذف في التركيـب [2], و باختصار نقول : إنه كان يبحث في كل تعبيرإما عـن التأويـل أو التقـدير أو التعليل في تجاوز واقع هذه التراكيب في سياقاتها التعبيرية [3].

بهذه الخلاصة الموجزة حول هذه الإنزياحات نكون قد أتينا على بعض ما تناوله الزمخشري من حديث حول النمط الأول من الإنزياحات التي أطلقنا عليها مصطلح (المألوفة) لأنها في نظرنا لم تكن بعيدة المنال من مبرراته و تعليلاته, وعليه ننتقـل إلى تناول النمط الثاني و يتمثل فيما يلي :

ثانيا: الإنزياح المتميز :

لا نعني بهذا التميز الاخـتلاف في الأنمـاط التعبيريـة أو بـالأحرى تغـاير في موضوعات الإنزياح عما سبق في النوع الأول, و إنما نريد به اختلاف طريقـة الزمخشري في معالجة بعض المفارقات التي تحدث بين العناصر المكونة لهذه الأنمـاط

---

1 ـ الكشاف ، ج1 ، ص 366 .

2 ـ الأنماط التعبيرية في قوله تعالى :﴿ و لكن البر من آمن بالله ﴾ ، البقرة آية 177 ﴿ قاب قوسين﴾ النجم آية 09 ـ ﴿ ملك يوم الدين﴾ الفاتحة آية 04 .

3 ـ أقوال الزمخشري فيها بالترتيب ﴿ ...على تأويل حذف المضاف... ﴾ ج1 ، ص330 ، ﴿ فتقديره : فكـان مقـدار مسافة، قربهُ مثل قاب قوسين فحذفت هذه المضافات ﴾ ج4 ـ ص 29 ـ ﴿ ...هي إضافة إسم الفاعل إلى الظرف علـى طريقة الاتساع فجرى مجرى المفعول به ﴾ ج1 ـ ص57 ـ 58 .

التعبيرية في الجمل القرآنية, و قد قمنا بمحورة هذه المفارقات الإنزياحية المتميزة في الإنزياحات الآتية :

1 ـ الإنزياح في المبتدأ :

قد يتأخر المبتدأ عن الخبر و هذا شيء مألوف تقره القاعدة النحوية و تعطي له موجباته الأسلوبية, و الموقع الطبيعي للمبتدأ هو التقدم عن الخبر، و لكنه إذا حدث في تركيب الجملة ما يوجب تأخيره فإنه يخضع لهذا الحكم، و عندما لا يخضع لهذه الشروط فإن الأمر يحتاج إلى تعليل و تفسير خاص متميز، و لعل هذا ما عالجه الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ **وأجل مسمى عنده** ﴾ [1] إذ يبين الخرق الواقع للمبتدأ النكرة فيقول :« فإن قُلتَ : المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفا وجب تأخيره, فَلِمَ جاز تقديمه في قوله : و أجل مسمى عنده؟: قلتُ : لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة . كقوله ـ و لعبد مؤمن خير من مشرك ـ فإن قلت : الكلام السائر أن يقال : عندي ثوب جيد, ولي عبد كيس و ما أشبه ذلك, فما أوجب التقديم؟ قلتَ : أوجبه أن المعنى : و أي أجل مسمى عنده تعظيما لشأن الساعة, فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم [2] ».

نلاحظ من خلال محاولة الزمخشري لتبرير الخروج عن القاعدة النحوية أن الإنزياح في تأخير الخبر النكرة لم يكن مبررا و لا تبريره سهلا حيث إضطر الزمخشري فيه للجوء إلى المعنى لرفع لبس هذا التجاوز في نظم هته الجملة القرآنية .

ومن الإنزياحات المتميزة التي أشار إليها الزمخشري في بعض التعابير القرآنية نورد الآتي :

2 ـ الإنزياح في الضمائر :

كما هو معلوم في ترتيب عناصر الكلام أن الضمائر تتناسب و طبيعة المتكلم أو المخاطب أو الغائب, كما أنها تساير هذه العناصر جمعا وافرادا, وقد لا يحدث

---

[1] ـ الأنعام, آية 02 .

[2] ـ الكشاف ، ج2 ، ص4 . 5 .

هذا في التعبير القرآني للايث يخرق هذه القاعدة، كأن يثني بدل أن يفرد تبعا لسياق الكلام, ولعل هذا ما أشار إليه الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين ءامنـوا **كونوا قوامين بالقسط شهداء لله و لو على أنفسكم أو الوالدين و الأقـربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما** ﴾ [1], اذ يصرح الزمخشري بالمفارقة العدديـة الواقعة في إختلاف الإفراد و التثنية في هذا التعبير القرآني. فيقول :« فإن قُلـتَ : لِمَ ثُني الضمير في أولى بما و كان حقه أن يوحد لأن قوله إن يكن غنيا أو فقـيرا في معنى إن يكن أحد هذين ؟. قلتُ : قد رجع الضمير إلى ما دل عليه قولـه (إن يكن غنيـا أو فقيرا) لا إلى المذكور, فلذلك ثني و لم يفرد و هو جنس الغـني و جنس الفقير, كأنه قيل: فالله أولى بجنسـي الغـني و الفقـير: أي بالأغنيـاء و الفقراء[2] ». نلحظ من محاولة الزمخشري في الربط بين عناصر الجملـة و بـين طبيعة الضمائر الواردة فيها أن تبرير الإنزياح غير مـألوف و لا هـو في متنـاول القاريء العادي, وعليه وجدنا الزمخشري قد بذل جهدا في تبرير هذه المفارقة بين ضمير الإفراد والتثنية فربط ذلك بتقدير المعنى و تأويله .

و يشير الزمخشري إلى إنزياح آخر للضمائر يختلف عما سبق, في قوله تعـالى: ﴿ **و ءاتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئـا مريئا** ﴾ [3] . وإختلافه يكمن في خروج الضمير عن معنـاه الأصلـي إلى معـنى آخـر, أو بتعبير أدق قد حمل معنى إلى جانب وظيفته الأصلية, و في هذا يقـول الزمخشري :« والضمير في (منه) جارٍ مجرى اسم الإشارة كأنه قيل: (عن شـيء من ذلك), كما قال تعالى: ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم بعد ذكر الشهـوات** ﴾ [1] ».

---

[1] ـ النساء ، آية 135 .
[2] ـ الكشاف ، ج1 ، ص570 .
[3] ـ النساء ، آية 04 .
[1] ـ الكشاف ، ج1 ، ص498 .

ولعل بهذين المثالين يكون الإنزياح الوارد فيهما متميزا بصعوبة الوقوف على مبرراته الأسلوبية. و نكون قد إكتفينا بهذا القدر لنتحول إلى إنزياح آخر يتمثل في ما يلي :

3 ـ **الانزياح في الأدوات :**

للأدوات حدود و مجالات تتموقع فيها, و ذلك على الأقل من منظور بعض النحاة أمثال الزمخشري, و لكن عندما تنحرف عن مسارها فإنها تشكل ظاهرة أسلوبية تثير إهتمام القاريء الأسلوبي فيحاول أن يجد لها مبررات مناسبة من داخل السياق أو من خارجه معلوما كان أو محذوفا, و لعل هذا ما حاول الزمخشري القيام به في معالجة الأداتين (إذاً و لو), فالأولى في قوله تعالى: « **وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق** » [(2)] و الثانية في قوله عز وجل : « **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي** » [(3)]. فالمفارقة الواقعة في الآية الأولى كما يراها الزمخشري تتمثل في وقوع الأداة (إذاً) في غير سياقها المعتاد، و من ثمّ جعلت الزمخشري يقر بهذه المفارقة الأسلوبية ثم يبحث لها عن مبررات داخل المعنى السياقي فيقول :« فإن قلتَ : (إذاً) لا تدخل إلا على كلام هو جزاء و جواب, فكيف وقع قوله (لذهب) جزاء و جوابا و لم يتقدمه شرط و لا سؤال سائل ؟، قلتَ: الشرط محذوف تقديره و لو كان معه آلهة, و إنما حذف كدلالة قوله ـ و ما كان معه من إله عليه ـ و هو جواب لمن معه المحاجة من المشركين [(4)] ». هذا هو تعليل الإنزياح الواقع في الآية الأولى و تبريره بوجود الشرط المحذوف. أما الإنزياح البارز في الآية الثانية فيتمثل في تموقع أداة الشرط (لو) في غير موقعها من تركيب عناصر الجملة؛ و يعالج الزمخشري هذه المفارقة الأسلوبية. إذ نجده يتوسع في التماس

---

2 ـ المؤمنون ، آية 91 .
3 ـ الإسراء ، آية 100 .
4 ـ الكشاف ، ج3 ، ص40 ، 41 .

المبررات الإعرابيـة و البيانية فيقول :« ... لو حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بد من فعل بعدها في« لو أنتم تملكون »و تقديره لو تملكون الملكوت فأضمر تلك إضمارا على شريطة التفسير, و أبدل من الضمير المتصل الـذي هـو الواو ضمير منفصل و هو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ. (فأنتم) فاعل الفعل و (تملكون) تفسيره, و هذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب, فأما ما يقتضيه علم البيان فهو (أن أنتم تملكون) فيه دلالة على الإختصـاص و أن النـاس هـم المختصون بالشح المتبادر, و نحوه قول حاتم : لو ذات سـوار لطمـتني. و قـول المتلمس: و لو غير أخواتها أرادوا نقيصتي, و ذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ و الخبر[1] ».

كما هو بين لم يكتف الزمخشري ـ و هو يحاول أن يلتمس مسوغا أسلوبيا لهذا التجوز الذي وقع لأداة (لو) ـ بمبرر واحد, بل إستعان بمسوغين؛ إعرابي و بياني و بنماذج من كلام العرب حتى يستقيم التركيب مع المعنى بين عناصـر الجملـة القرآنية .

و مما يدخل ضمن الإنزياح المتميز لأدوات, إنزياحية أدوات الإستثناء التي قـد تحمل معاني أخرى غير معناها الحقيقي, و هـذا مـا تبينـه الزمخشـري في أداة الإستثنـاء (إلا) في قوله تعالى: ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ﴾ [2] و ذلك بقوله:« ... و الإستثناء بمعنى الإستدراك كأنه قيل بعد أن أمـروا في النـاكثين, ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم و لا يمرروهم مجراهم و لا يجعلوا الـوفي كالغادر[3] ».

و نبقى مع الإنزياحات المتميزة التي ما انفك الزمخشري يبحث عن مسـوغات مناسبة لها في مثل الإنزياحات الواقعة في الإضافة و العطف و الظـرف و الحـال

---

[1] ـ الكشاف ، ج2 ، ص467 ، 468 .
[2] ـ التوبة ، آية 04 .
[3] ـ الكشاف ، ج2 ، ص174 .

والعلامات الإعرابية و كذا علامات التأنيث و التذكير. و سنمثل لهذه الظـواهر الإنزياحية بما يناسبها من نماذج قرآنية بدءًا بما يلي :

4 ـ الإنزياح في الإضافة :

يتعقب الزمخشري هذا النوع من الإنزياح في بعض التعابير القرآنية و يلتمس له مبررات دقيقة لا يقف عليها إلا قارىء متمكن, ففي قول تعالى: **﴿ مالك يـوم الدين ﴾**[1]. يشير إلى إنزياحين متميزين في هذه الإضافة فيقول في الإنزياح الأول: « فإن قُلْتَ : ما هذه الإضافة ؟ قلتُ : هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف علـى طريق الاتساع مُجري مجرى المفعول به كقولهم : يا سارقَ الليلة أهل الـدار[2] ». و يقول في الإنزياح الثاني :« ... فإن قُلْتَ : فإضافة اسم الفاعل إضـافة غـير حقيقية، فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة ؟. قُلتُ : إنما تكون غير حقيقية إذا أُريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال, فكان في تقدير الانفصال كقولك : مالك الساعة أو غدًا, فأما إذا قصد معنى الماضي كقولك : هو مالك عبده أمس, أو زمان مستمر كقولك : زيد مالك العبيد, كانـت الإضـافة حقيقية كقولك : مولى العبيد؛ و هذا هو المعنى في مالك يوم الدين[3] ». إذًا كما هو بيِّن في قول الزمخشري الأول أنه لجأ إلى طريقة الاتساع أو التوسع في القـول لكي يبرر النمط الأول من الإضافة, ثم يضطر في النمط الثاني إلى الغوص في المعاني الدقيقة التي يحملها اسم الفاعل, حيث يفرق بين المعاني التي لا تخول لهذه الإضـافة أن تكون حقيقية و بين المعاني التي تسوغ تلك الإضافة و تقر حقيقتها .

---

1 ـ الفاتحة ، آية 04 .
2 ـ الكشاف ، ج1 ، ص57 .
3 ـ المصدر نفسه ، ص58 .

5 ـ الانزياح في العطف :

يصدر الزمخشري ـ كعادته عندما تعتريه مفارقات أسـلوبية ـ تسـاؤلات ثم يجيب عنها لكي يبرر صحة التعبير الواقعة فيه تلك المفارقات, و التي تبدو للقارئ العادي غير طبيعية من منظور المعايير النحوية التي إنبنت على التعـابير المألوفـة في كلام العرب. و تبرز تساؤلات الزمخشري حول الظواهر المتميزة للعطف في تعبيرين إثنين, الأول في قوله تعالى: ﴿ و أقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ [1] والثاني في قوله عز وجل: ﴿ ثم ءاتينا موسى الكتاب ﴾ [2] , يبين الزمخشري في التعبير الأول أن عطف الجملة فيه لم يكن عطفا عاديا, بل كان متميزا إذ أنها لم تعطف على الفعل الـذي سبقها و لكنها عطفت على المعنى [3]. أما العطف في التعبير الثاني فإن الإشكالية الأسلوبية فيه تكمن في توظيف أداة العطف التي لا تتماشى و الزمن الذي ربطـت به المعنى في الجملتين. فيقول :« فإن قُلْتَ : علام عطف قوله: (ثم آتينا موسـى الكتاب) ؟، قلتُ : (على وصاكُم به)، فإن قلت : كيف صح عطفه عليه بـثم والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل ؟ قلت : هذه التوصية قديمة لم تزل توصاها كـل أمة على لسان نبيهم ... » [4] . يتجلى جهد الزمخشري في بعد المـبرر الـزمني الضارب في القدم، حتى تستقيم وضعية هذه الأداة (ثم)، في نظام سياق الجملـتين المعطوفتين إنطلاقا من دلالة الفعلين الزمنيين في كل منهما .

6 ـ الإنزياح في الظرف و الحال :

يبحث الزمخشري عن المفارقات التي تقع للظروف في تركيبها داخـل الجمـل, و يعطي لذلك تبريرا أسلوبيا و لعل هذا ما جسده في قوله تعالى: ﴿ يسألون أيان

---

[1] ـ الحديد ، آية 18 .
[2] ـ الأنعام ، آية 154 .
[3] ـ يتمثل في قول الزمخشري : «فإن قلت : علام تعطف قوله (و أقرضوا) قلت : على معنى الفعل في المتصـدقين» ، ج4 ، ص65 .
[4] ـ الكشاف ، ج2 ، ص62 .

يوم الدين »[1] حيث يبين الوضعية غير الطبيعية للفظة (أيان) الظرفية فيقول: « فإن قلتَ : كيف وقع أيان ظرفا لليوم, و إنما تقع الأحيان ظروفا للحدثان؟ قلتُ: معناه أيان وقوع يوم الدين[2] ». في هذا التعبير ـ كما قال الزمخشري ـ خرق للقاعدة النحوية التي تضبط وضعية الظروف داخل نظام الجمل, و لكن هذا الخرق إلتمس له هذا الأخير مبررا يمكن أن يكون منقذا في مجالات تعبيرية مختلفة, و هو تأويل المحذوف ليغطي النقص الذي تفرضه القاعدة النحوية .

إذا فالإنزياح هنا متميز، و تميزه قد ظهر في تجاوزه للمعيار النحوي الأسلوبي المألوف، و لعل هذا التميز في توظيف هذا الظرف لا يختلف كثيرا عما سواه في إنزياحة الحال في التعبير القرآني من قوله تعالى: **« كيف تكفرون بالله و كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون »**[3]. يكشف الزمخشري في سياق هذا التعبير عن وقوع الحال من زمنين غير صالحين لهذا الأمر, ثم يجيب مبينا فك هذه الإشكالية الأسلوبية بقوله :« فإن قلتَ : بعض القصة ماضي و بعضها مستقبل, و الماضي و المستقبل كلاهما لا يصح أن يقع حالا حتى يكون فعلا حاضرا وقت وجود ما هو حال عنه, فما الحاضر الواقع حالا ؟ قلتَ: هو العلم بالقصة كأنه قيل: كيف تكفرون و أنتم عالمون بهذه القصة بأولها و آخرها[4] ». فيخرج الزمخشري بقوله هذا (هو العلم بالقصة) عن السياق الداخلي للجملة إلى سياقها الخارجي المبني على تأويل القول: (كيف تكفرون و أنتم عالمون بهذه القصة). يبرر وضعية وقوع الزمن الماضي والمستقبل في صفة الحالية والتي تتجاوزها إلى المضارعة الصالحة لان تكون حالا و هو المخرج الأسلوبي الذي كان خير مسوغ لهذا التعبير الإنزياحي المتميز .

1 ـ الذاريات ، آية 12 .
2 ـ الكشاف ، ج4 ، ص15 .
3 ـ البقرة ، آية 28 .
4 ـ الكشاف ، ج1 ، ص269 .

7 ـ الإنزياح في العلامات الإعرابية :

الإعراب في عرف النحويين نوعان: لفظي و معنوي, فاللفظي هو:« ما جيء به لبيان مقتضى العامل من حركة أو حرف أو سكون أو حذف[1] ». أما المعنوي فهو :« تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلية عليها ... و هو يجري على الاسم بطريق الأصالة لأنه موضوع له, و يجري على الفعل بطريق الحمـل علـى الاسم, و أنواعه أربعة هي : الرفع و النصب و الخفض و الجزم, و كل واحد منها يكون حكما له في الموضع الذي يقتضيه[2] ».

و إذا عكس هذا الاقتضاء بأن أخذت حركة مكان حركة أو مقتضى مكان آخر, فإن الأمر يتحول إلى ظاهرة غريبة عن هذا المعيار المألوف و عليه تحتاج إلى تعليـل أسلوبي حتى ينتظم التركيب و يستقيم المعنى, و من أبرز هذه الظـواهر إنزياحـا في العلامة الإعرابية ما أشار إليه الزمخشري في قوله تعالى: **﴿و قولوا حطة نغفـر لكم خطاياكم ﴾** [3] حيث قال :« و الأصل النصب بمعنى حط عن ذنوبنا حطة, و إنما رفعت لتعطي معنى الثبات[4] ». و الأصل نفسه عُدِل عنه إلى الرفع في لفظة (الحمد) من قوله تعالى: **﴿الحمد لله﴾** [5] ـ على حـد قـول الزمخشـري ـ :« وارتفاع الحمد بالابتداء وخبره الظرف الذي هو الله, و أصـله النصـب.. والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالـة علـى ثبـات المعـنى و استقراره[6] ».

ويبقى العدول ـ من النصب إلى الرفع ـ من أجل الاستقرار و الثبات ميـزة أسلوبية من ميزات كثيرة في التعابير القرآنية في مثل قوله تعالى: **﴿إذ دخلوا عليه**

---

[1] ـ ابن عقيل ، الشرح ، تحقيق : حنا الفاخوري ، دار الجيل بيروت ، 1997م ، ط5 ، ج1 ، ص38 ، 39

[2] ـ المرجع نفسه .

[3] ـ البقرة ، آية 58 .

[4] ـ الكشاف ، ج1 ، ص283 .

[5] ـ الفاتحة ، آية 02 .

[6] ـ الكشاف ، ج1 ، ص47 ، 48 .

فقالوا ȳƔê قال ȳƔêما قوȳ منكرور ﴿ [1]. حيث نجد السلام الثاني مرفوعا بدل أن ينصب, لأن هذا الأخير هو الأصل. و الذي حدث ـ كما قال الزمخشري ـ عُدِل بـ (سلام) من النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات السلام [2].

8 ـ الإنزياǆ في ƔƷمات التأنيث و التǀǾ :

إنه من الطبيعي أن يتطابق في الكلام ما هو مذكر بما يلحقه من ضمائر و أدوات تنعته, و كذا الأمر مع المؤنث, فإذا حدث غير هذا فإن التعبير يخرج عن المألوف, و عليه يحتاج إلى تبرير لهذا الإنزياح, وفقا لما يقتضيه السياق الذي ترد فيه هـذه المفارقات, و من الأنماط التعبيرية التي تدخل في هذا اǑال قوله تعال: ﴿ **قـال يوȤê لأبيه يا أبǨ** ﴿ [3].

حيث يتسائل الزمخشري عن جواز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر (أبتِ) Ż ǻيـب مبررا هذا الجواز بقوله :« فإن قُلتَ : كيف جاز إلحاق تاء التأنيـث بالمـذكرǓ قلتُ: كما جاز نحو قولك حمامة ذكر و شاة ذكـر و رجـل ربعـة و غـلام يفعة[4] ». لم يلجأ الزمخشري في تبرير هذا الإنزياح إلى السياق الداخلي, و لا إلى المعنى, بل نجده يستعين يالقياس الخارجي من الكلام العادي و إن كان هذا القياس يحتاج إلى إجالة نظر, لأن التأنيث في التعبير القرآني يختلـف عنـه في مـا أورده الزمخشري من تعبيرات مركبة من لفظتين الثانية منها تحدد طبيعة الأولى و صـفتها الخاصة بها .

و القياس نفسه يلتمسه الزمخشري مبررا في تذكير المؤنث في قوله تعالى : ﴿ **فلما رأى الǼمȈ بازغة قال ǀǿ ȅر ǀǿ أكƎ** ﴿ [5]. فيقول :« فإن قُلْتَ : ما وجه التذكير في قوله: (هذا ربي) و الإشارة للشمس Ǔ قلتُ : جعل المبتدأ مثل الخـبر

---

1 ـ الداريات ، آية 25 .
2 ـ ينظر، الكشاف ، ج4 ، ص17 .
3 ـ يوسف ، آية 04 .
4 ـ الكشاف ، ج2 ، ص301 .
5 ـ الأنعام ، آية 78 .

لكونهما عبارة عن شيء واحد كقولهم: (ما جاءت حاجتك, و من كانت أمك) و لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : و كان إختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عنه شبهة التأنيث , ألا تراهم قالوا في صفة الله (علام) و لم يقولوا (علامة) و إن كان العلامة أبلغ إحترازا من علامة التأنيث[1] ». و يتخذ الزمخشري ـ كما هو بين في قوله هذا ـ ما ورد في كلام العرب من إنزياحات في تذكير المؤنث، ليبرر مـا جاء نظيرا له في هذا التعبير القرآني الذي يشار فيه إلى المؤنث بما هو مـذكر مـن أسماء الإشارة .

و هذه تعد سمة بارزة في أساليب التعبير القرآني المنزاحة عن معاييرهـا الطبيعيـة في التعبير العادي من كلام العرب .

و عندما يتنوع الإنزياح في علامات التأنيث و التذكير في التعابير القرآنية يلجـأ الزمخشري في تبرير هذه الإنزياحات إلى الحمل على اللفظ مرة و على المعنى مـرة أخرى, و يظهر هذا جليا في قوله تعالى: ((ما تسبق من أمة أجلها)) [2]. يقول الزمخشري:« ... في موضع كتابا, وأنث الأمة أولا ثم ذكرها آخر حملا علـى اللفظ و المعنى[3] ».فالتعبير القرآني جمع ـ كما قال الزمخشري ـ بـين صـفتي التأنيث و التذكير في لفظ واحد هو (الأمة), و المسوغ لهذا لفظي و معنوي .

و من المفارقات الأسلوبية التي تجتمع فيها التأنيث و التـذكير قولـه تعـالى: ((وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا و محرم على أزواجنا)) [4].

فيفك الزمخشري هذه المفارقة بالحمل الأولى على المعنى و حمل الثانية على اللفظ, فيقول:« و أنث (خالصة) للحمل على المعنى, لأن ما في معنى الأجنة, و ذكـر محرم للحمل على اللفظ. و نظيره، و منهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا مـن

---

1 ـ الكشاف ، ج2 ، ص32 .

2 ـ الحجر ، آية 05 .

3 ـ الكشاف ، ج2 ، ص387 .

4 ـ الأنعام ، آية 139 .

عنده ...[1] » . لم يكتف الزمخشري في تبرير هذه المفارقة الإنزياحية بالحمل على المعنى واللفظ, بل نجده يستعمل القياس الأسلوبي بما ورد من تعابير مماثلة في القرآن الكريم .

و تبقى المبررات المعنوية مستنداً يرتكز عليه الزمخشري في تعليل ظاهرة المفارقة ـ في تذكير ما هو مؤنث أو تأنيث ما هو مذكر ـ التي تبدوا في بعض الأساليب القرآنية في مثل قوله تعالى: **« هو الذي خلقكم من نفس واحدة و جعل منها زوجها ليسكن إليها »** [2]. حيث يستحسن الزمخشري هذه المفارقة و يجد لها من المعنى ما يعلل التذكير فيها بعد التأنيث فيقول :« و قال : ليسكن فذكّر بعدما أنث في قوله: (واحدة ـ منها زوجها) ذهابا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم, و لأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى و يتغشاها , فكان التذكير أحسن طباقا للمعنى [3] ».

ولا نناقش الزمخشري في تبريره هذا؛ لأن السكينة أو السكن لا تعني التغشية بالضرورة استئناسا ببقية الآية **« فلما تغشاها حملت حملا خفيفا »** [4]. فهذه الأخيرة كناية عن الجماع, بينما السكينة أو السكن فهي تكون من الذكر و الأنثى فكلاهما يسكن إلى الآخر، إلا أنه يجب أن نُقِرَّ بقدرته على إيجاد مبررات تفسير الظاهرة الأسلوبية مهما كانت درجة مفارقاتها البعيدة داخل نسيج التعبير القرآني .

إذا أردنا أن نكتفي بهذه الأمثلة التوضيحية للنمط الثاني من الإنزياح، و الذي أطلقنا عليه صفة التميز, لننتقل إلى أمثلة النمط الثالث و الأخير من التعابير الواقع فيها الإنزياح. و الذي أطلقنا عليه صفة التفرد .

---

1 ـ الكشاف ، ج2 ، ص55 .
2 ـ الأعراف ، آية 189 .
3 ـ الكشاف ، ج2 ، ص136 .
4 ـ الأعراف ، آية 189 .

ثالثا: الإنزياح المتفرد :

و نريد بصفة التفرد هذه تلك الإنزياحات التي خرقت القاعدة النحوية خرقا أثار إستغراب الزمخشري، و هو يتعرض لها بالسؤال و الجواب باحثا عن مسوغات ورودها في التعبير القرآني, و يمكن التمثيل لهذا النوع من الإنزياح بقوله تعالى: ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ [1], حيث يقف الزمخشري مستغربا من دخول (ربما) على الفعل المضارع خرقا لما أجمع عليه النحاة, و لكنه لا يلبث أن يلتمس لهذا الخرق القاعدي مبررا خارج السياق الداخلي, حيث يعتمد على المنطق العقدي الذي يعترف بقطعية تحقق الأفعال المستقبلية المتعلقة بقدرة الله تعالى في وعده و وعيده [2]. و يبرز أيضا هذا النمط من الإنزياح في تقديم (الظرف اللغو) بدل تأخيره . و يكون واضحا في قوله تعالى: ﴿ و لم يكن له كفوا أحد ﴾ [3]. و ذلك من خلال استغراب الزمخشري لهذا التجاوز القاعدي في قوله :« فإن قُلتَ : الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر و لا يقدم, و قد نص سيبويه على ذلك في كتابه, فما باله مقدما في أفصح كلام و أعربه؟ قلتُ: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباريء سبحانه, وهذا المعنى مصبه ومركزه هو وهذا الظرف, فكان لذلك أهم شيء و أعناه و أحقه بالتقدم وأحراه[4] ». ويستشهد الزمخشري في تبرير هذا الخرق الصريح للقاعدة النحوية على السياق العام الذي يخول فيه تقديم هذا الظرف (اللغو) لأهميته في تأدية المعنى المراد من هذا التعبير القرآني .

---

[1] ـ الحجر ، آية 02 .

[2] ـ يقول الزمخشري «و ربما بالضم و الفتح مع التخفيف . فإن قلتَ :لِمَ دخلت على المضارع و قد أبوا دخولها إلا على الماضي ؟ قلت : لأن المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع في تحققه كأنه قيل : ربما ود...» الكشاف ، ج2 ، ص386 .

[3] ـ الإخلاص ، آية 04 .

[4] ـ الكشاف ، ج4 ، ص298 .

و من أمثلة هذا النمط من الإنزياح, ما أثاره الزمخشري من ظاهرة المطابقة بـين الجملة الفعلية والاسمية ـ مع اختلاف طبيعة مساقهما في التعبير الواردتين فيه ـ ـ في قوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يقول ءامنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾[1]. فيقول مستغربا لهذا الربط و معللا في الوقت نفسه طريقة النظم هذه ـ بل يعتبرها أفضل سبيل للوصول إلى المعنى المنشود ـ « فإن قُلتَ : كيف طابق قوله (و ما هم بمؤمنين) قولهم (آمنا بالله) و الأول في ذكر شأن الفعل لا الفاعـل, والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل ؟ قلتُ : القصد إلى إنكار ما ادعوه و نفْيـه, فسلك في ذلك طريقا أدى إلى الغرض المطلوب, وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره ونحوه قوله تعالى: ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾ وهو أبلغ من قولك يخرجون منها[2] ».

هذه طريقة الزمخشري في تناوله لظاهرة الإنزياحات المتفردة تحليلا و تبريـرا , وبا ننهي حديثنا حول هذا المبحث الإنزياحي بخاصة و الفصل الثاني بعامة, لنفسح المجال للفصل الثالث من هذا البحث و الذي سيكون الكلام فيه حول الجوانـب الدلالية لكل من الحرف و الكلمة و الجملة .

---

[1] ـ البقرة, آية 08 .

[2] ـ الكشاف، ج1، ص169 .

الفصـــل الثـــالث

المقياس الدلالي ومستوياته السياقية

المبحث الأول : مستـــوى دلالـــة الحـــرف

المبحث الثاني : مستـــوى دلالـــة الكلمـــة

المبحث الثالث : مستـــوى دلالـــة الجملـــة

ترتبط لفظة (الدلالة) في بعـض معانيهـا اللغويـة بالإرشـاد و التوجيـه, فيقال:« ... دَلَّه على شيء يدله دلاً و دلالة فاندلّ: سدَّده إليه, ودَلَلْته فاندلّ... و الدليل ما يستدل به, والدليل والدّالُّ, وقد دَلَّه على الطريق, يدُلُّه دلالـة ودِلالـة, ودُلُولة[1] ».

ولكي نربط هذا المعنى اللغوي بالمعنى الإصطلاحي لهذه اللفظة (دلالة) نذهب مع القول الموصل إلى العلاقة الطبيعية بين كل من (الدال والمدلول والدلالة) في الجانب اللساني على اعتبار أن« العلامة اللسانية مقوم مركب من مظهر حسي فيزيائي تدركه العين و يدركه السماع ملفوظ و يسمى الدال (le signifiant) ومظهر مجرد هو المتصور الذهني الذي يدلنا عليه ذلك الدال, و الذي بحصوله نقول إننا فهمنا الدال, و يسمى هذا المظهر المدلول (la signaifie)، أما العمليةالتي يقترن فيها الدال بالمدلول في أذهاننا فهي التي تسمى الدلالة(la signification)[2] » .

إذا كانت العملية التي يقترن فيها الدال بالمدلول في الذهن تسمى (دلالة) فما هو يا ترى دليلها الإصطلاحي؟

ترد الكثير من أقوال الدارسين في محاولة لتحديد ماهية هذا المصطلح (دلالة) فهي عند البعض« عبارة عن شيء، زيادة على كونه حاملا للمعاني, يثير بذاته في الفكر أشياء أخرى[3] ». أو أنها« كيان يمكن أن يصير محسوسا. يشير بذاته بالنسبة لمجموع مستعمليه, إلى أمر غائب[4] ». أو أنها« ثمرة للقرائن المتوفرة في نسيج الخطاب[5] » . و تسمى الدراسة التي تقوم بإبراز هذه الثمرة من خلال هذه القرائن المتوفرة في الخطاب (علم الدلالة) الذي هو كما قيل؛ فرع أو جزء من علم

---

[1] ـ ابن منظور ، اللسان ، مادة (دلل) ، ص 248 ، 249 .

[2] ـ المسدي ، الأسلوب و الأسلوبية ، المرجع السابق، ص 152 ، 153 .

[3] ـ تودوروف ، شاف ، ستروسن ، دوميت ، فرجة ، بيث ، دافدسون ، المرجع و الدلالة في الفكر اللساني الحديث ، ترجمة و تعليق ، عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، بيروت ، لبنان ، 2000 ، (د ط) ، ص 23

[4] ـ المرجع نفسه ، ص24 .

[5] - عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، 1986م ، ط2 ، ص315 .

اللغة أو علم اللسان [1] .

وإذا كانت اللغة هي العامل المشتركة بين علوم اللسان وعلوم الدلالة ـ في جانبها التطبيقي ـ فإنها تتوزع على« مجموعة من الأنظمة, التي تبدأ بالنظام الصوتي بصوامته وصوائته و فونيماته, ومقاطعه, وما يسود فيه من ظواهر النبر والتنغيم وغيرها, وتمر بالكلمات من حيث بناؤها, ومورفيماتها ودلالتها على المعاني المختلفة في أذهان الجماعة اللغوية التي تستخدمها, وتنتهي ببناء الجملة ووظيفة الكلمات في داخل الجمل, و علاقة بعضها ببعض[2] ».

و يبقى الجانب الدلالي موضوعا مشتركا بين هذين العلمين و علم الأسلوب « و قد إحتلت قضية الدلالة اللغوية و ماهيتها و أبعادها النفسية و الإجتماعية جزءاً كبيرا من إهتمامات النقاد الأسلوبيين[3]». و اللغة هذه مستويات أدناها المستوى الصوتي و أقصاها المستوى الدلالي,« و على ذلك فإن الأسلوبية تقارب النص الشعري من أدنى مستوياته, و هو القيم الصوتية مرورا بالصيغ الصرفية و الهياكل النحوية وصولا إلى الدلالات الجزئية ثم المركبة و الكلية[4] ».

و إذا إنتهى بنا الفهم إلى أن الدلالات الجزئية تبدأ من الحروف أو ـ الأصوات في الجانب اللساني ـ ثم تتآلف لتركب الكلمة, ثم تتعانق الكلمات مع بعضها البعض لتتآلف الجمل, ثم تتناسق هذه الجمل فيما بينها لتعطي تركيبا مفهوما يطلق عليه الكلام أو الخطاب أو النص. و هذا الانسجام أو التناسق لا يأتي إلا داخل نظام السياق الذي« يؤدي دوراً فعالاً في تأويل الخطاب, بل كثيراً ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين » [5] . فالسياق إذا ما هو

---

[1] ـ ينظر، بالمر، علم الدلالة، نشر الجامعة المستنصرية ، بغداد ، 1985م ، (د ط) ، ص3 .

[2] ـ رمضان عبد التواب، التطور اللغوي, مظاهره و علله و قوانينه، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، 1417 هـ / 1997م ، ط3 ، ص15 .

[3] - نور الدين السد ، الأسلوبية و تحليل الخطاب ، المرجع السابق، ج1 ، ص89 .

[4] - عدنان حسين قاسم ، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر ، المرجع السابق، ص126 ، 127 .

[5] ـ محمد خطابي ، لسانيات النص ، المركز الثقافي العربي ، 1991م ، ط1 ، ص52 .

« ... إلا تلك العناصر التي تحدد بنية النÕ و تؤدي إلى تفسيره[1] » . و لهذا يلجأ إليه محلل الخطاب لكي:« يحصر مجال التأويلات الممكنة..ويدعم التأويل المقصود[2] ». وإنطلاقا من هذا التصور نقول إن إهتمامنا في هذا الفصل سينصب حول كل من الحرف و الكلمة و الجملة من خلال منظور الزمخشري لهذه العناصر داخل سياق النÕ القرآني في بعض جوانبها الدلالية .

المبحث الأول : مستوى دلالة الحرف .

يعرف الحرف عند الغويين القدماء بأنه« ما دل على معنى في غيره, و من Ż لم ينفك من اسم أو فعل يصحبه, إلا في مواضع مخصوصة حذف فيها الفعل و اقتصر على الحرف فجرى مجرى النائب نحو قولهم نعم بلى ...[3] » , Ż أن الحروف عندهم لا σرج« على ثلاثة أضرب, ضرب لازم للحرفية, و ضرب كائن اسما و حرفا, و ضرب كائن حرفا و فعلا, فالأول تسعة أحرف من و إلى و حتى و في و الباء و اللام و رب و واو القسم و تاؤه, و الثاني Rسة أحرف على و عن و الكاف و مذ و منذ, و الثالث ثلاثة أحرف حاشا و خلا و عدا[4]».

و نحن في هذا المبحث لا نريد أن نتناول جل هذه الحروف, بل نريد التطرق إلى بعض منها و قمنا بالتفريق بينهما من حيث عدد الحروف التي تتركب منها, فأطلقنا على الحرف الواحد صفة الأفراد, و على الحرفين صفة التركيب .

أولا ـ دلالة الحرف المفرد في **الكلمة :**

نعيد القول بأن الحروف لا تؤدي المعنى إلا في إرتباطها مع غيرها, و إن حمل بعضها معاني جزئية شأن الحروف المركبة من حرفين, كما سيأŹ الحديث عن

---

1 ـ صلاح فضل ، بلاغية الخطاب وعلم النÕ ، عالم المعرفة ،1992م ، (د ط) ، ص26 .

2 ـ محمد خطابي ، المرجع السابق مأخوذ من brown G.and george yule.1983. discourse analysis C.V.P London .P37

3 ـ الزمخشري, المفصل في صناعة الإعراب، المرجع السابق، ص283 .

4 ـ المرجع نفسه .

بعض معانيها في حينه. و لا مانع من أن نقر في البدء بأن حديثنا سيقتصر على ما بدا لنا من الحروف يمثل ظاهرة متميزة عند الزمخشري أثناء تناوله لهذه الحروف في النص القرآني، و لعل من أبرز الحروف المفردة التي أثارت اهتمام الزمخشري بأن أعطاها معاني مختلفة في سياقات متنوعة، حرف (اللام) .

1 ـ حرف اللام :

تعرف اللام عموما بأنها« صوت مجهور متوسط, مخرجه من طرف اللسان ملتقيا بأصول الثنايا و الرباعيات قريبا من مخرج النون. و هي من حروف الذلق التي هي أكثر الأصوات دورا في الكلام, و هي كثيرة المعاني ...[1] » .

يتعقب الزمخشري بعض هذه المعاني و الدلالات التي تؤديها اللام داخل نظام الكلمة في سياق الجملة القرآنية؛ و بعد تتبعنا لهذه الدلالات حصرناها في المحاور الآتية :

1.أ ـ الدلالة على الجنس :

لا يقف الزمخشري ـ وهو يتعرض لدخول اللام على لفظة (الصالحات) من قوله تعالى: **﴿ وبشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات ﴾** [2] ـ عند الإشارة إلى كون حرف اللام يدل ـ في ارتباطه بالكلمة ـ على تحديد الجنس، بل يتعدى إلى إقامة المفاضلة بين دخولها على اللفظ الدال على الأفراد و غيره الدال على الجموع؛ ونجده يفصل هذه المفارقة في قوله:« فإن قلت : أي فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد وبينها داخلة على المجموع؟ قلت : إذا دخلت على المفرد كان صالحا لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به, وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه, و إذا دخلت على المجموع صلح أن يراد به جميع الجنس و أن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه, لأن وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية و الجمعية في

---

[1] ـ محمد التونجي+ راجي الأسمر, المعجم المفصل في علوم اللغة، دار الكتب العلمية , بيروت، 2001م , ط1, ج1, ص 487.

[2] ـ البقرة, آية 25 .

جل الجنس لا في وحداته ...[1] » . يعطينا الزمخشري بهذا مقياسا دقيقا نفرق به بين المعاني الجزئية التي يؤديها حرف (اللام) في حالة دخوله على اللفظ المفرد,أو اللفظ الحامل لخاصية الجمع .

1.ب ـ الدلالة على العهد و الجنس :

يجوز الزمخشري دلالة هذين المعنيين و هو يتناول بعض الألفاظ, المعرفة (بأل) في بعض الجمل القرآنية في مثل لفظة (الناس) و (الظالمون)؛ الأول في قوله تعالى: ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس** ﴾[2] . و الثانية في قوله عز وجل: ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت** ﴾[3] .

لم يستند الزمخشري ـ و هو يبحث عن دلالة حرف اللام في هاتين اللفظتين ـ على التركيب الداخلي للجملة, بل استند إلى السياق العام للمعنى الذي يمكن أن يؤول تبعا للمعنيين المألوفين و هما (العهد) و (الجنس). ويقر الزمخشري بجواز هذين المعنيين في النموذج الأول بقوله :« و اللام في (الناس) للعهد : أي كما آمن رسول الله صلى الله عليه و سلم ومن معه, أو أهم ناس معهودون ... أو للجنس: أي كما آمن الكاملون في الإنسانية, أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم في فقدان التمييز بين الحق و الباطل[4] ».

والمعنى نفسه يجوز في النموذج الثاني بقوله « ...(ولو ترى) جوابه محذوف, أي لرأيت أمرا عظيما (إذ الظالمون) يريد الذين ذكرهم من اليهود و المتنبئة, فتكون اللام للعهد. و يجوز أن تكون اللام للجنس فيدخل فيه هؤلاء...[5]» .

[1] ـ الكشاف, ج1, ص255, 256 .
[2] ـ البقرة, آية 13 .
[3] ـ الأنعام, آية 93 .
[4] ـ الكشاف, ج1, ص182 .
[5] ـ الكشاف, ج2, ص36 .

3.1 ـ الدلالة على الإشارة :

إن الدلالة على العهد و الجنس من الدلالات المرتبطة إرتباطا بينا مع حرف اللام, و لكن الدلالة على معنى الإشارة تعد بعيدة المأخذ صعبة المسك, لا يلتمسها إلا قاريء متميز كما هو الشأن بالنسبة للزمخشري الذي نجده يقف عند بعض التعابير ـ أو بالأحرى عند بعض الألفاظ الواردة في سياقات الجمل القرآنية ـ ليستل منها معاني الإشارة, فمثلا نجده في بعض الأحيان يذهب مباشرة إلى القول بدلالة اللام على معنى الإشارة دون اللجوء إلى التأويل أو التدليل على ذلك التخريج, فيقول : في إرتباط اللام بلفظة (الظالمين) من قوله تعالى: ﴿ **وما للظالمين من أنصار** ﴾ [1] ـ « اللام إشارة إلى من يدخل النار و إعلام بأن من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعة و لا غيرها [2] » . و لكنه في أمثلة أخرى يضطر ـ بعد أن يقر بدلالة معنى الإشارة التي تفيدها اللام ـ إلى تبرير ذلك عن طريق المماثلة في القول, و لعل هذا ما يبرز جليا في قوله:« ... و اللام في (السفهاء) [3] مشارا بها إلى الناس, كما تقول لصاحبك إن زيدا قد سعى بك, فيقول : أو قد فعل السفيه؟ ... » [4]. و يبرز هذا المعنى أيضا عن طريق التأويل لأداة الإشارة فيقول :« ... و (اللام) [5] إشارة إليهم كأنه قيل قتل هؤلاء الخراصون » [6]. و يستند مرة أخرى و في مثال آخر على السياق العام للجمل ليبرر معنى الإشارة الذي أقره للحرف اللام في إرتباطه بلفظة (المؤمنون) من قوله تعالى: ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ [7]. فيقول :« ... و اللام في قوله (إنما

---

[1] ـ آل عمران, آية 192 .

[2] ـ الكشاف, ج1, ص489 .

[3] ـ ﴿ قالوا أنؤمن كما ءامن السفهاء ﴾ البقرة, آية 13.

[4] ـ الكشاف, ج1, ص182, 183 .

[5] ـ ﴿ قُتِلَ الخراصون ﴾ الذاريات, آية 10 .

[6] ـ الكشاف, ج4, ص15 .

[7] ـ الأنفال, آية02 .

المؤمنون) إشارة إليهم: أي إنما الكاملوا الإيمان من صفتهم كيت و كيت. و الدليل عليه قوله ـ أولئك هم المؤمنون حقا ـ(1)» .

1.د ـ الدلالة على التوكيد :

يبين الزمخشري هذا المعنى (التوكيد) في بعض الألفاظ التي إقترنت بها الـلام في بعض التعابير القرآنية, و يميز بين نوعين من التراكيب الواردة فيها اللام, فـالنوع الأول تكون فيه زائدة, و هو الشائع في النماذج التي وقف عندها, و أما النـوع الثاني ـ و هو التعليل ـ فإن اللام تكون فيه أصلية في التركيب. و يمكن التمثيل للنوع الأول بلفظة (ليبين) من قوله تعالى: [**يريد الله ليبين لكم**] (2). إذ يـرى الزمخشري بأن هذه اللام زائدة من أجل تأكيد إرادة التبيين,« كما زيـدت في لا أبا لك لتأكيد إضافة الأب(3) ». كما يقر بزيادتها لـنفس الغـرض (التوكيـد) في لفظة (ليطفئوا) من قوله تعالى: **يريدون ليطفئوا نور الله بـأفواههم** (4).

فيقول في ذلك :« أصله يريدون أن يطفئوا, كما جاء في سورة براءة. و كأن هذه اللام زيدت على فعل الإرادة تأكيدا له لما فيها من معنى الإرادة في قولك جئتـك لأكرمك, كما زيدت اللام في لا أبا لك تأكيدا لمعنى الإضافة في لا أبا لك(5) » .

و الزيادة نفسها يوضحها في إقتران اللام بحرف الفاء في قولـه تعـالى: **فـلا و ربك** (6). بحذف اللام و ربط الفاء بالواو فتصير (فوربك) ثم يربطها بتعـبير قرآني شبيه لها, **فوربك لنسألنهم** (7)، ثم يقر بزيادة اللام« لتأكيـد معـنى القسم, كما زيدت في ـ لئلا يعلم ـ لتأكيد وجوب العلم » (1) .

---

1 ـ الكشاف, ج2, ص142 .
2 ـ النساء, آية 26 .
3 ـ الكشاف, ج1, ص581 .
4 ـ الصف, آية 08 .
5 ـ الكشاف, ج4, ص39 .
6 ـ النساء، آية 65 .
7 ـ الحجر, آية 92 .
1 ـ الكشاف, ج1, ص538 .

إن الذي يمكن أن نشير إليه ـ فيما ورد من كلام الزمخشري حول زيادة اللام تدل على معنى التوكيد ـ هو أنه كان يلجأ إلى التعابير المماثلة, سـواء وردت في كلام العرب, أم في كلام الله تعالى, و بعد هذا قياسا معياريا في تتبـع الظـاهرة الأسلوبية، و تبرير تواجدها في الأمثلة التي إستوقفته أثناء عملية التحليل و التعليل .

و عندما لا تكون اللام زائدة فإنه يكتفي بالإشارة إلى كونها وردت للدلالة على التوكيد كما هو الأمر في قوله :« ... **وما كنا لنهتدي** [2] اللام لتوكيـد النفي، يعنون و ما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله و توفيقه[3]».

و من الدلالات ـ غير ما ذكرنا ـ اللام في إقترانها باللفظ, نذكر ما يلي:

1.ب ـ ـ دلالة التعليل :

مما هو ثابت في كتب النحو ـ أن من معاني اللام في بعض سياقاتها التركيبيـة (التعليل) و الزمخشري لم يفته أن يشير إلى هذا المعنى في مواقع دلالتـها السـياقية داخل نظام الجمل, ففي موقع اللام في لفظة (لِنُسْلِمَ) من قوله تعـالى: [**وأمرنا لنسلم لرب العالمين**] [4]. يقول الزمخشري متسائلا عن معـنى الـلام و مجيبـا في الوقت نفسه« فإن قلت : ما معنى اللام في (لِنُسْلِمَ)؟ قلت : هي تعليل الأمـر بمعنى أمرنا [5] ». و لا يكتفي الزمخشري ـ في مثال آخر و في تعبير مختلـف ـ بالإشارة إلى معنى التعليل الذي تحمله اللام في دلالتها السياقية, بل نجده يفرق بين تعليل مجازي و آخر حقيقي, ففي لفظة (ليكون) المتواجدة في التعبير القرآني مـن قوله تعالى: **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا** [6] .

يذهب بعيدا في بسط القول من أجل تبرير المعنى المجازي الذي دلت عليه الـلام فيقول :«اللام في (ليكون) هي لام كي التي معناها التعليل كقولك جئتك لتكرمني

---

2 ـ الأعراف, آية 43 .
3 ـ الكشاف, ج2, ص79 .
4 ـ الأنعام, آية 71 .
5 ـ الكشاف, ج2, ص29 .
6 ـ القصص, آية 08 .

سواء بسواء, و لكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة لأنـه لم يكن داعيهم إلى الإلتقاط أن يكون لهم عدوا و حزنا و لكن المحبة و التبني, غير أن ذلك كان نتيجة إلتقاطهم و صورته شبه بالداعي الذي يفعل الفعل لأجله و هـو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء ... و تحريره أن هذه اللام حكمها حكـم الأسـد حيث إستعيرت لما يشبه التعليل, كما يستعار الأسد لما يشبه الأسد [1] ».

و إذا أردنا أن نتجنب الإضافة في سرد باقي الدلالات, فإنه يمكننا أن نجملها في المبحث الموالي :

1. و ـ دلالة : البيان و الصيرورة و المبالغة و الحقيقة و المجاز :

هذه الدلالات و المعاني رصدها الزمخشري في بعض الألفاظ التي إرتبطت بـها اللام و ذلك من خلال بعض التراكيب التعبيرية القرآنية. فـالمعنى الأول (البيـان) توخاه من إرتباط اللام بالإسم الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿ **هيهات هيهات لما توعدون** ﴾ [2] فبعد أن يستعرض معنى آخر وهو (البعد) الذي أورده على لسان الزجاج يقول:«...وفيه وجه آخر وهو أن يكون اللام لبيان المسـتبعد مـا هـو التصويب لكلمة الإستبعاد كما جاءت اللام في ـ هيت لك ـ لبيـان المهيـت به[3] ». و أما المعنى الثاني (الصيرورة) فإنه قد تعقبه في لفظة (لتصغي) من قولـه تعالى: ﴿ **ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون** ﴾ [4] . حيث يقول:« ... جوابه محذوف تقديره : و ليكون ذلك جعلنا لكل نبي عدوا. على أن اللام لام الصيرورة و تحقيقها ما ذكر[1] ». و أما معنى المبالغة فإنه يتمثل في قوله تعالى: ﴿ **وأنصح لكم** ﴾ [2]. بقوله ـ« ... يقال : نصحته و نصحت له, و في زيادة اللام مبالغة

---

[1] ـ الكشاف, ج3, ص166 .
[2] ـ المؤمنون, آية 36 .
[3] ـ الكشاف, ج3, ص 32 .
[4] ـ الأنعام, آية 113 .
[1] ـ الكشاف, ج2, ص 45 .
[2] ـ الأعراف, آية 62 .

و دلالة على إخلاص النصيحة للمنصوح له مقصودا بـها جانبـه لا غـير» [3] .

و في التفريق بين لامين في لفظتين مختلفتين و في سياق واحد - يشير الزمخشـري إلى وجود اختلاف في دلالتيهما, فالأولى, تحمل المعنى المجازي, والثانية تدل علـى الحقيقة، أما التعبير الذي وردت فيه فهو قوله تعالى: ﴿ **وكذلك نصرف الآيـات وليقولوا درست و لنبينه لقوم يعلمون** ﴾ [4] . يتسائل الزمخشري عـن الفـارق بينهما ثم يجيب بقوله :« الفرق بينهما أن الأول مجازي و الثاني حقيقة [5]».

و في ختام هذه الدلالات و المعاني نقول إن الزمخشري قد تتبع أبنية صرف اللام في مواطن كثيرة للايات لم يكتف بالمعاني الظاهرة بل تجاوزها إلى ما هو خفي عـن القاريء العادي غير المتمكن.

و من حروف المباني التي وقف عندها الزمخشري مبينا دلالاتها و معانيها داخـل سياق الجمل القرآنية نذكر الحرف الموالي :

2 ـ حرف الواو :

يعد الواو من حروف المعاني المفردة الذي هو في بنية الكلمة إما :« ... حرف علة إذا كان متحركا نحو (حَوَر) و حرف علة و مد إذا كان ساكنا و قبله حركة لا تناسبه نحو (قَوْلُ) و حرف علة و مد و لين إذا كان ساكنا و قبله حرف تناسبه نحو (حوُت) [6]».

و أما موقعه في بنية الكلام فيأتي على أشكال و أنواع بلغ عددها خمسة عشر وجها على التفصيل [1], و أحد عشر وجها على الإجمال [2]. أبرزها شيوعا في الكـلام واو العطف و الحال و المعية و الاستئناف و الجمع بين التأكيد والصفات .

---

3 ـ الكشاف, ج2, ص 86 .

4 ـ الأنعام ، آية 105.

5 ـ الكشاف, ج2, ص42 .

6 ـ محمد التونجي + راجي الأسمر, المعجم المفصل في علوم اللغة, المرجع السابق، ج2, ص673 .

1 ـ ينظر ابن هشام الأنصاري, مغني اللبيب, تحقيق, حسن حمد, إميل يعقوب, دار الكتـب العلميـة, 1998, ط1, ج1, ص 723 .

2 ـ المرجع نفسه, ص05, 06.

إن هذه الأوجه ـ في العموم ـ هي التي تعقبها الزمخشري في تحليله للنص القرآني، و نحن لا نريد أن نفصل في ذكرها درءاً للتكرار, و إنما نريد الوقوف عند بعضها مما نراه متفردا في البناء و المعنى على حد قول الزمخشري .

2.أ ـ الدلالة على الحال :

من المعروف في العرف النحوي أن الواو قد تدل على الحال و تسمى الواو الحالية, و هي وظيفة من وظائفها, و لكن الزمخشري لا يكتفي في بعض حالاتها إلى القول بكون الواو دلت على الحال, لأنه يقف أمام حالات لا تتناسب و الشروط الموضوعة لها في الدلالة على الحالية, فيضطر إلى أن لها مخرجا أسلوبيا تأويليا. و لعل هذا ما يبرزه جليا في الواو الواقعة في قوله تعالى: **﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾** [3]. يقول فيها الزمخشري :« ... و الواو في قوله (و كنتم أمواتا) للحال. فإن قلت : فكيف صح أن يكون حالا, و هو ماض. ولا يقال : جئت و قام الأمير, و لكن قد قام إلى أن يضمر قد؟ قلت : لم تدخل الواو على كنتم أمواتا وحده. و لكن على جملة قوله ـ كنتم أمواتا ـ إلى يرجعون ـ كأنه قيل كيف تكفرون بالله و قصتكم هذه و حالكم أنكم كنتم أمواتا نطفاً في أصلاب أبائكم فجعلكم أحياء ثم يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم بعد الموت ثم يحاسبكم [4] ».

لقد أثقلت هذه الواو في وضعيتها هذه ـ داخل بناء الجملة ـ كاهل الزمخشري الذي أجهد فكره للبحث عن مسوغات تواجدها في الدلالة على الحالية, و الذي يقال أسلوبيا أن هذه الواولم تأت في وضعيتها مناسبة للمعايير التي رسمت لها في جملة القواعد النحوية, و لكنها جاءت منزاحة عنها الأمر الذي حاول الزمخشري الإشارة إليه بطريقة تساؤله عن صحة كون الواو المتصلة بالفعل الماضي لا تدل في الواقع على الحال, إلا أنه لم يستطع الإشارة إلى إنزياحيتها, بل ذهب مباشرة إلى

[3] ـ البقرة, آية 28 .
[4] ـ الكشاف, ج1, ص 269 .

تبريرها أسلوبيا.

2.أ ـ الدلالة على التأكيد :

يبدو من خلال المعاني الشائعة في دلالة الواو عليها أن هذا المعنى و ما سـيترتب عنه من معاني أخرى مستحدث من قبل الزمخشري و هو يعالج حالتين في جملـتين متتاليتين الأولى لم تدخل عليها الواو و الثانية دخلت عليها، فيقول في قوله تعالى: « ... ﴿ **ويقولون سبعة و ثامنهم كلبهم** ﴾ [1] ... فإن قلت: فما هذه الـواو الداخلة على الجملة الثالثة, و لِمَ دخلت عليها دون الأولين؟ قلت: هي الواو الـتي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة, كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في نحو قولك : جاءني رجل و معه آخر. و مررت بزيد و في يده سيف. و منه قولـه تعالى ـ **و ما أهلكنا من قرية إلا و لها كتاب معلوم** ـ و فائدتها تأكيد الصـفة بالموصوف. و الدلالة على أن إتصافه بها أمر ثابت مستقر. و هذه الواو هي الـتي آذنت بأن الذين قالوا سبعة و ثامنهم كلبهم. قالوه عن ثبات علم و طمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما غيرهم, و الدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولـين بقوله رجما بالغيب, و أتبع الثالث قوله وما يعلمهم إلا قليل ...[2]» .

إذا فقد إنطلق الزمخشري من الموازنة بين تواجد الواو في الجملة و عدم تواجدها في غيرها, وحاول أن يثبت لهذه الواو في البدء معنى التأكيـد (تأكيـد الصـفة للموصوف) ثم حملها معنى آخر هو (الثبات و الاستقرار) لهذه الصفة. و كل هذا إجتهاد منه, مع محاولة تبريره بالمعاني الواردة في سياق النص القرآني.

2.ب ـ الدلالة على اختلاف المعنى :

نريد من خلال هذا أن نتبين مع الزمخشري أوجه إختلاف المـبنى المـؤدي إلى إختلاف المعنى في التعبير الواحد أو في التعبيرين المختلفين و في السياقين المتغايرين؛ ففي قوله تعالى: ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين, و ما أنت إلا بشر مثلنا, و إن**

[1] ـ الكهف, آية 22 .

[2] ـ الكشاف, ج2, ص478 , 479 .

﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ [(1)].

يوازن الزمخشري بين هذا المبنى المتواجدة فيه الواو, و بين مبنى آخر و في تعبير آخر فيقول:« ... فإن قلت : هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا و تركـه في قصـة ثمود؟ قلت : إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما منافٍ للرسـالة عنـدهم التسحير و البشرية, و أن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرًا و لا يجوز أن يكـون بشرًا, و إذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد و هو كونه مسحرًا و لا يجوز أن يكون بشرًا مثلهم [(2)] ».

بهذا القدر من الأمثلة ـ نكتفي بذكر الدلالات و المعاني التي حمـلها الزمخشـري حرف الواو الوارد في التعابير القرآنية المتنوعة, وننتقل إلى متابعة نظرته إلى الحرف الموالي :

3 ـ حرف النون :

إن من بين المعاني التي حملها علماء النحو لهذا الحرف معـنى التوكيـد, و قـد وضعوا له معايير و مقاييس ثابتة تنظم بنيته و تحدد معانيه, و الخروج عنها يحتـاج إلى مبرر أسلوبي, و إلا عُد غير صحيح في نظرهم. و لهذا نجد الزمخشري عنـدما تناول تعبيرا قرآنيا فبه موقع هذا الحرف (النون) في الجملة يخالف المألوف القاعدي حاول جاهدا تبرير تواجده باللجوء إلى المعنى الخفي, و الذي إستنبطه عن طريـق القياس على التعبير الجاهز في قوله تعالى: ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلمـوا منكم خاصة** ﴾ [(1)].

يتساءل الزمخشري عن سر تواجد حرف النون المؤكدة في هذا التعبير بقوله :« فإن قلت : كيف جاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الأمر؟ قلت : لأن فيه معـنى النهي. إذا قلت : أنزل عن الدابة لا تطرحك, فلذلك جـاز لا تطرحنـك و لا

---

[1] ـ الشعراء, الآيتين، 185. 186 .

[2] ـ الكشاف, ج3, ص127 .

1 _ الأنفال، آية 25 .

تصيد و لا يحطمنكم » (2).

إذا فوجود معنى النفي في دلالة هذا التعبير هو الذي جوز دخول نون التوكيد على الفعل المضارع الذي هو جوابا للأمر, و لولا هذا المسوغ لكان ـ في نظر الزمخشري ـ الكلام غير متناسق و غير خاضع للمعايير النحوية .

تلك هي بعض الأمثلة حول دلالة الحرف المفرد في بنية الكلمة ـ من خلال نظرة الزمخشري إليه في بعض أمثلة التعبير القرآني ـ لنتحول الآن إلى معالجة النوع الثاني من الحروف المركبة.

ثانيا ـ دلالة الحرف المركب في الكلام :

و المراد بالحرف المركب هو ما يسمى عند القدماء (الحروف المعاني) و التي تحمل دلالات خاصة و هي معزولة عن سياق الكلام, و الذ ي نريده في هذا المبحث هو دلالتها و هي في سياق نظم الجمل القرآنية, من خلال رؤية الزمخشري لهذه المعاني و الدلالات التي تحملها. و لا نريد من وراء هذا أن نتطرق إلى كل الحروف المركبة التي وردت في القرآن الكريم, و لكن نود معالجة بعض منها من خلال معانيها السياقية التي أشار إليها الزمخشري في بنية الجمل القرآنية. و لعل من بين هذه الحروف التي أطلق الزمخشري عليها حكما عاما في دلالتها الحرف الموالي

1 ـ حرف (إلى) :

من حروف الجر له ثمانية معانٍ:« أحدها: إنتهاء الغاية الزمانية, نحو: « **ثم أتموا الصيام إلى الليل** » (1), و المكانية نحو: « **من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا** » (2) ... والثاني المعية وذلك إذا ضمت شيئا إلى آخر ... في « **من أنصاري إلى الله** » (3) ... والثالث: التبيين : و هي المبنية لفاعلية مجرورها بعدما يفيد حبا أو بعضا من فعل تعجب أو إسم تفضيل, نحو « **رب السجن أحب**

---

2 ـ الكشاف, ج2, ص 153 .

1 ـ البقرة, آية 187 .

2 ـ الإسراء, آية 01 .

3 ـ آل عمران, آية 52 .

إليَّ ﴾ (4). و الرابع : مرادفة اللام, نحو ﴿ والأمر إليك ﴾ (5). و قبـل إنتـهاء الغاية, أي منتهٍ اليكَ ... والخامس: موافقة في :

فلا تتركني بالوعيد كأنني * إلى الناس مطلبي به القار أجْرَبُ.

والسادس : الإبتداء كقوله من (الطويل) :

تقولُ و قد عَاليتُ بالكُورِ فوقَها * أيسقى فلا يَروى إليّ إبن أحمرا

أي مني .

و السابع : موافقة (عِنْدَ) كقوله من (الكامل) :

أم لا سبيل إلى الشَّبابِ و ذِكْرُهُ * أشهى إليَّ مِن الرَّحيق السلْسَلِ.

و الثامن : التوكيد, و هي الزائدة, أثبت ذلك الفراء, مستدلا بقـراءة بعضـهم ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ (6) بفتح الواو... » (7).

هذه المعاني الثمانية إختصرها الزمخشري و هو يتناول هذا الحرف« إلى »في قولـه تعالى: ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم و أرجلكم إلى الكعبين ﴾ (8) ـ بقوله :« إلى تفيد الغاية مطلقا, فأما دخولها في الحكم و خروجها فأمر يدور مع الدليل, فما فيه دليل على الخروج قوله ـ فنظرة إلى ميسرة ـ لأن الإعسار علة الإنظـار و بوجـود الميسرة تزول العلة, و لو دخلت الميسرة فيه لكان منظرًا في كلتا الحالتين معسـرا و موسرا, و كذلك ـ ثم أتموا الصيام إلى الليل ـ لو دخل الليل لوجب الوصال, و مما فيه دليل على الدخول قولك : حفظت القرآن من أوله إلى آخره, لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله و منه قوله تعالى ـ من المسجد الحـرام إلى المسـجد الأقصا ـ لوقوع العلم بأنه لا يسري به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله. وقوله

---

4 ـ يوسف, آية 33 . .

5 ـ النمل, آية 33 .

6 ـ إبراهيم, آية 37 .

7 ـ ابن هشام, مغني اللبيب, المرجع السابق، ج1, ص 155 , 156 .

8 ـ المائدة, آية 06 .

(إلى المرافق ـ وإلى الكعبين) لا دليل فيه على أحد الأمرين ... » [(1)]. نفهم من قول الزمخشري ـ بعد أن أطلق حكم دلالة الحرف (إلى) على الغاية المطلقة ـ أن هذا الحرف يمكن أن يخرج في بعض حالاته عن دلالة الغاية المطلقة, كما مر معنا في المعاني الثمانية التي سقناها مثل (المعية و التبيين, الظرفية و التوكيد والإبتداء ..إلخ).

كما نتبين من مجمل كلامه أنه أعطى خلاصة لظاهرة تواجد حرف الجر (إلى) في أي خطاب بعامة والنص القرآني بخاصة, و هذه النتيجة لا تكون إلا بعد دراسة دقيقة و موسعة لنماذج كثيرة تواجدت هذه الأداة في سياقات تعبيرية مختلفة في لغة العرب و في القرآن الكريم.

وإذا إكتفينا بما أورده الزمخشري من وصف أسلوبي دقيق و مجمل لهذا الحرف (إلى) ننتقل إلى تتبع وجهة نظره في حرف مركب آخر و هو :

2 ـ حرف (لولا) :

حرف مركب من حرفين (لو) و (لا) و يعرف بالاسم ووظائفه في الجملة, فهو إما : حرف إمتناع لوجود جملة ثانية بوجود الأولى و يتضمن معنى الشرط و يكون جوابه باللام أو بعدمه. مثل: « **و لولا فضل الله عليكم ورحمته** » [(2)]. أو هو حرف تحضيض و عرض يؤدي معنى (هلا). و هو الشائع في أكثر أمثلة القرآن الكريم. مثل: « **لولا ينهاهم الربانيون و الأحبار عن قولهم الإثم و أكلهم السحت** » [(1)]. أو هو حرف توبيخ و تنديم فالمعنى الأول في مثل قوله تعالى: « **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس** » [(2)]. والثاني في مثل قوله عز وجل: « **فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة** » [(3)].

---

1 ـ الكشاف, ج1, ص596 , 597 .
2 ـ النور, آية 14 .
1 ـ المائدة, آية 62 .
2 ـ يونس, آية 98 .
3 ـ الأحقاف, آية 28 .

والثالث في مثل قوله جل ذكره: ﴿ لولا أخرتني إلى أجل قريب ﴾ [4]. وهناك معاني أخرى يمكن التدقيق في معانيها من خلال سياقات الجمل التي ترد فيها [5].

والذي نهدف إليه في هذا السياق هو التعرف على وجهة نظر الزمخشري لهذا الحرف (لولا) من خلال معالجته له ضمن النص القرآني, يقف الزمخشري عند هذا الحرف في قوله تعالى: ﴿ فلولا كان من القرون ﴾ [6]. يشير إلى عدم صحة الحكم الذي أطلقه الخليل في تحديد معاني هذا الحرف (لولا) في جل آيات القرآن الكريم, ويعطي أمثلة تؤكد صحة قوله، فيقول - بعد أن يعطي المعنى المراد من حرف لولا في الجملة القرآنية الذي هو بمعنى (هلا كان) -: «... و قد حكوا عن الخليل كل لولا في القرآن فمعناها هلا إلا التي في الصافات, وما صحت هذه الحكاية, ففي غير الصافات - لولا أن تداركه نعمة من ربه لينبذ بالعراء - و لولا رجال مؤمنون - و لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم [7] ». و إن لم يعط الزمخشري أمثلة للمعاني الأخرى التي أشرنا إليها بهذه الأداة (لولا) - في آي القرآن الكريم - إلا أنه أشار بقوله هذا إلى وجود معاني أخرى تختلف عما ذهب إليه الخليل في تعميم الحكم. كما أنه يدل على شمولية الدراسة و وحدة استقصائها لتواجد هذا الحرف (لولا) في النص القرآني.

و إلى جانب هذا الحرف المركب (لولا) هناك حروف مركبة أخرى وقف عندها الزمخشري مليا لتبيان معانيها الواردة في سياق الجمل, و بين هذه الحروف التي نالت قسطا كبيرا من اهتمام الزمخشري, نجد الحرف المركب :

---

4 - المنافقون, آية 10 .

5 - ينظر, الشريف قصار, معاني الحروف في القرآن, المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر, 1984, ص101,102,103, و ابن هشام, مغني اللبيب, المرجع السابق، ج1, ص520 , 525 .

6 - هود, آية 116 .

7 - الكشاف, ج2, ص297 .

3 ـ حرف (من) :

يأتي هذا الحرف في أوجه وسياقات مختلفة عددها ابن هشام في ست عشر وجها, و هي : (إبتداء الغاية، التبعيض، بيان الجنس، التعليل، البدل، مرادفه (عن) و (في) و (عند) و (ربما) و(على) و الفضل، و الغاية، و التنصيص على العموم، و توكيد العموم ...) [1], ثم أضاف لها ست أوجه عندما تدخل على (قبل) و (بعد) و هي (الشرطية و الاستفهامية و المشربة معنى النفي، الإستفهامية غيرالمشربة معنى النفي، الموصولة، النكرة الموصوفة)[2]. و يمكن أن تضاف لها حالتان و هي :(النكرة التامة ـ أن تكون زائدة مؤكدة)[3] .

و يتعقب أحدهم هذا الحرف في القرآن الكريم فيورد له أوجها و معاني يمكننا إجمالها فيما يلي : (التبعيض، التعليل و السبب، الإبتداء، مصدر الشيء، معنى البدل، البيان، التبيين، بمعنى على، بمعنى إلى للظرفية، إستغراق الجنس لتوكيد الفاعل، و المفعول به، و المبتدأ و إسم كان ...) [4]. إذا جئنا إلى الزمخشري و وقفنا عند بعض الجمل التي جاء فيها هذا الحرف (من) لوجدناه يحصر معانيه في (التبعيض و الإبتداء و البيان و التوكيد). ففي دلالة التبعيض عندما يكون الحرف مفردا يقول فيه« ومن في ﴿من الثمرات﴾ [5] للتبعيض بشهادة قوله ـ فأخرجنا به من كل الثمرات ـ و قوله فأخرجنا به ثمرات ـ و لأن المنكرين أعني ماء و رزقا يكتنفانه, و قد قصد بتنكيرها معنى البعضية فكأنه قيل: فأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم, و هذا هو المطابق لصحة المعنى, لأنه لم ينزل من السماء الماء كله, و لا أخرج بالمطر الثمرات

---

1 ـ ينظر, ابن هشام, معنى اللبيب, المرجع السابق، من ص608 , الى625 .

2 ـ ينظر، المرجع نفسه .

3 ـ ينظر، المرجع نفسه .

4 ـ ينظر, الشريف قصار, معاني الحروف في القرآن, المرجع السابق، من ص109 إلى 114 .

5 ـ البقرة, آية 22 .

و لا جعل الرزق كله في الثمرات ... » (1).

لم يكتف الزمخشري بإطلاق الحكم ـ كما هو بين في قوله هذا ـ على دلالة معنى التبعيض الذي أفاده الحرف (من) في الجملة القرآنية, و لكنه علل هذا المعـنى بما ورد من أمثلة له في القرآن, و كذا بما يمليه منطق الأشياء في تعليل كـثير مـن الظواهر الطبيعية .

و الحجة و البرهان لا يعدمًا الزمخشري في تعليل دلالة هذا الحرف (من) علـى التبعيض في نماذج أخرى في مثل قوله تعالى: **﴿ ومن يعمـل من الصـالحات ﴾** (2) ـ وهو يفرق بين معنيي الحرف الأول والثاني ـ فيقول:« فإن قلت: ما الفـرق من الأولى و الثانية؟ قلت: الأولى للتبعيض أراد و من يعمل بعض الصالحات, لأن كلا لا يتمكن من عمل الصالحات لإختلاف الأحوال, و إنما يعمل منها ما هـو تكليفه و في وسعه, و كم من مكلف لاحج عليه و لا جهاد و لا زكاة, تسـقط عنه الصلاة في بعض الأحيان, و الثانية لتبيين الإبهام في (من يعمل)... (3) ».

و إذا إنتقلنا مع الزمخشري إلى مثل آخر يتكرر فيه هذا الحرف (مـن) مـرتين ويحمل بذلك معنيين و مختلفيين (الإبتداء و البيان) و ذلك في قوله تعالى: **﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾** (4). لم يلجأ الزمخشري إلى دليـل منطقـي ليفرق بين معنيي الحرف الأول و الثاني, و لكنه يكتفي بالإشارة إلى مثال واحـد شبيه بما هو وارد في هذه الجملة القرآنية فيقول :« فإن قلت: ما الفرق بين مـن ومن؟ قلت : الأول للإبتداء, و الثاني للبيان كقوله من الأوثان (1) ».

وقد جمع الزمخشري المعاني الثلاثة السالفة الذكر (التبعيض والإبتداء والبيان) في سياق تعبيري واحد في قوله تعالى: **﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من بـرد**

---

1 ـ الكشاف, ج1, ص234 , 235 .

2 ـ النساء, آية 124 .

3 ـ الكشاف, ج1, ص565 , 566 .

4 ـ المؤمنون, أية 12 .

1 ـ الكشاف, ج3, ص27 .

فيصيب به من يشاء و يصرفه عن من يشاء... [2]. فيقول مفرقا بـين هـذه المعاني« فإن قلت: ما الفرق بين من الأولى و الثانية و الثالثة في قوله ـ من السماء ـ من جبال ـ من برد ـ؟ قلت : الأولى لإبتداء الغاية و الثانية للتبعيض و الثالثة للبيان, أو الأوليان لابتداء و الآخر للتبعيض [3] ».

إن هذه المعاني على رأي الزمخشري تصاحب هذا الحرف (من) عندما يكـون أصليا في الجملة, وأما عندما يكون غير ذلك, فإنه يدل على معنى التوكيد. و يبرز هذا في قوله تعالى: **أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين** [4].

يقول في الحرف الأول« مـن الأولى زائـدة لتوكيـد النفـي, وإفـادة معـنى الإستغراق[5] ».

و تعد هذه المعاني و الدلالات في مجملها قرينة هذا الحرف (من) في النماذج التي وقفنا عليها عند الزمخشري, و لا مبرر أسلوبي يجعلنا نتعرض إليها جميعا. و عليـه ننتقل إلى حرف آخر من حروف المعاني المركبة و المتمثل في الحرف الموالي.

4 ـ حرف (ثم) :

يفيد هذا الحرف في عموم المعنى الترتيب و التراخي في وقوع الفعل و تحققه في الواقع, و هو يستعمل في الأساس للربط بين عناصر الجملة و عطف بعضها علـى بعض. و يترتب على ذلك« ...ثلاثة أمور التشـريك في الحكـم و الترتيـب والمهلة[1] ».

و القرآن الكريم يرد فيه هذا الحرف بهذا المعنى العام« الترتيب والتراخـي »في كثير من أساليبه التعبيرية في مثل قوله تعالى: **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين, ثم خلقنا النطفة علقة, فخلقنا العلقة مضغة,**

---

[2] ـ النور, آية43 .

[3] ـ الكشاف, ج3, ص70 , 71 .

[4] ـ الأعراف, آية80 .

[5] ـ الكشاف, ج2, ص92 .

[1] ـ ابن هشام, مغنى اللبيب, المرجع السابق, ج1, ص229 .

فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخــر فتبــارك الله أحسن الخالقين, ثم إنكم بعد ذلك لميتون, ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »[2]. و في قوله عز وجل: « **يا أيها الناس إن كنتم** في **ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة و غير مخلقة لنبين لكم, و نقر** في **الأرحام ما نشاء, إلى أجل مسمى, ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغــوا أشــدكم و منكم من يتوفى و منكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شــيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** »[3]. و كذا الأمر في قوله جل ذكره: « **و إذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده و أنتم ظالمون, ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكــم تشكرون** »[4].

و في خضم هذا المعنى العام يلتمس الزمخشري معاني جزئية و تبريرات أســلوبية لهذا الحرف (ثم) داخل سياقات تعبيرية في بعض الجمل القرآنية, ولعل من أبرز هذه المعاني التي إلتمس لها الزمخشري مخرجا مجازيا المعنى الموالي :

4.أ ـ التراخي في **الأحوال :**

يقول الزمخشري في شأن هذا الحرف (ثم) و هو يتطرق إلى قوله تعالى: « **لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق** »[1].« و (ثم) للتراخــي في الوقت فإستعيرت للتراخي في الأحوال, و المعنى : أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم و دينكم و إنما يعتد الله بالمنافع الدينية, قال سبحانه ـ يريدون عــرض الدنيا و الله يريد الآخرة ـ و أعظم هذه المنافع و أبعدها شوطا في النفع (محلها إلى البيت) أي وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها في الحرم منهية إلى البيت كقولــه

---

[2] ـ المؤمنون, آية 12 إلى 16 .

[3] ـ الحج, آية 05 .

[4] ـ البقرة, آية 50 إلى 51 .

[1] ـ الحج, آية 33 .

ـ هدياً بالغ الكعبة ـ و المراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت لأن الحرم هو حريم البيت, و مثل هذا في الإتساع قولك بلغنا البلد و إنما شار فتموه و إتصل مسيركم للادوده ...[2]» .

يريد الزمخشري من جملة قوله هذا أن التراخي الذي إرتبط بدلالة هذا الحـرف في هذا التعبير القرآني قد إنزاح عن المعيار الذي يحدد وضـعيته في إطـار التعـبير العادي للجملة العادية .

ويلتمس الزمخشري من التراخي في وقوع الفعل الذي يؤديه الحرف (ثم) في تعبير آخر، معنى جديدا يمكننا الوقوف عليه في المحور الآتي :

4. ثم ـ بعد وقوع الفعل :

يستشهد الزمخشري لهذا المعنى بقوله تعالى: **﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات و النور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون هـو الـذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴾**[3]. يقول: متسائلا عن حقيقة دلالة هذا الحرف (ثم) في الجملتين الأولى و الآخرة:« فـإن قلت: ما معنى ثم؟ قلت : إستبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته, و كذلك ـ ثم أنتم تمترون ـ إستبعاد لأن يمتروا فيه بعدما ثبت أنـه محيـيهم و مميتـهم وباعثهم[1]» ، والإستبعاد الذي يقصده الزمخشري في الحالتين هو البعد في إمتـداد معنى التراخي الذي يراد به من هذين التعبيرين (العدول و الإمتراء).

و إذا إنتقلنا إلى المعنى الثالث و الأخير من المعاني التي إستنبطها الزمخشري مـن وظيفة حرف (ثم) في سياق الجملة القرآنية، و المتمثل فيما يلي :

---

[2] ـ الكشاف, ج3, ص14 .
[3] ـ الأنعام, الآيتين، 01، 02.
[1] ـ الكشاف, ج2, ص04 .

3.4 ـ فورية وقوع الفعل :

إذا كان معنى التراخي في التعبير القرآني السابق قد طال حتى صار بعيد التحقق ـ كما بين الزمخشري ـ فإنه في تعبير آخر قد يقصر زمنه و يتحقق فعله الواقـع مباشرة بعد الحرف (ثم) و لعل هذا ما أقره الزمخشري في قوله تعـالى: ﴿ **وقـالوا لولا أنزل عليه ملك و لو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون** ﴾ [2]. فبعد أن يشرح المعنى العام لجملة (ثم لا ينظرون) يبين المعنى الفعلي الذي يؤديه وقوع هـذا الحرف بقوله:« ... ومعنى ثم بعدما بين الأمرين قضاء الأمر و عدم الإنظار, جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر, لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة [3] ».

هذه بعض المعاني التي توسع فيها الزمخشري في تبيان دلالة الحرف المركب (ثم) و قبل أن نتم حديثنا حول معاني الحروف المركبة من خلال نظـرة الزمخشـري، نوجز معاني بعض الحروف التي لم نفرد لها حديثا خاصا و هي (قد, ولن, وهـل, وإذ, وإن، و لو).

يرى الزمخشري أن الحرف (قد) يفيد معنيي التوقع و التوكيد، والحرف الثـاني (لن) يفيد النفي بعامة والمستقبل بخاصة و يؤكده, و أما الثالـث (هـل) فيفيـد التخصيص, و الرابع (إذ) يفيد المفاجأة و تأكيد الشرط, و أما الخامس (إن) فإنـه يفيد في العموم التوكيد في جزئي الجملة, غير أنه قد يرد أحيانا الماضي إلى معـنى المستقبل. و يأتي الحرف السادس و الأخير (لو) ليـدل علـى معنيـي الإمتنـاع و التخصيص, كما أنه قد يقوم برد المضارع إلى معنى الماضي [1].

إذا إستثنينا المعنيين الأخيرين لحرفي (إن و لو) والمتمثلين في تحويل الفعل الماضي إلى المستقبل, وتحويل المضارع إلى الماضي، كما وجدنا معاني جديدة لبقية الحروف

---

[2] ـ الأنعام, آية 08 .

[3] ـ الكشاف, ج2, ص 07 .

[1] ـ ينظـر, الكشـاف, ج4, ص70, و ج4, ص28, و ج3, ص29, و ج2, ص113 و ج2, ص387, و ج2, ص584, و ج3, ص08, و ج2, ص163, و ج2, ص387, و ج2, ص163 .

المركبة في سياقاتها التي وردت فيها.

و عليه نأتي إلى ختام هذا المبحث و المتعلق بدلالة الحرف المفرد و المركب في سياق الجمل القرآنية من خلال رأي الزمخشري الوارد في الكشاف. و ننتقل بالحديث إلى المبحث الثاني و المتعلق بما يلي :

المبحث الثاني : مستوى دلالة الكلمة .

لم يفرق علماء اللغة العربية, قديما وحديثا بين الكلمة واللفظ ـ و اعتبروهما شيئا واحدا في تعريفاتهم المختلفة [2] ـ على حد الدكتور تمام حسان :« فالتعريفات العربية للكلمة ـ برغم إعتمادها على طبيعة اللغة العربية ـ إما أن تخلط بين الكلمة واللفظ والقول, كقول الأشموني:« الكلمة هي اللفظ المفرد[3] », و قول صاحب الشذور:« الكلمة قول مفرد[4]»...وإما أن تضيف إلى هذا الخلط خلطا آخر, بأن تبني التعريف على العلاقة بين الكلمة و معناها, أي الفكرة التي تعبر عنها كقول إبن عقيل:« الكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد[5]». فهذا يصدق على باء الجر التي وضعت لمعنى مفرد هو المصاحبة, مع أنها ليست كلمة. وإما أن تزيد الطين بلة بأن تدخل في تعريف الكلمة أفكارا منقوضة كفكرة التقدير, كقول صاحب الهمع :« و قد إختلفت إعتباراتهم في حد الكلمة إصطلاحا, وأحسن حدودها (قول مفرد مستقل أو منتوء معه)[1] » . فنية اللفظ إنما تكون عند عدم وجوده, وتكون في صورة تقديره في الكلام, و يمثل السيوطي لذلك بـ (أنت) في قم ...[2] » .

---

2 ـ ينظر, الرازي فخر الدين, التفسير الكبير, العامرة, القاهرة, 1308هـ, ج1, ص09, و محمد توفيق محمد سعد, اشكالية الجمع بين الحقيقة و المجاز في ضوء البيان القرآني, مطبعة الأمانة, القاهرة, 1412هـ, 1992, ط1, ص16 وما بعدها .

3 ـ ينظر, الاشموني علي بن محمد, شرح الاشموني لالفية بن مالك، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1955م، ط1 . .

4 ـ ينظر, ابن هشام عبد الله بن يوسف الانصاري, شذور الذهب, المرجع السابق، ص10 .

5 ـ ابن عقيل, شرح ابن عقيل, تحقيق: حنا الفاخوري, دار الجيل, بيروت, 1997, ط5, ج1, ص14 .

1 ـ السيوطي, همع الهوامع, المرجع السابق، ج1, ص03 .

2 ـ تمام حسان, مناهج البحث في اللغة, دار الثقافة, الدار البيضاء' 1986, ص260 .

و بعد أن يستعرض تمام حسان عيوب التعريفات السـابقة يصـل إلى القـول بتعريف ـ في نظره شاملا لمعاني الكلمة العربية ـ فيقول: هـي:« صـيغة ذات وظيفة لغوية معينة في تركيب الجملة تقوم بدور وحدة مـن وحـدات المعجـم, و تصلح لأن تفرد, أو تحذف, أو تحشى أو يغير موضعها, أو يستبدل بها غيرها في السياق, وترجع في ماهيتها غالبا إلى أصول ثلاثة, و قد تلحق بها زوائـد [3] ».

نفهم من هذا التعريف أن الكلمة قد إشتملت على ما يسمى بلفظ (الاسم والفعل) في التعريف القديم. و يستثنى بذلك الحرف سواء المفرد أو المركب من حرفين؛ كما نفهم من ذلك أيضا أن الكلمة ليست هي اللفظة, لأن :«... معـنى الكلمـة في المعجم متعدد و محتمل, و لكن معنى اللفظ في السياق واحـد لا يتعـدد [4] ».

والذي يهمنا في هذا المبحث هو دلالة الكلمة في صفتها لفظا داخل سياق الجملـة القرآنية و ذلك من منظور الزمخشري لها.

و إذا تمعنا في جل آراء الزمخشري الواردة في دلالة الألفاظ التي عالجها ضـمن تراكيب الجمل القرآنية ـ وجدناها تنطلق في مجملها من مبدأ الإختيار, إختيـار لفظ دون آخر,« وليس شيء أصعب من إختيار الألفـاظ, و قصـدها بـها إلى موضعها, لأن اللفظة تكون أخت اللفظة و قسيمتها من الفصاحة و الحسـن و لا تحسن في مكان غيرها [1] ».

و لعل من هذا القول (و لا تحسن في مكان غيرها) قد إنطلـق الزمخشـري في معالجة الألفاظ في سياقها الدلالي داخل نظام الجمل القرآنية, و قد توصلنا إليه من خلال ما تجمع لدينا من أراء الزمخشري ـ حول كثير من الألفـاظ في دلالاتهـا السياقية في التعابير القرآنية ـ أنه عالج هذه الدلالة من ثلاثة محاور وهي :

---

[3] ـ المرجع نفسه, ص266 .

[4] ـ تمام حسان, اللغة العربية, معناها و مبناها, المرجع السابق, ص316 .

[1] ـ إبراهيم بن المدبر, الرسالة العذراء, تقديم زكي مبارك و شرحه, دار الكتب المصرية, القاهرة, 1931م, ط2, ص31 .

أولا ـ دلالة المفاضلة :

و تكون هذه المفاضلة إما بين لفظة و أخرى, أو بين لفظة و لفظتين, أو بين صيغة صرفية و أخرى, أو بين ذكر لفظة و عدم ذكرها. وسنتناول هذه المفاضلات وفقا لما يلي :

1 ـ المفاضلة بين لفظتين :

1.أ ـ المفاضلة بين لفظتي (ضوء و نور):

يقول الزمخشري في قوله تعالى: **« فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم و تركهم** في **ظلمات لا يبصرون »** [2].« ...فإن قلت: هلا قيل ذهب الله بضوئهم لقولهم فلما أضاءت؟ قلت : ذكر النور أبلغ؛ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة. فلو قيل : ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة و بقاء ما يسمى نورا, و الغرض إزالة النور عنهم رأسا و طمسه أصلا [3]». لم ينطلق الزمخشري في تساؤله هذا من فراغ, بل إنه إرتكز على السياق الداخلي للجملة للآية حيث كان يستلزم ذكر فعل الإضاءة أن يكون فعل الذهاب مرتبطا بالإضاءة, و لكن حدث هناك إنزياح في حلول لفظ النور مكانه, و هنا وجد الزمخشري نفسه مضطرا لتبرير هذا الإختيار و تعليله بلاغيا و ذلك قصد إزالة الإبهام أو الوهوم على حد قوله .

1.ب ـ المفاضلة بين لفظتي (صالح وفاسد) :

وردت لفظة (صالح) في قوله تعالى: **« قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين »** [1] . يفاضل الزمخشري بين هذه اللفظة (صالح) و بين لفظة أخرى يقترحها لأن تكون بديلة لها وهي لفظة (فاسد) ليخلص إلى القول بأن المعنى العام

---

2 ـ البقرة, آية 17 .

3 ـ الكشاف, ج1, ص200 .

1 ـ هود, آية 46 .

للسياق الذي وردت فيه هذه اللفظة, هو الذي أوجب تواجدها دون لفظة (فاسد) فيقول :« فإن قلت : هلا قيل إنه عمل فاسد؟ قلت : لما نفاه عن أهله نفى عنهم صفتهم بكلمة النفي يستبقى معها لفظ المنفي, وآذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهلك و أقاربك وأن هذا لما إنقضى عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك. كقوله ـ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا [2] ». لقد ذهب الزمخشري بعيدا عن السياق الداخلي الواردة فيه لفظة (صالح) ليلتمس مبررا أسلوبيا داخل السياق الخارجي, و قد تطلب منه هذا الأمر الإستنجاد بتعابير سياقية أخرى بعيدة عن الخطاب الواردة فيه هذه اللفظة (صالح).

1.3 ـ المفاضلة بين لفظتي (القول و السر) :

يقف الزمخشري من لفظة (القول) ـ الواردة في قوله تعالى: **﴿ لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر و أنتم تبصرون, قال ربي يعلم القول في السماء و الأرض و هو السميع العليم ﴾** [3] ـ موقفا قلنا لأنها وردت مخالفة لمجرى السياق الذي سبقها في التعبير القرآني و المتمثل في (أسرار النجوى). ولعل هذا ما جعله يتوسع في إيجاد مبررات و مسوغات وقوع هذه اللفظة (قول) بدل (السر) و كذا فك التناقض الذي يخالف ما ذهب إليه في هذا التبرير فيقول:« فإن قلت: هلا قيل يعلم السر لقوله ـ أسروا النجوى؟ قلت: القول عام يشمل السر و الجهر فكان في العلم به العلم بالسر و زيادة, فكان أكد في بيان الإطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم السر, كما أن قوله يعلم السر أكد من أن يقول يعلم سرهم, ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية. فإن قلت : فلم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله ـ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات و الأرض ـ ؟ قلت : ليس بواجب أن يجيء بالآكد

---

[2] ـ الكشاف, ج2, ص273 .

[3] ـ الأنبياء, الآيتين، 03 , 04 .

في كل موضع و لكن يجيء بالوكيدة تارة وبالآكد أخرى, كما يجيء بالحسـن في موضع و بالأحسن في غيره ليفتن الكلام إفتنانا, و تجمع الغاية ما دونها, علـى أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى, فكأنه أراد أن يقول : إن ربي يعلم ما أسروه, فوضع القول موضع ذلك للمبالغة, و ثم قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السر في السموات و الأرض, كقوله ـ علاّمُ الغيوبِ ـ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة [1] ». لقد أطال الزمخشري في إلتماس مبررات تواجد لفظة (القول) بدل لفظة (السر) التي تناسـب السـياق الداخلي للجملة القرآنية, و بعد سرد لدلالة هذه اللفظة و هو التوكيد, يأتي بدلالة أخرى في نهاية حديثه و هي (المبالغة) و عليه يكون تواجد هذه اللفظـة لسـبب بلاغي جعل من حديث النفس (النجوى) قولا مجهورا به, و الحق يقال أن الحديث داخل النفس يعد بالنسبة لخالقها جهرا لأنه يسمعه و يسجله, و هذا ما لم يذكره الزمخشري في تعليلاته المختلفة.

1.د ـ المفاضلة بين لفظتي (الخير و الشر) :

يسترشد الزمخشري ـ وهو يفاضل بين لفظة (الخير) الواردة في قولـه تعـالى: « بيدك الخير » [2]. و بين لفظة (الشر) التي لم تذكر في السياق ـ بعموم الدلالة فيقول :« ... فإن قلت : كيف قال (بيدك الخير) فذكر الخير دون الشر. قلـت: لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين, و هو الذي أنكرته الكفرة. فقال بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك, و لأن كل أفعال الله تعـالى من نافع و ضار صادر عن الحكمة و المصلحة فهو خـير كلـه كإيتـاء الملـك و نزعه[1] ». وقول الزمخشري (لأن الكلام إنما وقع في الخير) يعني أن السياق العام هو الذي يبرر ذكر لفظة الخير و عدم ذكر لفظة الشر في هذا التعبير القرآني.

---

[1] ـ الكشاف, ج2, ص562 , 563 .

[2] ـ آل عمران, آية 26 .

[1] ـ الكشاف, ج1, ص422 .

و تستمر المفاضلة عند الزمخشري و لكن هذه المرة تكون بين أكثر من لفظين أي بين ثلاثة ألفاظ.

2 ـ المفاضلة بين ثلاثة ألفاظ :

2.أ ـ المفاضلة بين الألفاظ (طبن و وهبن و سمحن) :

يعقد الزمخشري مفاضلة بين هذه الألفاظ الثلاثة ـ وهو يتعرض إلى شرح لفظة (طبن) الواردة في قوله تعالى: ﴿ **وءاتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا** ﴾ [2]. فيقول مفاضلا و مفصلا لفظة (طبن) على لفظتي (وهبن و سمحن) ـ « و في الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك, وجوب الإحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل: فإن طبن, و لم يقل, فإن وهبن أو سمحن إعلاما بأن المراعى هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبة. و قيل: فإن طبن لكم عن شيء منه. ولم يقل فإن طبن لكم عنها بعثا لهن على تقليل الموهوب [3] ». إن المبرر الذي إستند إليه الزمخشري في التفضيل هو الجانب الدلالي الدقيق الكامن وراء صفة الطيبة, لأن الشيء قد يوهب وقد يسمح به ولكن دون طيبة نفس، ولعل هذا المعنى النفسي هو الذي أراده الزمخشري في توظيف لفظة الطيبة بدل الهبة أو السماح.

2.ب ـ المفاضلة بين الألفاظ (عفي و ترك و محي) :

إن المفاضلة هنا تكون عن طريق التفسير للفظة (عفا). التي وردت في قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين ءامنوا كتب عليكم القصاص** في **القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف و أداء إليه بإحسان** ﴾ [1]. يقول: الزمخشري عن إحتمال تفسير لفظة (عفي) بترك أو

---

[2] ـ النساء, آية 04 .

[3] ـ الكشاف, ج1, ص499 .

[1] ـ البقرة, آية 178 .

بمحى« ... فإن قلت: هلا فسرت عفى بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به؟ قلت لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس بثبت, و لكن أعفاه, و منه قوله عليه الصلاة والسلام:« وأعفوا للجن ». فإن قلت: فقد ثبت قولهم عفا أثره إذا محاه و أزاله, فهلا جعلت معناه فمن محى له من أخيه شيء؟ قلت : عبارة قلقلة في مكانها والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب و السنة, وإستعمال الناس, فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة نابية عن مكانها [2] ». نفهم من طريقة الزمخشـري في هذه المفاضلة أن تفضيل لفظة (عفى) على (ترك) يعود إلى عدم تناسق اللفظ مـع دقة المعنى المراد إيصاله من إعفاء الشيء, بدل تركه, كما أن تفضيل لفظة (عفى) على لفظة (محى) يعود إلى سببين الأول معنوي يكمن في أن العبارة (قلقة في تأدية المعنى في الجملة, و الثاني كون هذه العبارة أكثر استعمالا وشيوعا في الأسـاليب التعبيرية عند العرب و القرآن و السنة. ولهذا فضلها الزمخشري عـن نظيرتيهـا في تأدية المعنى الدقيق في هذا التعبير القرآني.

و من المفاضلة بين الألفاظ ننتقل إلى المفاضلة بين الصيغ الصرفية في تأدية المعنى داخل سياق الجمل القرآنية.

3 ـ المفاضلة بين الصيغ الصرفية :

3.أ ـ المفاضلة بين صيغتي (مرضعة و مرضع) :

يرجع الزمخشري توظيف صيغة (مرضعة) ـ الواقعة في قوله تعـالى: ﴿ **يـوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت و تضع كل ذات حمل حملها** ﴾ [1] بـدل صيغة (مرضع) ـ إلى دقة تناسب دلالة الأولى (مرضعة) مع سياق الموقف و هـو شدة هول قيام الساعة, لإنشغال كل نفس بحالتها أثناء الحدث المذهل الذي يجعل المرأة و هي أرأف الناس بإبنها تتركه و تنزع ثديها من فمـه. يقـول في ذلـك الزمخشري :« فإن قلت: لما قيل (مرضعة) دون مرضع؟ قلت: المرضعة التي هـي

---

2 ـ الكشاف, ج1, ص332 .

1 ـ الحج, آية 02 .

في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي, و المرضع التي شأنها أن ترضع و إن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به,فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت هذه و قد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة [2] » .

3.ب ـ المفارقة بصيغة (ضائق و ضيق) :

يطلق الزمخشري مصطلح (العدول) وهو يفاضل بين صيغة (ضائق) الـواردة في قوله تعالى: ﴿ **فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق بـه صـدرك** ﴾ [3] . وصيغة (ضيق) التي تساءل عن إمكانية حلولها في هذا التعبير القرآني لتأدية المعـنى المراد. فيقول« فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت, لأن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان أفسح الناس صدرا [4] ».

3.ج ـ المفارقة بصيغة (عِوجا و عَوجا) :

يكشف الزمخشري عن المفارقة الواقعة في ورود صيغة (عِوجا) في غـير محلـها وكان من الطبيعي أن ترد صيغة (عَوجا) لأنها تتناسب و سياق الجملة القرآنية, إلا أنه يفضل هذا العدول الذي حدث من صيغة إلى أخرى فيقول و هو يعالج قولـه تعالى: ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا و لا أمتا** ﴾ [5]،« فإن قلت: قد فرقوا بين العِـوج و العَـوج, فقالوا العِوج بالكسر في المعاني, و العَوج بالفتح في الأعيان, و الأرض عين, فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت: إختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصـف الأرض بالاستواء و الملاسة و نفي الإعوجاج عنها على أبلغ ما يكون, و ذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية علـى عينـك و عيـون البصراء من الفلاحة و أتفقتم على أنه لم يبق فيها إعوجاج قط, ثم إستطلعت رأي المهندس فيها و أمرته أن يعرض إستواءها على المقاييس الهندسية ليعثر فيها علـى إعوجاج في غير موضع, لا يدرك ذلك بحاسة البصر و لكن بالقياس الهندسي, فنفا الله عز وجل ذلك العوج الذي دق و لطف على الإدراك... [1] » . لقد أجهـد

---

2 ـ الكشاف, ج2, ص 04 .

3 ـ هود, آية 12 .

4 ـ الكشاف, ج2, ص 216 .

5 ـ طه, آية 105 إلى 107 .

1 ـ الكشاف, ج2, ص553 .

الزمخشري فكره من أجل أن يبرر الإنزياح الواقع في صيغة (العِوج) بدل (العَـوج) مستعينا في ذلك بقياس المماثلة التقريبية بينما هو ظاهر و بينما هو خفي.

و إذا إنتقلنا إلى طريقة مغايرة عما سبق في مفاضلة الزمخشري بين الألفاظ, والتي لا تكون بين لفظة و أخرى أو صيغة و أخرى, بل تكون بين ذكر اللفظة أو عدم ذكرها في الجملة القرآنية.

4 ـ المفاضلة بذكر اللفظ أو عدمه :

4.أ ـ أفضلية ذكر لفظة (اللون) :

يبين الزمخشري فائدة ذكر (اللون) في قوله تعالى: ﴿ إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ (2). بقوله« فإن قلت : فهلا قيل صفراء فاقعة و أي فائـدة في ذكر اللون؟ قلت : الفائدة فيه التوكيد لأن اللون اسم للهيئة و هي الصفرة, فكأنه قيل شديدة الصفرة صفرتها, فهو من قولك جد جده و جنونك مجنون (3) ».

4.ب ـ أفضلية ذكر لفظة (القلب) :

تظهر هذه الأفضلية في قول الزمخشري و هو يتناول قوله تعالى: ﴿ ولا تكتموا الشهادة و من يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ (4). ـ« فإن قلت: هلا إقتصر على قوله فإنه آثم, و ما فائدة ذكر القلب, و الجملة هي الآثمة لا القلـب وحـده؟ قلـت: كتمان الشهادة هو أن يضمرها و لا يتكلم بها, فلما كان إثما مقترنا بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ, ألا تراك تقـول : إذا أردت التوكيد هذا مما أبصرته عيني و مما سمعته أذني و مما عرفه قلبي (5) ».

4.ج ـ أفضلية ذكر (الأنفس) :

يعالج الزمخشري هذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿ والمطلقات يتربصـن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ (1). حيث يتساءل عن دلالة هذه اللفظة في تأدية المعنى داخل نظام هذه الجملة القرآنية بقوله:« ... ما معنى ذكر الأنفس؟ قلت: في ذكـر الأنفـس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث لأن فيه ما يستنكف منه فيحملهن علـى أن يتربصن, و ذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال, فأمرن أن يقمعن أنفسهن

---

2 ـ البقرة, آية69 .

3 ـ الكشاف, ج1, ص287 .

4 ـ البقرة, آية283 .

5 ـ الكشاف, ج1, ص406 .

1 ـ البقرة, آية 228 .

و يغلبنها على الطموح و تجبرها على التربص [2] ».

بهذا القدر من الأمثلة حول المحور الأول من دلالة الألفاظ, عن طريق المفاضلة, ننهي الحديث بهذا الشأن لننتقل إلى معالجة المحور الثاني المتعلق بما يلي :

ثانيا ـ دلالة الألفاظ المفردة :

و نريد به إفادة اللفظ المفرد للمعنى دون حاجة إلى مفاضلة بلفظ آخر, و ذلك إنطلاقا من وصف الزمخشري لدلالة كل لفط في سياقه الذي ورد فيه. و يمكن أن نتبين هذه الدلالات من خلال الألفاظ الآتية :

1 ـ دلالة لفظ (السوق) :

يلتمس الزمخشري فرقا معنويا للفظة (السوق) رغم كونها واحدة في وصف المسوق بهم, أهل النار و أهل الجنة, و رغم ورود هذه اللفظة في جملتين معطوفتين, الأولى في قوله تعالى: **﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ﴾** [3], والثانية في قوله عز وجل: **﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾** [4]، في قوله:« فإن قلت: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعا بلفظ السوق؟ قلت: المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان و العنف كما يفعل الأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل, و المراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين و حثها إسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف و يكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين [5] ».

2 ـ دلالة لفظة (الباريء) :

تدل لفظة (الباريء) على حد قول الزمخشري ـ في قوله تعالى: **﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾** [1]. ـ على التقريع لأن« الباريء هو الذي خلق الخلق بريئا من التفاوت ـ ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت ـ ومتميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة و الصور المتباينة, فكان فيه تفريع لما كان منهم من ترك عبادة العالم الحاكم الذي برأهم بلطف حكمته على الإشكال المختلفة, أبرياء من

---

2 ـ الكشاف, ج1, ص365 .

3 ـ الزمر, آية71 .

4 ـ الزمر, آية 73 .

5 ـ الكشاف, ج3, ص411 .

1 ـ البقرة, آية 54 .

التفاوت و التنافر إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة و البلادة [2] ».

3 ـ دلالة لفظة (أطلع) :

يذكر الزمخشري لهذه اللفظة معاني خارج سياق الجملة القرآنية, ثم يبين دلالتها داخل السياق الذي وردت فيه, في قوله تعالى: **﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا, أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾** [3]. ويظهر هذا في تعليقه على جملة (أطلع الغيب) بقوله:« من قولهم أطلع الجبل إذا إرتقى إلى أعلاه و طلع الثنية, قال جرير: لاقيت مطلع الجبال وعورها ويقولون مالي مطلع لذلك الأمر. أي حاليا له ما لكا له, و لإختيار هذه الكلمة شأن, يقول: أوقد بلغ من عظمة شأنه أن إرتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار...[4] » .

و يتم هذا المبحث بتناول المحور الثالث و الأخير من دلالة الألفاظ و الذي إخترنا له العنوان الآتي :

ثالثا ـ دلالة الألفاظ المتجاورة :

و نعني به إرتباط لفظة مع غيرها من الألفاظ في تأدية المعنى في سياق الجملة القرآنية من خلال رأي الزمخشري في حقيقة دلالتها التجاورية.

1 ـ دلالة لفظة (الخشية) مع الرحمن :

ترتبط لفظة (الخشية) مع لفظة (الرحمان) في قوله تعالى: **﴿ من خشي الرحمن بالغيب ﴾** [5] .

هذا الإرتباط أو الإقتران يرى فيه الزمخشري دلالة على زيادة في الثناء على الذي يخشى الرحمان, فيقول:« إن قلت: كيف قرن بالخشية إسمه الدال على سعة الرحمان؟ قلت : للثناء البليغ على الخاشي و هو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة, كما أثنى عليه بأنه خاشي من أن المخشى منه غائب و نحوه ـ و الذين يؤتون ما آتوا قلوبهم وجلة ـ فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات [1] ».

---

[2] ـ الكشاف, ج1, ص281 .

[3] ـ مريم, الآيتين، 77 , 78 .

[4] ـ الكشاف, ج2, ص522 .

[5] ـ ق, آية 33 .

[1] ـ الكشاف, ج4, ص 11 .

2 ـ دلالة لفظة (الحسنة مع المس و السيئة مع الإصابة) :

يجد الزمخشري مبررا مجازيا لتوحيد دلالة إقتران كل من الحسنة مع المس والسيئة مع الإصابة فيقول ـ في قوله تعالى: **﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم و إن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾**[2] ـ « فإن قلت: كيف وصف الحسنة بـالمس و السـيئة بالإصابة؟ قلت: المس مستعار بمعنى الإصابة, فكان المعنى واحدا[3] ».

3 ـ دلالة لفظة (الإضاءة مع كلما) و (الإظلام مع إذا) :

يقف الزمخشري متسائلا عن دلالة هذا الإقتران الوارد في التعبير القرآني في قوله تعالى: **﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه و إذا أظلم عليهم قاموا ﴾**[4].

حيث يقول: « فإن قلت: كيف قيل مع الإضاءة (كلما) و مع الإظلام (إذا)؟ قلت: لأنهم حراص على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي و تأتيه, فكلما صادفوا معه فرصة إنتهزوها و ليس كذلك التوقف[5] »

كما هو بين في الأمثلة التي أوردناها لهذا المحور الثالـث لدلالـة الألفـاظ أن الزمخشري كان يعمد إلى إيجاد علائق دلالية بين الألفاظ المتجاورة في تناسق المعنى المراد من كل جملة من جمل التعبير القرآني.

و بوصولنا إلى نهاية هذا المحور من مستوى دلالة الكلمـة, ننتقـل إلى تنـاول المستوى الثالث من هذا الفصل الثالث من المقياس الدلالي و الـذي يكـون فيـه الحديث حول الجملة.

المبحث الثالث : مستوى دلالة الجملة .

تعرف الجملة في أبسط أشكالها ـ عند اللغويين ـ بأنها أصغر أو أدنى وحدة كلامية[1]. مكونة من مسند ومسند إليه, ووظيفتها نقل أفكـار المُخَاطِـب إلى المخَاطَبُ[2]. و أما أنواعها فإنها تعددت بتعدد نظرة اللغويين إلى طبيعة عناصرها

---

[2] ـ آل عمران, آية 120 .

[3] ـ الكشاف, ج1, ص459 .

[4] ـ البقرة, آية 20 .

[5] ـ الكشاف, ج1, ص220 .

[1] ـ ينظر, مهدي المخزومي, في النحو العربي, نقد و توجيه, المكتبة العصرية, بـيروت, 1964م, ط1, ومصـطفى البـابي و إبراهيم أشين, من أسرار اللغة, مكتبة الانجلو المصرية, 1966م, ط3, ص250, و ريمون طحان, الالسـنة العربيـة, دار الكتاب اللبناني, 1981م, ط2, ج2, ص44.

[2] ـ ينظر مهدي المخزومي, في النحو العربي قواعد و تطبيق على المنهج العلمي الحديث, مطبعة مصطفى البـابي, و المنصـف عاشور, التركيب عند ابن المقفع, ديوان المطبوعات الجامعية, الجزائر, 1982م, ص15.

و وظيفتها في سياق النص. و عليه نجدها عند البعض [3] أربعة أنواع - (إسمية وفعلية و ظرفية و شرطية). و نجدها عند البعض الآخر[4] ثلاثة أنواع (إسمية و فعلية و ظرفية). و قد يختصرها بعضهم [5] في نوعين فقط (إسمية وفعلية).

و قد ترد للجملة أسماء عند القدماء في مثل (الخبرية و الإنشائية و الصغرى والكبرى و الطويلة و القصيرة ...إلخ). كما قد ترد لها مسميات متنوعة عند المحدثين و المعاصرين إذ تعثر لها على مصطلحات جديدة مثل (البسيطة و المركبة و المعقدة والأساسية و الإستثنائية والناقصة والمختزلة والمضمنة والمولدة والمكملة والوجودية الدالة على الكينونة و النواة و النامية و المتنامية ...إلخ) [6]

و نجد لها أيضا في كتب اللغة مصطلحين عامين هما (الجملة التي لها محل من الإعراب والجملة التي لا محل لها من الإعراب). التي لها محل من الإعراب يوردون لها سبعة أنماط وهي: (الواقعة خبرا, الواقعة حالا, و الواقعة مفعولا به, و الواقعة مضافا إليها, والواقعة جوابا لشرط جازم, و الواقعة صفة, و التابعة لجملة لها محل من الإعراب)[7]. و أما التي لا محل لها من الإعراب فيذكرون لها تسعة أنواع و هي: (الإبتدائية والإستثنائية والتعليلية, والإعتراضية والواقعة صلة للموصول الإسمي والتفسيرية والواقعة جوابا للقسم, والواقعة جوابا لشرط غير جازم, والتابعة لجملة لا محل لها من الإعراب)[8].

و على العموم تتحدد معالم الجملة من خلال وضعيتها في بنية النص, فإذا كانت أساسية فإن ما بعدها يكون معطوفا عليها أو بدلا منها, أو بيانا لها أو توكيدا أو تفسيرا أو تعليلا لها [1]. و أما إذا كانت متعلقة بمفرد فإنها تكون إما خبرا أو حالا أو نعتا أو بدلا أو تعليلا أو تفسيرا. كما أنها قد تكون لغيرها من عناصر النص في الجمل الطويلة, إما جوابا للقسم أو جوابا للشرط أو جوابا للطلب[2].

---

3 ـ ينظر ابن يعيش, شرح المفصل, المرجع السابق, ج1, ص88 .

4 ـ ينظر ابن هشام, مغني اللبيب, المرجع السابق, ج2, ص.374

5 ـ ينظر المرجع نفسه .

6 ـ ينظر صبري المتولي, علم النحو العربي, رؤية جديدة, دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع, القاهرة, 2001م, د ط, ص 1399 .

7 ـ ينظر مصطفى غلايني, جامع الدروس العربية, المكتبة العصرية, صيدا, بيروت, 1991, ط23, ص286 , 287.

8 ـ ينظر, المرجع نفسه .

1 ـ ينظر حسين عبد الجليل يوسف, إعراب النص, دار الآفاق العربية, القاهرة, د ت, د ط, ص 14.

2 ـ المرجع نفسه .

نود من وراء سرد هذه الأنواع المختلفة للجملة وضع القاريء أمام تصور عـام ƶعله على دراية بأنماط الجمل التي سنتناولها عند الزمخشري في جانبها الدلاƃ، كما نريد بذلك تبرير عدم إلتزامنا بتقسيم معين لتداخلها كما سبق الـذكر, و منـه سنكتفي بذكر نوع الجملة و الدلالات التي توخاها الزمخشري من موقعها في سياق النǑ.

أولا ـ دلالة الجملة الإئتنافية :

يرصد الزمخشري لهذه الجملة ـ ضمن تواجدها في التعابير القرآنيـة ـ دلالات مختلفة نذكر منها :

1 ـ معا التوكيد :

يستخرج هذا المعنى من قوله تعالى : اا ﭐﺭ الديﮋ ﻋﻨـد اﷲ الإﺳـﻼ ﻡ ا [3].

فيقول معقبا عليها« جملة مستأنفة مؤكدة للجملـة الأولى[4] »، ż يتوغـل في البحث عن دلالة هذا التوكيد فيقول:« فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلـت: فائدته أن قوله: لا إله إلا هو. توكيد, وقوله: قائما بالقسط. تعديل. فـإذا أردف قوله: ـ إن الدين عند الله الإسلام ـ فقد آذن أن الإسلام هو العدل و التوحيـد و هو الدين عند الله و ما عداه فليس عنده في شيء من الدين »[5].

و من المعاني ـ إلى جانب التوكيد ـ التي توصل إليها الزمخشري مـن قراءتـه للجمل الاستئنافية المعنى المواƃ :

2 ـ معا التعليل :

يرصد الزمخشري هذا المعنى في جملة (إنما نملي لهم) ـ من قوله تعـالى: اا **ولا ﻳﺤﺴﺒﻦ الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين** ا [1] ـ فقوله« ما هذه حقها أن تكتب متصلة لأنهـا كافـة دون الأولى و هذه جملة مستأنفة تعليل الجملة قبلها. كأنه قيل: ما بـالهم لا يحسـبون الإملاء خيرا لهم؟ فقيل إنما نملي لهم ليزدادوا إثما[2] ». لم يصل الزمخشري كما هو بين إلى معنى التعليل في هذه الجملة إلا بعد أن لجأ إلى التأويل بقوله (كأنه قيـل)

---

3 ـ آل عمران, آية 19 .

4 ـ الكشاف, ج1, ص418 .

5 ـ المصدر نفسه .

1 ـ آل عمران، آية178 .

2 ـ الكشاف, ج1, ص482 .

وقد ترتب على هذا التعليل أن جُعل إزدياد الإثم غرضا لله, مما دفع بالزمخشري إلى تبرير هذا التعليل بالنفي والقياس الأسلوبي في التعبير العـادي. ويظهـر هـذا في قوله:« فإن قلت: كيف جاز أن يكون إزدياد الإثم غرضا لله تعالى في إملائه لهم ؟ قلت: هو علة الإملاء, و ما كل علة بغرض, ألا تراك تقول : قعدت عن الغـزو للعجز و الفاقة, و خرجت من البلد لمخافة الشر و ليس شيء منها بغرض لك. و إنما هي علل و أسباب, فكذلك إزدياد الإثم جعل علة الإمهال و سببا فيه (3) » .

و لا يتوانى الزمخشري في إستنطاق الجمل الاستئنافية لاستخراج المعاني التي تدل عليها في سياق النص القرآني, ومن بين المعاني ـ زيادة علـى معنيـي التوكيـد والتعليل ـ نجد المعنى الموالي :

3 ـ معنى التبيين و التوضيح :

يفرق الزمخشري بين التبيين و التوضيح فيربط الأولى بالجملة الـواردة في قولـه تعالى: ﴿ هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ (4). يقول :« ...(حاججتم) جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى, يعني أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى و بيان حماقتكم, قلة عقولكم أنكـم جـادلتم (5) » .

ويذكر المعنى الثاني بقوله تعالى: ﴿ قالوا يأبانا ما نبغـي هـذه بضـاعتنا ردت إلينا ﴾ (6). يقول : الزمخشري ـ في جملة (هذه بضـاعتنا ردت إلينـا)« جملـة مستأنفة موضحة لقوله : (ما ينبغي) و الجمل بعدها معطوفة عليها. على معنى : إن بضاعتنا ردت إلينا, فنستظهر بها ...(7) » .

و نبقى مع معاني الجمل الإستئنافية في مثل التعجب و الإنكار و التقرير.

4 ـ معنى التعجب :

يلحظ الزمخشري هذا المعنى في شرحه لقوله تعالى: ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله و ما كانوا مهتدين ﴾ (1) « بقوله في جملة (و ما كانوا مهتدين) للتجارة عارضين بها, و هو إستئناف فيه معنى التعجب. كأنه قيل : ما أخسرهم (2) » .

---

[3] ـ المصدر نفسه, ص482 , 483 .
[4] ـ آل عمران' آية66 .
[5] ـ الكشاف, ج1, ص435 .
[6] ـ يوسف, آية 65 .
[7] ـ الكشاف, ج2, ص331 .
[1] ـ يونس, آية 45 .
[2] ـ الكشاف, ج2, ص239 .

5 ـ معنى الإنكار :

يعين الزمخشري هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ ولوطا إذ قـال لقومـه أتـأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ [3]. فيتساءل عن موقع هذه الجملة السياقي فيقول:« فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: هي جملة مستأنفة أنكر عليهم أولا بقوله : أتأتون الفاحشة, ثم وبخهم عليها، أنكم أول من عملها [4] ».

6 ـ معنى التقرير :

يتجلى هذا المعنى على حد قول الزمخشري في جملة ﴿ بلى من أوفى بعهده ﴾ [5] وذلك في إقراره لهذا المعنى بقوله :«جملة مستأنفة مقررة للجملة التي سدت مسدها [6] ».

و إذا كان لا بد من إجمال القول ـ بعد سردنا لهذه المجموعة مـن الـدلالات والمعاني و التي وقف عليها الزمخشري في تتبعه لأنماط الجمل الاستئنافية ـ يقول إن تنوع هذه المعاني لهذه الجملة يعود إلى تنوع السياق و اختلافه من موقف لآخـر, كما يعود أيضا إلى دقة الزمخشري في فك هذه المعاني الجزئية و تأويلها و الخـروج بها من العموم إلى الخصوص. و لعل الأمر نفسه و الطريقة عينها تتكرر مع الجملة الموالية :

ثانيا ـ دلالة الجملة الإعتراضية :

لقد شكلت أنماط هذه الجملة المتكررة في الخطاب القرآني ظاهرة أسلوبية إهتم بها الزمخشري, ووقف عندها مستوحيا معانيها من سياقاتها المختلفة, و قد إستطاع أن يرصد لها المعاني الآتية :

1 ـ معنى التوكيد:

يمثل لهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ واتخذ الله إبـراهيم خلـيلا ﴾ [1]. يبـين أولا الزمخشري نوع الجملة بعد تساؤله« فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت جملـة إعتراضية لا محل لها من الإعراب. تنحو ما يجيء في الشعر من قولهم ـ الحـوادث

---

3 ـ الأعراف, آية 80 .

4 ـ الكشاف, ج2, ص92 .

5 ـ آل عمران, آية 76 .

6 ـ الكشاف, ج1, ص438 .

1 ـ النساء, آية 125 .

جمة ـ (2) ». Ż بعد ذلك يبين وȘيفتها في سياق النÒ فيقول:« فائدőا تأكيـد وجوب إتباع ملته, لأن من بلηالزلفى عند الله أن إơذ خليلا كان جديرا بأن تتبع ملته وطريقته »(3).

والمعنى نفسه يشير إليه الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ ذلكم فسق ﴾ (4). بقولـه: « وقوله: ذلكم ـ فسق ـ اعتراض أكد به معنى التحريم وكذلك مـا بعـده »(5).

ويستمر معنى التوكيد مع جمل اعتراضية أخرى في مثل قوله تعالى: ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ (6)، وكذا أن معاني أخرى لهذه الجملة يقول:« ... وان تكون جملة اعتراضية مؤكدة؛ ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مذعنون (7) ».

2 ـ معنى التقرير :

يستل الزمخشري هذا المعنى من جملة (و أوتوا به متشابها) مـن قولـه تعـالى : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ (8). فبعد أن يتساءل الزمخشري عن موقعها في نظم (الكلام) Ƶيب بقوله:« ...قلت: هو كقولك فلان أحسن بفلان، ونعم ما فعل، و رأى من الرأي كذا وكذا وكان صوابا، ومنه قولـه تعـالى ـ وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ـ وما أشبه ذلك من الجمل التي تساق في الكلام معترضة للتقرير(1) ».

---

2 ـ الكشاف, ج1, ص566 .

3 ـ المصدر نفسه .

4 ـ المائدة, آية 03 .

5 ـ الكشاف, ج1, ص594 .

6 ـ البقرة, آية 133 .

7 ـ الكشاف, ج1, ص314 .

8 ـ البقرة, آية 25.

1 ـ الكشاف, ج1, ص261 , 262 .

3 ـ معنى الترغيب والتعظيم :

يجمع الزمخشري بين معنيي الترغيب والتعظيم ـ في قوله تعالى: **﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾** [2] ـ بقوله:« جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب ما لا يكتنفه وصف الواصف من التعظيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع وهو الامكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح [3] » .

4 ـ معنى التهكم :

يرى الزمخشري في جملة (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) ـ الواقعة في قوله تعالى: **﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما ﴾** [4] . ـ معنى التهكم فيقول :« ... اعتراض بين الفعل الذي هو (ليقولن) وبين مفعوله وهو (يا ليتني) ... والظاهر انه تهكم لأنهم كانوا أعدى عدو للمؤمنين وأشدهم حسداً لهم، فكيف يوصفون بالمودة إلا على وجه العكس تهكما بحالهم [5] ».

5 ـ معنى الجزاء :

يستنبط الزمخشري هذا المعنى من تحليله لقوله تعالى: **﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه و قال أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رءياي من قبل قد جعلها ربي حقا ﴾** [6]

فيقول:« والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال [1] ».

هذه هي أهم المعاني التي رصدها الزمخشري في تتبعه لظاهرة الجمل الاعتراضية في

---

[2] ـ الأعراف, آية 42 .

[3] ـ الكشاف, ج2, ص79 .

[4] ـ النساء, آية 73 .

[5] ـ الكشاف, ج1, ص541 , 542 .

[6] ـ يوسف, الآيتين، 99 , 100 .

[1] ـ الكشاف, ج2, ص344 .

آي القرآن الكريم. ومنها ننتقل إلى تبيان معاني الجمل الآتية :

ثالثا ـ دلالة الجملة الاسمية :

في مفاضلة بين الجملة الفعلية والاسمية على مستوى سياقي محدد في قوله تعالى: ﴿ ولو أنهم ءامنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ [2] ـ ينتهي الزمخشري إلى تفضيل الاسمية على الفعلية لأنها في نظره انسب إلى تأدية المعنى المراد من توظيف لفظة (المثوبة) الذي هو معنى الثبات والاستقرار. ولعل هذا ما عبر عنه بقوله:« ... فان قلت: كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جـواب لـو؟ قلت: لما في ذلك من الدلالة على إثبات المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع في سلام عليكم لذلك [3]».

يريد الزمخشري بهذه المشابهة ـ في العدول من النصب إلى الرفع أو من الجمل الفعلية إلى الجمل الاسمية ـ إثبات دلالة معنى الثبات والاستقرار في إفادة الجمـل الاسمية عندما تختار بدل الفعلية، وهو بهذا قد يخلص إلى كون الجمل الاسمية تتسم بهذه الدلالة العامة، ولهذا اختارها النص القرآني ويختارها المنشيء للخطاب عنـدما يريد أن يصبغ أفكاره ومعانيه بالثبات والاستقرار.

رابعا ـ دلالة الجملة الفعلية :

تكاد تتحدد المعاني والدلالات التي وصف بها الزمخشري بعض الجمل الفعلية في معنى واحد، وإن تعددت مفرداته في ثلاث صيغ لفظية مختلفـة وهـي (التفسـير والتبيين والتوضيح). وسنتناول كل معنى على حده.

---

[2] ـ البقرة, آية 103 .

[3] ـ الكشاف, ج1, ص 302 .

1 ـ دلالة التفسير :

ويلتمس هذا المعنى الزمخشري في قوله تعالى: **لكن ا! يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى با! شهيدا** [1] إذ يقول:« فإن قلت: ما معنى قوله (أنزله بعلمه) وما موقعه من الجملة التي قبله؟ قلت: معناه انزله متلبسا بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره ... وموقعه مما قبله موقع الجملة المفسرة لأنه بيان للشهادة، وأن شهادته بصحته انه انزله بالنظم المعجز الفائت القدرة [2] ».

2 ـ دلالة التبيين :

ويبرز الزمخشري هذا المعنى ـ وهو يعقب على قوله تعـالى: **إن ا! فـالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحـي ذلكـم ا! فـأنى تؤفكون** [3]. ـ في قوله : « ... (يخرج الحي من الميت) موقعه موقع الجملة المبنية لقوله ـ فالق الحب والنوى ـ لان فلق الحب والنوى بالنبـات والشـجر الناميين من جنس اخراج الحي من الميت لأن النامي في حكم الحيوان[4] ».

3 ـ دلالة التوكيد :

واما هذا المعنى الثالث فيحتويه قول الزمخشري ـ في قوله تعالى: **لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر و المجاهـدون في سـبيل ا! بـأموالهم وأنفسهم فضل ا! المجاهدين بأموالهم و أنفسهم على القاعدين درجة** [5] ـ ـ « ... (فضل الله المجاهدين) جملة موضحة لها نفي من استواء القاعدين والمجاهدين، كأنه قيل : مالهم لا يستوون، فأجيب بذلك [6] ».

---

[1] ـ النساء, آية 166 .

[2] ـ الكشاف, ج1, ص584 .

[3] ـ الأنعام, آية 95 .

[4] ـ الكشاف, ج2, ص3 .

[5] ـ النساء, آية 95 .

[6] ـ الكشاف, ج1, ص555 , 556 .

خامسا: دلالة الجملة القسمية :

ينسب الزمخشري إلى هذه الجملة القسمية – التي أوردها مجتمعه في تعليقه على قوله تعالى: ﴿ ليؤمنن به ﴾ [1] – دلالة واحدة وهي الوصف، فيقـول:« ... (ليؤمنن به) جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف تقديره : وإن مـن أهـل الكتاب أحد ليؤمنن به، ونحوه – وما منا إلا له مقام معلـوم – وان مـنكم إلا واردها – والمعنى : وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى بأنه عبد الله ورسوله[2] ».

سادسا – دلالة الجملة المنفية :

لا يرى الزمخشري مانعا من أن تؤدي الجملة المنفية دلالة الوصف وهو يتعـرض اليها في قوله تعالى: ﴿ إلا المستضعفين مـن الرجـال والنسـاء و الولـدان لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلا ﴾ [3]. فيقول:« ... فإن قلت : الجملة التي هي (لا يستطيعون) ما موقعها؟ قلت: هي صفة للمستضعفين أو للرجال والنسـاء والولدان، وإنما جاز ذلك والجمل نكرات، لان الموصوف، وإن كان فيه حـرف التعريف فليس لشيء بعينه. تقول: ولقد أمر على اللئيم يسبني [4] ».

سابعا – دلالة الجملة الوصفية :

إن من بين المعاني والدلالات التي تؤديها الجمل الواقعة صفات معنى التوكيـد، هذا المعنى هو الذي يقره الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ ولها كتاب معلـوم ﴾ [5]. بقوله :« ... جملة واقعة صفة لقرية، والقياس لا يتوسط الواو بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ﴾ ، و إنما توسطت لتأكيد لصـوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاء زيد عليه ثـوب، وجـاءني وعليـه

---

1 – النساء, آية 159 .

2 – الكشاف, ج1, ص580 , 580 .

3 – النساء, آية 98 .

4 – الكشاف, ج1, ص557 .

5 – الحجر, آية 04 .

ثوب[1] ».

مما تقدم من دلالات لهذه الجمل يمكن أن نخلص إلى القول بأن الزمخشري قد اكتفى بالإشارة إلى دلالة الجمل في علاقتها بما قبلها، أي أنه عالجها في إطار سياقها الداخلي الضيق، ولم يتجاوز بها إلى السياق البعيد، أو ما يسمى بالسياق العام للنص. كما انه لم يتتبع هذه المعاني والدلالات في شكلها الظاهراتي إلا في بعض الجمل القليلة في مثل الجمل الاسمية.

وفي ختام هذا الفصل الثالث نقول: إن الزمخشري قد انتهج منهجا وصفيا في رصد العناصر المكونة للنص القرآني، بدءا بالحرف ثم الكلمة وأخيرا الجملة. وهو بذلك يكون قد حاول دراسة الخطاب القرآني في شكله البنائي، أي يعد في نظر المحدثين من الدارسين البنيويين وإن كان يختلف عنهم في كونه يستعين في بعض الحالات ـ في تعليل تواجد العناصر البنائية في شكلها القرآني ـ بالسياقات الخارجية، كسياق الموقف وسياق الحال وسياقات أخرى تعبيرية نظمية. والبنيويون كما هو معلوم ينطلقون من النص ويعودون إليه.

---

1 ـ الكشاف, ج2, ص387 .

الفصـــل الـــرابع

المقياس التواصلي ومستوياته الإجرائية

المبحث الأول : مستوى التواصـــل بالأصوات

المبحث الثاني : مستوى التواصـــل بالصـــور

المبحث الثالث : مستوى التواصل بالتراكيب

إن اللغة في العموم هي أداة اتصال بين أفراد الجنس الواحـد، سـواء كـانوا حيوانات أم بشر، هذا إذا أطلقنا اللغة مجازا على كل أنواع أدوات الاتصال بـين الكائنات الحية التي تستعمل قنوات معينة في تواصلها فيما بينها، أما إذا اقتصرناها ـ أي اللغة ـ على بني البشر، فإننا نجد لها تعريفات مختلفة، تختلف باختلاف طبيعة تكوينها ووظيفتها، فمن حيث الوظيفة يقول شارل بالي: « ... أن اللغة الطبيعية، كالتي نتكلمها جميعا، ليست في خدمة التفكير الصرف ولا في خدمة الفـن، ولا تأخذ في اعتبارها المثل المنطقي الأعلى، ولا المثل الأدبي الأعلى، وإنمـا وظيفتـها الأولية والثانية ليست إقامة القياسات المنطقية واختتام الجمل وفق التفاعيل الشعرية؛ إنها بكل بساطة، في خدمة الحياة، لا حياة الأقلية بل حياة الكل، وبكل مظاهرها، ووظيفتها بيولوجية واجتماعية »[1] . والى جانب هذه الوظيفة العامة البيولوجيـة والاجتماعية للغة، نجد بعضهم يقصرها على كونها تعبيرا عـن الاغـراض [2]، أو تعبيرا عن الافكار[3]، أو تعبيرا عن الأفكار والوجدان[4].

ولما كان التعبير متعدد الأوجه ومتنوع الأغراض والأهداف، جعل بعض الدارسين أمثال جاكبسون يضع للغة وظائف ستة وهي: المرجعية والانفعاليـة، والإفهاميـة والشعرية والتنبيهية، والانعكاسية[5]، وكل هذه الوظائف الجزئية للغة تتم عن أهمية هذه الأخيرة في حياة البشر فهم « ...لا يعيشون في العالم المادي وحـده ولا في عالم النشاط الاجتماعي بالمفهوم العادي،ولكنهم واقعون تحت رحمة اللغة المعينـة التي اتخذوها وسيلة التفاهم في مجتمعهم » [6].

---

[1] ـ نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، المرجع السابق، ص199، مأخوذ من CHARLES BALLY, LE LANGAGE, ET LA VIE, 3EME ED, GENEVE, SUISE, 1951, P14

[2] ـ ينظر, ابن جني, الخصائص, المرجع السابق، ج1, ص33 ..

[3] ـ ينظر, أنور المرتجي, سيميائية النص الأدبي, افريقيا الشرق, الدار البيضاء, المغرب,1987م, ط1,ص7 , نقلا عن DE SAUSSEURE COURS DE LINGUISTIQUE GENERALE, ED PAYOT , P 99

[4] ـ ينظر, المسدي, النقد و الحداثة, دار الطليعة للطباعة و النشر, بيروت, لبنان,1983م, ط1, ص43 .

[5] ـ ينظر, بيار جيرو, علم الاشارة, ترجمة منذر عياشي, طلاس, دمشق,1988م, ط1, ص29 , 30 .

[6] ـ عاطف مذكور,علم اللغة, بين التراث والمعاصرة, دار الثقافة للنشر والتوزيع, القاهرة,1987م, د ط, ص56

تلك هي بعض ملامح اللغة من حيث وظيفتها الاجتماعية، أما من حيث العناصر المكونة لها فإننا نجد لها وجهات نظر مختلفة منها قولهم :« اللغة مجموعة من النظم والقواعد يتم من خلالها توليد عدد غير محدد من الجمل » [1]، أو أنها « نظام صوتي يتكون من رموز اعتباطية، يستعمله أفراد جماعة لتبادل الأفكار والمشاعر»[2], نفهم من هذا القول أن الأصوات تخضع لعملية تنظيمية تركيبية، لكي تؤدي وظيفتها الدلالية التواصلية، وبهذا تتصف اللغة بكونها « ... إنتاج منسق لأنواع الرموز والدلالات، ومؤداه وظيفة حقيقية في كل خطاب إنساني« ... وعلى ذلك فليست اللغة مجموعة من الأصوات أو الرموز المستقلة بذاتها عن كل دلالة ووظيفة» [3]

وتتألف الأصوات في الأخير لتعطي في البدء (الكلمة), «فالكلمة إذن لا تتكون إلا من أصوات لغوية بالمعنى المصطلح عليه, وهذا الاصطلاح هو الذي يفرق بين لغة ولغة, فكل قوم اصطلحوا على مجموعة من الأصوات يعبرون بتأليفها عن أغراضهم»[4] والعرب من بين هؤلاء الأقوام الذين اصطلحوا على أصوات معينة، عبروا بها عن حاجاتهم واتصلوا بها فيما بينهم، ولما نزل القرآن الكريم خاطبهم بالوسيلة اللغوية نفسها، بأصواتها وصورها وتراكيبها، والذي نود متابعته في هذا الفصل الرابع من البحث هو الوقوف على معالجة الزمخشري لهذه العناصر التواصلية الثلاثة؛ الصوت والصورة، وتركيب الكلام، وسيكون كلامنا وفقاً للمستويات الآتية :

---

[1] ـ مجموعة من المؤلفين: (جلوريا, ج. بوردن, كاترين, س.هاريس, لورانس, ج. رافائيل), مأخوذ من قول سابير (THE STATUS OF LINGUISTIQUE AS A SEINCE) ترجمة محي الدين حميدي, أساسيات علم الكلام, دار الهدى للثقافة والنشر, دمشق,1998م, ط1, ص21

[2] ـ محمد علي الخولي, معجم علم اللغة النظري, مكتبة لبنان, بيروت, 1982م, د ط, ص148 .

[3] ـ تودوروف, شان, سترونج , دوميت, قرزة, بيث, دافدسون, المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث ترجمة وتعليق عبد القادر قنين, ص.44

[4] ـ عبد الصبور شاهين, المنهج الصوتي للبنية العربية, مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي,1977م, ط1,ص26 . .

المبحث الأول: مستوى التواصل بالأصوات .

إذا كان الصوت في اللغة يعني الجرس وجمعه أجراس، وهـو يشـمل صـوت الانسان والحيوان وغيره، والصائت هو الصائح، ويقال رجل صيت: أي شـديد الصوت [1] فانه في الاصطلاح يعني في العموم « تموج الهواء ودفعه بقوة وسـرعة من أي سبب كان» [2]، ويفصل هذا العموم بالقول: « هو صوت مجرد عن تنفس بشيء كالصوت الممتد، وتنفس بصوت ما، والمتنفس نوعان: غير اختياري كمـا يكون في الجمادات والحيوانات، ونوع اختياري كما يكون من الإنسـان وهـو ضربان:

1 ـ ضرب باليد : كصوت العود وما يجري مجراه .

2 ـ ضرب بالفم في نطق وغير نطق .

فالمنطوق منه، إما مفرد من الكلام، وإما مركب كأحد الأنواع من الكلام، وغير المنطوق كصوت الناي [3].

والذي يهمنا من بين هذه الأنواع هو الصوت اللغوي بنوعيه المفرد والمركب؛ أي المفرد غير الواقع في سياق التركيب والمركب ما سيق في نظام لغوي محدد المبنى والمعنى .

أولا ـ الصوت اللغوي المفرد في التركيب :

لا نريد أن نتناول في هذا العنصر كل ما يتعلق بالصوت اللغوي المفرد ـ من حيث مخارجه ومدارجه، وأقسامه وأصنافه، وأحكامه وعلله، ودلائله وخصائصه في أحوال الجهر والهمس،والشدة والرخاوة، وكذا ملامح صوائته وصوامته في السكون وعند الحركة، وضوابطه في الانطباق والانفتاح ـ وإنما نريد أن نقف عند الظاهرة اللغوية التي أطلق عليها الزمخشري اسم (الصوت)سواء كان في شكل

---

[1] ـ ينظر, اللسان, مادة (صوت), ص57، 58.

[2] ـ ابن سينا, أسباب حدوث الحروف, المرجع السابق، ص07.

[3] ـ ينظر الراغب الاصفهاني, المفردات في غريب القرآن, تحقيق: محمد سيد كيلاني, مطبعـة مصـطفى البـابي, القـاهرة, 1961م, د ط, ص288

حرف واحد، أو في حرفين اثنين أو أكثر من ذلك .

ففي مجال الصوت اللغوي الواحد يتعقب الزمخشري ظاهرة تواجد الصوت الذي ينجم من موقع حرف الألف في فواصل الآيات القرآنية، ويعلل ذلك أسلوبيا فيقول « وزيادة الألف [1] لإطلاق الصوت، جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر وفائدتها الوقف، والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف» [2].

من الواضح من كلام الزمخشري انه حاول أن يتكلم عن الصوت الذي يحدث من جراء إطلاق الألف في شكله المفرد، إلا أنه لم يعزله دلاليا عن التعابير التي وقع فيها وإذا انتقلنا إلى الصوت الناجم عن اجتماع حرفين اثنين فإننا نجد الزمخشري يُبيِّن حقيقة هذا الصوت من خلال نمطين أولهما الصوت الذي يفهم من اجتماع (الهاء) مع (الألف) في المركب الحرفي (ها) والذي احتواه التعبير القرآني في قوله تعالى :

﴿ **فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه** ﴾ [3] فيقول الزمخشري في دلالة هذا الصوت : « ... (هاء) صوت يصوت به فيفهم عنه، منه معنى خذ كأف وحِس وما أشبه ذلك» [4]. من خلال هذه المماثلة التي أقامها الزمخشري بين وظيفة هذه الأصوات، نفهم أنه يريد الجانب الصوتي المنعزل دلاليا، بحيث يؤدي وظيفته التواصلية أينما وجد، وفي أي تعبير وُظِّفَ، بنفس المعنى دون تغيير، ولا يريد من وراء المماثلة ـ كما يبدو للوهلة الأولى ـ الاتحاد في الوظيفة الدلالية والتواصلية . والوصف نفسه يطلقه الزمخشري على صوت آخر ناجم عن اجتماع حرفي الألف والفاء في لفظة (أف) التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ **فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما** ﴾ [5]، فيقول:«(أف) صوت يدل على تضجر» [6].

---

[1] ـ (و قالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) السجدة, آية 67 .

[2] ـ الكشاف, ج3, ص275 .

[3] ـ الحاقة, آية 19 .

[4] ـ الكشاف, ج4, ص152 .

[5] ـ الإسراء, آية 23 .

[6] ـ الكشاف, ج2, ص444.

إن تنكير الزمخشري للفظة الصوت يعني انفرادية الدلالة وعموميتها. فهي تنطبق على هذا الصوت في كل مواقعه التي يتواجد بها عبر شبكة اللغة التواصلية.

والى جانب هذه الأصوات التواصلية الناجمة عن حرفين نجد أصـواتا أخـرى تنبعث من اجتماع ثلاثة حروف فما فوق، وهي مركبة تعطـي معـاني ودلالات موجودة في كل مجموعة حرفية واحدة؛ فمثلا الصوت الناجم من اجتمـاع ألـف الوصل والميم والنون في لفظة (آمين) فإنه كما يقول الزمخشري « صوت سُمي به الفعل الذي هو استجب، كما أن رويدا وحَيَّهَل وهلم، أصوات سميت بها الأفعال التي هي أمهل وأسرع واقبل » [1].

لم يفرق الزمخشري في قوله هذا بين بنية الكلمة وتركيبها من الحروف، وبين الصوت الناجم عن هذه البنية وبخاصة في الأفعال المركبة مثل (رويدًا وحيهل)، وهذا الذي لم يفعله الزمخشري مع هذه الاصوات، فعله مع الصوت الناجم عن اجتماع حروف (الهاء والياء والتاء المفتوحة)في لفظة (هيْتَ) الواردة في قوله تعالى: « وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » [2] حيث يفصل الزمخشري بـين البنيـة الحرفية والدلالة الصوتية فيقول « قريء : هيت بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء، وبناؤه كبناء اين وعيط وهيت كجير وهَيْتَ كحيث وهئت : بمعنى تهيأت، يقال : هاء يهيء كجاء يجيء، اذا تهيأ، وهئت لك، واللام من صـلة الفعـل، وأمـا في الأصوات فللبيان كأنه قيل : لك أقول هذا، كما تقول : هلم لك » [3].

ويفصل كذلك الزمخشري بين البنية الحرفية والصوتية في حرف النداء المركـب من (الياء وألف الإطلاق) في لفظة (يا) التي ضمنها قوله تعالى : « يا أيها النـاس اعبدوا ربكم » [4] بقوله :« خطاب لمشركي مكة، ويا حرف وضع في أصـله لنداء البعيد، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه، وأما نداء القريب فله أي، والهمزة،

---

[1] ـ الكشاف, ج1, ص73 , 74.
[2] ـ يوسف, آية 23 .
[3] ـ الكشاف, ج2, ص310 .
[4] ـ البقرة, آية 21.

ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بَعُدَ، فإذا نـودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جـداً » (1).

إن الزمخشري لم يكتف بتبيان وظيفة الصوت الناجم عن حرف النداء (يا)، بل نجده قد فصل في مواطن موضعية يختلف فيها صوت النداء من حالة لأخرى، مـن البعيد الأصلي إلى القريب الإنزياحي الناتج عن حالة التواصل التي يـتحكم فيهـا موقف الحال. وهذه هي التي خولت للزمخشري تغيير تواجد ظاهرة النـداء بـذه الكيفية في القرآن الكريم دون سواه من كلام البشر، ولعل هذا مـا صـرح بـه الزمخشري بقوله :« ... فان قُلتَ :ـلِمَ كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره ؟. قلتُ : لاستقلاله بأوجـه مـن التأكيـد وأسـباب مـن المبالغة...فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ » (2).

يبدو من هذا التفصيل في وصف ظاهرة النداء أن الصوت الناجم عنها يؤدي وظيفة التواصل مهما تغيرت مواقعه وتعددت أحواله .

وإذا انتقلنا مع الزمخشري إلى النوع الثاني من الأصوات والمتمثل فيما يلي :

ثانيا ـ الصوت اللغوي الواقع في التركيب :

ويكون في ظاهرة تكرار الحروف في اللفظة الواحدة وفي تجانسها بين لفظتين اثنتين داخل التعبير السياقي الواحد .

1ـ الصوت المكرر في اللفظ الواحد :

يمكن التمثيل له بلفظتي (صرصر) و(كبكب) حيث يشير الزمخشري إلى المعـاني التي يؤديها تكرار الحروف في هاتين الكلمتين؛ ففي تكرار حرفي الصـاد والـراء مرتين يتوصل الزمخشري إلى إثبات دلالة الشدة في الصوت، ولعله يريد بذا كون الحرفين المكررين يحملان الشدة أثناء النطق، وبالتكرار تزداد هذه الشدة وتقـوى،

---

[1] ـ الكشاف, ج1, ص.224.

[2] ـ المصدر نفسه, ص266.

ولعل هذا ما نستوحيه من قوله :« قوله: (بريح صرصر) والصرصر الشديدة الصوت لها صرصرة »[1]، والجانب التواصلي في هذا الصوت المكرر يكمن في ارتباطه بلفظة (الريح) في قوله تعالى: **﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾**[2]، فالسياق الذي رُكِب فيه هذا الصوت الشديد يوحي بشدة الريح في هبوبها، ومن ثمة تكون رسالة التبليغ قد وصلت إلى المتلقي وأدت معنى التخويف من نفس المصير.

ويبرز الزمخشري الدلالة الناجمة عن تكرار الحروف بوضوح في تكرار حرفي الكاف والباء في فعل (كبكب) الواقع في قوله عز وجل: **﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾**[3] فيقول:« ...والكبكبة تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها »[4]، ولم يُصرح الزمخشري بأن تكرار حرفي الكاف والباء يحدثان صوتا يدل على الحركة المتوالية ولكنه أشار إليه بقوله: (ينكب مرة بعد مرة) أي يتدحرج، ولا يخفى لهذه الدحرجة من صوت يصاحبها وبخاصة إذا كان الكلام عن جهنم حيث يلقى فيها بقوة دون لطف أو روية، ولعل هذا هو الجانب التواصلي الذي نفهمه من فعل الكبكبة في سياقه الخاص للتعبير القرآني .

ولعلنا بهذين المثالين للصوت المكرر في اللفظ الواحد نكون قد بينا الجانب التواصلي فيه، لننتقل إلى الصوت المكرر في لفظتين مختلفتين، وهذا ما سنحاول الوقوف عليه في العنصر الموالي .

2 ـ الصوت المكرر في لفظتين :

يرصد الزمخشري هذه الظاهرة في مجموعة من التعابير القرآنية، ويطلق عليها مصطلح التجانس، ويريد به تكرار بعض الحروف في اللفظتين المتتاليتين

---

[1] ـ الكشاف, ج2, ص.272.
[2] ـ الحاقة, آية 06.
[3] ـ الشعراء, آية 94.
[4] ـ الكشاف, ج3, ص119.

أو المتعاقبتين في السياق الواحد، وقد أشار إلى هذه الظاهرة عندما قابل بين لفظتي (الأسف) و(يوسف) ـ في قوله تعالى: **﴿ وتوБ ﻋﻨ ﻬﻢ وقال يـا أ è ـفـ? ﻋﻠـ? يوè Ʒ ﴾**[1] ـ بقوله:« ...والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمد فيصلح ويبدع ونحوه ـ اِثاقلتم إلى الارض أرضيتم ـ وهم ينهون عنه وينأون عنه، يحسبون أنهم يحسنون صنعاً (من سبأ بنبأ)... »[2].

ففي قوله:(مما يقع مطبوعا غير متعمد فيصلح ويبدعُ) وكأنه يريد إنكار عملية التصنع أي القول عن طريق الزخرف المتكلف الذي يجعل من عملية التواصل غير طبيعية أي مجوجة غير مقبولة، وعليه فالتواصل المقبول يكون عن طريق السجية في استخدام الصوت وتأليف بعضه ببعض بكل عفوية يصحبها جمال ورونق تطرب له النفس ويرتاح له العقل، وهو التواصل الصوتي المرغوب عند الزمخشري من خلال تكرره في الألفاظ المتجاورة في نمط سياقي واحد .

ونكتفي بهذا القدر في الحديث عن التواصل بالصوت بنوعيه المفرد والمركب من هذا المبحث لنتناول تواصل آخر يتم عن طريق الصورة من خلال المبحث الموالي:

المبحث الثاني: مستوى التواصل بالصور .

قبل الولوج في تتبع هذا النوع من التواصل ـ من خلال الأمثلة التي وقف عندها الزمخشري في الكشاف ـ نحاول تحديد معالم الصورة التي نريد تناولها في هذا المبحث.

تتعدد معالم الصورة بتعدد أوجهها، فهي قد تكون فيزيائية أو رياضية أو نفسية أو فوتوغرافية أو سينمائية أو لغوية[3] ، والذي يهمنا من هذه الصور هي الصورة ذات التعبير اللغوي المصحوب بالزخرف الأسلوبي، ولهذه الصورة تعريفات مختلفة يمكننا التدرج في سردها بغية الوصول إلى الماهية الأخيرة التي تتناسـب وطبيعـة

---

[1] ـ يوسف, آية 84.

[2] ـ الكشاف, ج2, ص338.

[3] ـ ينظر, جوزيف ميشال شريم, دليـل الدراسـات الأسـلوبية,المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنشـر والتوزيـع, بيروت,1407هـ, 1987م , ط2, ص70.

موضوع مبحثنا هذا .

تعرف الصورة عند البعض بأنها « الكلمة الوحيدة الصالحة لتشمل كل نوع من أنواع التشبيه وعلى كل ما هو في الحقيقة تشبيه مكثف - أي الاستعارة »[1]، وتعرّف أيضا بكونها « تعبير لغوي عن تماثل ما »[2] أو أنها « زخرف أسلوبي يقوم على التشابه بين مدلول ودال صفاتهما الجوهرية متطابقة أو متشابهة»[3] ، وعليه يمكن أن يدخل تحت هذه التعريفات كل ماله علاقة بالمشابهة أو المماثلة مثل التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل والتورية والرمز ...الخ.

وإذا كانت هذه على العموم أهم العناصر الرئيسية للصورة المبنية على التعبير اللغوي فما هي يا ترى وظيفتها التواصلية ؟.

لا نحتاج إلى جهد كبير في تبيان وظيفة الصورة بعامة واللغوية بخاصة في إجراء العملية التواصلية بين أفراد المجتمع اللغوي الواحد، إذ ترتبط وظيفة الصورة المبنية على التعبير اللغوي بوظيفة اللغة في حد ذاتها، أي أنّ الكلام في شكله العام « ... هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبيّن مراتبها ويكشف عن صورها ويجني صنوف ثمرها ويدل على سرائرها ويبرز مكنون ضمائره, وبه أبان الله تعالى الإنسان عن سائر الحيوان »[4]. وخاصة الإبانة هذه هي التي أطلقها علماء البلاغة قديما على بعض عناصر الصورة اللغوية، بل اصطلحوا على تسميتها بـ (علم البيان)، أي أنها تبيّن ما هو غامض وتجسد ما هو عقلي مجرد، وتوصله إلى المتلقي في عملية التواصل بينه وبين الباث للرسالة اللغوية .

وانطلاقا من هذه الوظيفة العامة التي تؤديها الصورة اللغوية، نحاول الكشف عن الوظائف الخاصة بكل نوع من أنواعها، وبخاصة البارز منها كالمبنية على المماثلة أو المبنية على المغايرة .

---

[1] ـ المرجع السابق .

[2] ـ المرجع نفسه .

[3] ـ المرجع نفسه .

[4] ـ عبد القاهر الجرجاني, أسرار البلاغة, المرجع السابق، ج1, ص295 .

أولا ـ الصورة المبنية على المماثلة :

وهي ثلاثة أضرب؛ ضرب مبني على مقاربة الواقع، وآخر على تجاوزه، وثالث على الإعارة. وسيكون كلامنا في التنظير حول الضرب الأول والثالث من الصورة المبنية على المماثلة، على أن نترك التمثيل للضرب الثاني أثناء عملية التطبيق في الأمثلة القرآنية من الكشاف. وعليه سنبدأ حديثنا عن الضرب الأول والذي نعنونه بالعنوان الآتي .

1 ـ الصورة المبنية على مقاربة الواقع (التشبيه) :

من وظائف هذه الصورة « أنها تعبر عن أشياء محسوسة ومحددة، وعليـه فإنهـا تؤدي إلى تعديل رؤية الأشياء »[1]، وخلاف ذلك لو قابلنا أشياء عقلية مجـردة بأخرى نظيرة لها، فإنها لا تقوم بنفس الوظيفة، وتزداد وظيفة معادلة الأشياء أكثـر إذا كانت الصورة أبلغ في الربط بين العناصر المتقابلة في عملية تعـديل الأشـياء وتقريبها من بعضها البعض .

2 ـ الصورة المبنية على الإعارة (الاستعارة) :

والشائع فيها عند البلاغيين القدامى والمحدثين لفظ (الاسـتعارة) وقـد لقيـت اهتمامهم وتقديرهم الكبيرين، ونالت إعجابهم الباهر، إلى درجة أنهم جعلوها على رأس علوم البيان شرفا ورفعة، وذلك في كونها تمتاز بمميزات يذكر بعضا منها عبد القاهر الجرجاني بقوله:« ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيـان أبـدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا، وتوجب له بعد الفضل فضلا .. ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر ... وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها، ولا رونق لها ما لم تزنها، ونجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها، وإن شئت أرتك

[1] ـ صلاح فضل, علم الأسلوب, المرجع السابق، ص319 .

المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جُسمت حتى رأتها العيـون، إن شئت لطفت الأوصاف الجثمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون»[1].

وإذا كان عبد القاهر ـ وهو من القدماء ـ قد أفاض وتوسع في تبيان حقيقـة الاستعارة ووظيفتها التواصلية في تجسيد المعاني وتبليغها إلى المتلقي، فإننـا نعـذر المحدثين الذين لم يدخروا جهدا في الانبهار بوظيفة الاستعارة التواصـلية، حيث قصروا البلاغة عليها وأصبحت الصور عندهم لا تعني إلا الاستعارة [2]. ويعني هذا أنها تفوقت على باقي العناصر البيانية الأخرى، مثل التشـبيه والكنايـة، وبـهذا أصبحت في نظرهم « ... التعبير البياني المطلق أو المحسن اللفظـي الأول أو نـواة البلاغة أو قلبها أو جوهرها أو كل شيء فيها تقريبا »[3].

وانطلاقا من هذا الوصف الموحي بالدور الهام للصورة المبنية على الإعارة في توصيل الرسالة من الباث إلى المتلقي، نكون قد أوجزنا أهمية هذه الصور في ظل المماثلة، لننتقل إلى تبيان الدور التواصلي للصور المبنية على المغايرة في العنصر الموالي.

ثانيا ـ الصور المبنية على المغايرة :

وهي على ضربين .

1 ـ الصورة المبنية على التوافق مع الحقيقة (التشبيه):

وهي عند البلاغيين القدامى إما« ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك»[4]، أو « ...أن يكنى عن الشيء ويعرض بـه ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء »[5]، أو« هي اللفـظ الدال على الشيء غير الوضع الحقيقي ومنـها جـامع بـين الكنايـة والمكنـى

---

[1] ـ عبد القاهر الجرجاني, أسرار البلاغة, المرجع السابق، ج1, ص136 , 137.

[2] ـ ينظر, جوزيف ميشال شريم, دليل الدراسات الاسلوبية, المرجع السابق، ص.71

[3] ـ المرجع نفسه، نقلا عن -G. GENETTE , FIGURES III ,P31.

[4] ـ السكاكي, مفتاح العلوم, ضبط وشرح نعيم زرزور, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, 1983م, ط1, ص402.

[5] ـ أبو هلال العسكري, الصناعتين, تحقيق عقيد قميحة, دار الكتب العلمية, بيروت, 1401هـ ,1981م,ط1, ص407.

عنه،...»[6]، أو هي« التعابير البيانية المبنية على التوافق قوامها تسمية شـيء مـا باسم شيء آخر يشكل مثله كلا مستقلا تماما، إلا أنه مدين للآخر، أو أن الآخـر مدين له بوجوده أو بطريقة وجوده »[1].

وإذا تحدثنا عن الوظائف التي تقوم بها هذه الصور فإنها كما قيل:«تقوم بالوظائف عينها التي تقوم بها الاستعارة, وأن الصورة التي تقوم بها الأخيلية عينها التي تكتسبها الصورة الإستعارية » [2],وعليه يمكن القول أن الصورة المبنية على التوفيـق بـين العناصر المطروحة في أسلوب تعبير ما تفيد _إلى جانب الإيجاز وتحسين الكلام ـ نقل الخبر وإيصاله إلى المتلقي بطريقة مشوقة يجد فيها هذا الأخير المتعة النفسية وهو يصل إلى بناء الصورة التي أرادها منشيء الخطاب,ولا تخلو هذه الصورة في عملية التواصل من استخدام إحدى العناصر الآتيـة (التلـويح و الرمـز أو الأسمـاء, أو الإشارة) ويحدد السياق وظيفة كل عنصر من هذه العناصر في مـبنى الصـورة ووظيفتها [3].

إذا كانت الصورة في الأنماط السابقة لا تخلو من جانب الحقيقة ـ مع تفاوت بينها في ذلك في عملية التواصل التي تؤديها إلى المتلقي ـ فإنها تختلف فيما سيأتي من عملية ـ التواصل التي تتم بطريقة تجاوز الحقيقة إلى المجاز, وهذه ما سنتعرف عليه من خلال العنصر الموالي .

2_ الصورة المبنية على تجاوز الحقيقة :

ويثار في هدا المجال مبدأ التفريق بين الحقيقة والمجاز بعامة ,وهو موضـوع طويـل ومتشعب قد يأخذنا بعيدا عن هدفنا المنشود من تبيان حقيقـة الصـور المجازيـة

---

6 ـ ابن الاثير الجزري, المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر, تحقيق الشيخ كامل محمد محمد عويضة, دار الكتب العلميـة, بيروت, لبنان, 1419هـ, 1998م, ط1.

1 ـ جوزيف ميشال شريم, دليل الدراسات الأسلوبية, المرجع السابق، ص75,

مأخوذ من P. DANTANIER,OPUS,CIT P79

2 ـ المرجع نفسه, ص76.

3 ـ ينظر, السكاكي, مفتاح العلوم, المرجع السابق، ص403.

ووظيفتها ,وبالرغم من هذا نستأنس بقول ابن جني في تفريقه بين الحقيقة والمجاز في قوله :«الحقيقة ما أُقِر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة, والمجاز ما كان بضد ذلك ,وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعاني ثلاثة وهي:الاتساع، والتوكيد, والتشبيه, فإن عُدِم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة » [1].

لا نريد أن نناقش ابن جني ـ في قوله هذا ـ فهو كما يبدو يمتاز بعمومية القـول ودقته في التفريق بين استعمال اللفظ في وضعه الحقيقي المتواضع عليه أصحاب هذه اللغة فيما بينهم وبين استخدامه خلاف ذلك, فهو ما استخدم مخالفـا للحقيقـة وبالتالي.فهو استخدام مجازي ,ولا يفوتنا في هذا المقـام أن نتجـاوز رأي شـيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني في تعريفه:« المجاز مفعل من جاز الشيء يجـوزه إذا تعداه, وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معـنى أنهـم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا, ثم اعلم بعـد:أن في إطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطا, وهو أن يقع نقله على وجه لا يعرى معه من ملاحظة الأصل, ومعنى الملاحظة أن الاسم يقع لما تقول,انه مجاز فيه يسبب بينه وبين الذي تجعله حقيقة فيه... »[2].

والذي يهمنا من هذا هو ما مدى قيمة وفعالية هذه الصورة في عملية التواصل بين أفراد المجتمع الواحد يقول السكاكي مبينا هذه القيمة بقوله:«واعلـم أن أربـاب البلاغة وأصحاب الصياغة للمعاني ,مطبقون على أن المجاز أبلـغ مـن الحقيقـة ...والسبب في أن المجاز أبلغ من الحقيقة هو ما عرفت أن مبنى المجاز على الانتقـال من الملزوم إلى اللازم, فأنت في قولك, رعينا الغيث, ذاكرا الملزوم: النبت مريدا به لازمه, بمنزلة مدعي الشيء ببينة, فان وجود الملزوم شاهد لوجود اللازم, لامتنـاع إنفكاك الملزوم عن اللازم, لادعاء إنفكاكه عنه, إلى كون الشيء ملزوم, غير ملزوم باعتبار واحد, وفي قولك: رعينا النبت : مدع للشيء لا ببينة, و كم بين ادعـاء

[1] ـ ابن جني, الخصائص, المرجع السابق، ج2, ص.442.

[2] ـ عبد القاهر الجرجاني, أسرار البلاغة, المرجع السابق، ج2, ص277 إلى 280.

الشيء ببينة وبين ادعائه لا بها»[3].

وإذا كان التعبير بالصورة المجازية أبلغ من التعبير بالحقيقة, فإن هذا يعني الدور الهام و الفعال الذي تؤديه هذه الصورة في قوة الوصل بين الباث و المتلقي عن طريق ما تحمله الرسالة من عناصر التأثير العقلي الذي يتجاوز الحقيقة ليعود إليها بعد إحالة فكر و تدبر عقل.

وبعد هذا الطرح الموجز لكل من الصور الأربعة بماهيتها ووظائفهـا مسـتقلة نستطيع الوقوف عليها مجملة من خلال نظرة بعض الأسلوبيين المحـدثين لوظيفـة الصورة في شكلها العام, ومن بين هذه الوظائف التي حددوها للصـورة نـذكر: الوظيفة الانفعالية الإيحائية, والشاعرية, والكليشية. فالوظيفة الانفعالية التعبيرية تفيد في توضيح شخصية الكاتب أو المؤلف أو الباث أو المرسل للرسالة أو الخطـاب, وأما الوظيفة الإيحائية فإنها تفيد في التلميح دون التصريح نحو شيء ما بطريقة غـير مباشرة, فهي تقدم خدمة للقاريء في فهم وإدراك المعنى وهي كما قيل:«فعل يقيد القاريء بلا علم منه» [1] وأما الوظيفة الشاعرية فإنهـا مسـتمدة مـن نظـرة جاكبسون لوظيفة اللغة و التي يعرفها بقوله:«... هي التي تسقط مبدأ التعادل من محور الانتقاء على محور التوفيق» [2], فهي تقوم إذا بانتقاء ما يمكن وضعه فيمـا يظن الناظم أنه يحتاج إلى تعديل ليؤدي به إلى التقويم الذي هو مبدأ التوفيق علـى رأي جاكبسون.

وهذه الوظيفة يمكن أن تكون على نمطين: الأول يكمن في كونها شـكلا مـن أشكال تجسيد الفكرة التي يحملها الناظم, ويقول آخر هي:« التي ترمي إلى التعبير عما يتعذر التعبير عنه وحتى إلى الكشف عما يتعذر معرفته» [3], والثاني يـبرز في عملية التضمين, تضمين الانفعالات والشـحنات العاطفيـة إلى القـاريء عـبر

---

[3] ـ السكاكي, مفتاح العلوم, المرجع السابق, ص412 , 413.

[1] ـ جوزيف ميشال شريم, دليل الدراسات الأسلوبية, ص79, مأخوذ من S. ULLMANN ,ART, CIT, P41

[2] ـ المرجع نفسه مأخوذ من R. JAKO BSON. OPUS, CIT, P220

[3] ـ المرجع نفسه, مأخوذ من CHARL. BRUNEAU, ART, CIT, P67

الكلمات.

وتأتي الوظيفة الرابعة للصورة وهي (الكليشة) أو الكليشية, و يراد بها تميز الكـلام الشاعري الأدبي من غيره من الأساليب الأخرى [1].

إن الهدف الذي نقصده من وراء سردنا لهذه الصورة بوظائفها هو وضع القاريء أمام تصور عام لوظائف الصور التواصلية, قبل أن نلج في تبيانها من النماذج القرآنية التي تناولها الزمخشري بالشرح و التفصيل.

وبعد أن وصل بنا الحديث إلى هذا الحد, نعود إلى نقطة البدء لنتتبع مستويات التواصل بالصور التي عالجها الزمخشري في كشافه, وتكون البداية بالصورة الموالية:

أولا ـ الصورة المبنية على المماثلة :

يشير الزمخشري ـ في كلام موجز ـ إلى وظيفة المماثلة, أو المشـابهة عنـدما تعرض إلى قوله تعالى: **﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾** [2].

فيقول: « إنّ الأمثال و التشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأسـتار حتى تبرزها وتكشف عنها وتصورها للافهام, كما صور هذا التشبيه الفرق بـين حال المشرك وحال الموحد» [3]. وتنطوي تحت هذه الصورة الصورتان الآتيتان:

1 ـ الصورة المبنية على مقاربة الواقع:

إن الوظيفة التوصيلية ـ في جل لأمثلة التي سنوردها من القرآن الكريم ـ تتمثل في الواقع سواء تعلق الأمر بأمور الدنيا أو بأمور الآخرة, وعليه يمكن تقسيم هذا الواقع إلى قسمين:

أ ـ تقريب الواقع الدنيوي:

يتعرض الزمخشري إلى تبيان مشهد من المشاهد الذي رسمته المفـردات اللغويـة الواقعة في قوله تعالى: **﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم مـن ظهـورهم ذريتـهم**

---

1 ـ ينظر, جوزيف ميشال شريم, دليل الدراسات الأسلوبية, المرجع السابق، ص.80

2 ـ العنكبوت, آية .43

3 ـ الكشاف, ج3, ص207.

وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا (4) فيقول: «... من باب التمثيل و التخييل ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركّبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقرّرَهُم وقال لهم: ألستُ بربكم، وكأنهم قالوا: «بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه الصلاة و السلام - وفي كلام العرب، ونظيره قوله تعالى:(إنما قولنا لشيء إذا أردناه، أن نقول له كن فيكون)، (فقال لها وللأرض ائتِيَا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين)،... معلوم أنه لا قول لهم وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى» (1).

كما هو بين في قول الزمخشري من خلال هذا المشهد - أنه أوجز وظيفة هذه المماثلة أو بالأحرى هذه الصورة المبينة على التمثيل في جل أمثلة القرآن الكريم بالقول: (إنما هو تمثيل و تصوير للمعنى) - يعني أن الوظيفة الرئيسية الناجمة عن حيثيات عناصر الصورة بفرعيها الممثل و الممثل به والمشبه والمشبه به - هي تقريب الواقع و تجسيده للعيان، أي إيصال ما هو غامض أو خفي أو بعيد عن الإدراك إلى ذهن المخاطب أو المتلقي. وإذا كانت هذه الصورة أدت وظيفة التواصل عن طريق المماثلة دون أن تحتوي على أدوات التمثيل المعروفة، فإن الصورة الموالية - والتي وقف عندها الزمخشري في قوله تعالى: **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** (2)، فيقول الزمخشري: « هذا من التشبيه المركب، شبهت حال

---

4 - الأعراف، آية 172

1 - الكشاف، ج2، ص129

2 - يونس، آية 24

الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال الله نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعد ما إلتف و تكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه (فإختلط به) فإشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا (أخذت الأرض زخرفها وإزينت), كلام فصيح, جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين وأصل (إزينت), تزين فأدغم» (1).

لقد أجمل الزمخشري في القول Ż فصل في أجزاء الصورة الناجمة عن المشابهة والمماثلة حيث جعل منها صورا حية تقرب ما هو غامض من اجتماع عدة عناصر متغايرة في الأمكنة ومتفاوتة في الزمن.

والأمثلة على هذه المشاهد التي صورها القرآن الكريم عن طريق المشابهة و المماثلة كثيرة وبخاصة ما تعلق بتقريب الحياة الدنيا في مشاهد مختلفة.

وللتنويع في الأمثلة نتناول مشهدا من المشاهد التي تقرب حقيقة ما يكـون عليـه الاعتقاد بوجود الخالق عز وجل. والمتمثل في قوله تعالى: ‖ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن با ! فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ‖ (2), فيقول الزمخشري مبينا صورة هذا المشهد التواصلي بين اعتقاد المخلوق وحقيقة الخالق: «... مـن الحبل الوثيق المحكم المأمون إنفصامها, أي إنقطاعها, وهذا تمثيل للمعلوم والنظـر والاستدلال بالمشاهَد المحسوس, حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه فـي يحكم إعتقاده والتيقن به» (3).

ونبقى مع المشاهد التي تقرب الجانب العقدي وθسد حقيقتـه أمـام السـامع أو المتلقي في صورة تواصلية بين الخالق و المخلوق, يقول تعالى: ‖ **ومن يشرك با ! فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به** في **مكان سحيق** ‖ (4).

[1] ـ الكشاف, ج2, ص.233

[2] ـ البقرة, آية .256

[3] ـ الكشاف,ج1, ص387 .

[4] ـ الحج, آية .31

يعقب الزمخشري على هذه المشاهد المكونة لهذه الصور التقريبية بقوله: «... يجوز في هذا التشبيه أن يكون المركب والمفرق, فإن كان تشبيهها مركبًا, فكأنه قيل: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده بغاية بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مُزَعاً في حواصلها, أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة, وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء, و الذي ترك الإيمان و أشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة, و الشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة » [1].

ومن المشاهد الدنيوية الأخرى المتعلقة بتقريب الواقع, ما تمثله الزمخشري في جمعه لمشاهد متعددة في بناء صور حية, تمثل العلائق بين المتخيل والواقع المحسوس. يقول في قوله تعالى: ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءا, وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم** ﴾ [2] مفصلا هذه المشاهد: «... قدم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له, خلقهم أحياء قادرين أولا لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها, والسبب من التمكن من العبادة والشكر وغيرها, ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لابد لهم منه, وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه, ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيبة المطنبة على هذا القرار, ثم ما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة و المظلة بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل المنتج من الحيوان من ألوان الثمار رزقا لبني آدم » [3].

هذه الأمثلة التي سقناها تعالج و تقرب بعض مناحي الحياة الدنيا, ونتنقل الآن إلى النماذج التي تقرب واقع الحياة الأخرى وذلك من خلال العنصر الآتي.

---

1 ـ الكشاف, ج3, ص 13.

2 ـ البقرة, آية 22.

3 ـ الكشاف, ج1, ص233

ب ـ تقريب الواقع الأخروي:

يوضح الزمخشري لنا المشهد المرسوم في قوله تعالى: **﴿ وكنتم على شفا حفـرة من النار فأنقذكم منها ﴾** [4], تبيان ما يكون عليه بعض خلق الله فيقول: « فإن قلت: كيف جعلوا على حرف حفرة من نار؟ قلت: لو ماتوا على ما كانوا عليـه وقعوا في النار, فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار القعود على حرفها مشفين على الوقوع فيها » [1].

ومن المشاهد التي تتعلق بيوم القيامة ما حاول الزمخشري تفصـيل معالمهـا وهـو يتعرض إلى قوله تعالى: **﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها, وترى الناس سكارى ومـا هـم بسـكارى ﴾** [2], فيقـول: « والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه, وما هم بسكارى على التحقيق, ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه, وقيل تراهم سكارى من الخوف ومـا هـم بسكارى من الشراب» [3].

وحلقة التواصل التي كونها هذا المشهد تتمثل في تقريب حالة الإنسان وهو في السكر المعنوي في الآخرة, لحالة سكره وهو في الدنيا, وبذا تكون الرسالة قد وصلت إلى المتلقي واضحة المعالم لا لبس فيها.

إلا أننا قد نعثر على مشاهد أخرى لا تحتوي على نفس القدر من وضوح الصورة لكافة المتلقين لها, ولعل هذا ما حاول الزمخشري تبيانه في قوله: « **الذين يـأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**»[4], إذ يقـول: «... أي المصروع, وتخبط الشيطان من زعمات العرب, يزعمـون أن الشـيطان

---

[4] ـ آل عمران, آية .103

[1] ـ الكشاف, ج1, ص.452

[2] ـ الحج, آية .02

[3] ـ الكشاف, ج4, ص .325

[4] ـ البقرة, آية .275

يخبط الإنسان فيصرع, والخبط: الضرب على غير استواء كخبط العشواء, فـورد على ما كانوا يعتقدون, والمس: الجنون, ورجل ممسوس, وهذا أيضا من زعماتهم, وأن الجني يمسه فيختلط عقله, وكذالك جن الرجل معناه: ضربته الجن, ورؤيتـهم لهم في الجن قصص وأخبـار وعجائـب, وإنكـار ذالـك عنـدهم كإنكـار المشاهدات»[1], يريد الزمخشري ـ رغم تحفظه من قصص العرب حول الجـن ـ أن يبني تصورا متينا لعملية صرع الجن للإنسان, فقال: (وإنكار ذالـك عنـدهم كإنكار المشاهدات), أي أن المشاهد الوهمية أصبحت عند العرب حقيقة, وعليها بني المشهد الثاني الذي يكون عليه صنف من الناس يوم قيام الساعة.

إذاً فوظيفة التواصل التي كونتها هذه الصورة في الربط بين المشهدين قد تصل إلى بعض من شاهد صرح الجن للإنس، ولكنها لا تصل إلى الذي لم يشاهدها، والذي يعوّل عليه الزمخشري في هذا هو الاعتقاد الجازم لحدوث هذه العملية عند العرب الذين خاطبهم القرآن الكريم بما يدركون، فالرسالة وصلتهم واضحة ويمكنهم نقلها إلى غيرهم ممن لا يتقن لغتهم، ولم يعرف ما يعرفون من حقيقة مس الجن للإنس .

ولا نريد في هذا العنصر أن نأتي على كل الصور المبنية على مقاربة الواقع بشقيه الدنيوي والأخروي ـ من خلال المشابهة أو المماثلة ـ بل نكتفي بهذا القدر، لنتحول إلى معالجة نماذج الصور التي تتجاوز الواقع إلى الخيال ويكون ذلك من خلال العنصر الموالي .

2/ الصور المبنية على مجاوزة الواقع (الخيال) :

ونكتفي في هذا المجال بذكر مثالين أو بالاحرى صورتين اثنتين كان الخيال فيهما ـ كما قال الزمخشري ـ العنصر الرئيسي في جمع مشهدي كل صورة، بـالرغم من عدم وجود عناصر التمثيل وأدواتها؛ ويبرز الزمخشري الصورة الاولى المبنية على

---

[1] ـ الكشاف, ج1, ص398 , 399 .

التخييل في قوله تعالى: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ (2)، بقوله: « ...وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل، الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته» (3). لقد حاول الزمخشري ـ بقوله هذا ـ تقريب موقف الحوار الذي وقع بين الخالق جلّ ذكره، والمخلوق (النار) فبناه على التخييل، ولم يبنه على الحقيقة، ولعله فعل ذلك لبعد تصور هذا الموقف من التصور، فكأن الخيال هو المقرب لهذا المشهد والموضح له.

أما الصور التخييلية الثانية فيستنبطها الزمخشري من قوله تعالى: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ (1)، فيقول:« ...(لا تجد قوما) من باب التخييل، خيّل أن من الممتنع المحال أن تجد قوما يوالون المشركين، والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون وحقه أن يمتنع، ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم » (2).

قد لا يكون هناك خيال أو تصور على الإطلاق في مضمون الآية، ويكون تفسيرها بكل سهولة ووضوح كما قيل:« أي يوالون من خالف الله ورسوله والمعنى: لا تجتمع موالاة الكفار مع الإيمان، والمراد به الموالاة في الدين »(3).

ونحن بهذا لا نريد أن نعارض الزمخشري فيما ذهب إليه، وإنما نريد الإشارة فقط إلى كونه ذهب بعيدا في رسم المشهد الخيالي لشيء قد يكون حقيقة إذا ما فهمناه فهما عاديا.

بانتهاء هذين المشهدين من المشاهد التي تجاوزت الحقيقة إلى الخيال نتحول إلى مشاهد أخرى ولكن هذه المرة عن طريق نوع آخر من التصوير أطلقنا عليه العنوان

---

2 ـ ق, آية 30.

3 ـ الكشاف, ج4, ص09.

1 ـ المجادلة, آية 22.

2 ـ الكشاف, ج2, ص78.

3 ـ الطبرسي, مجمع البيان, المرجع السابق, ج6, ص19.

الآتي :

3 ـ الصورة المبنية على الإعارة (الاستعارة) :

لقد سبق أن حددنا نظريًا حقيقة وأهمية ووظيفة هذه الصورة في جانبها النظري، ونحاول الآن سرد بعض النماذج القرآنية التي وقف عندها الزمخشري مبينًا جوانب التصوير والبلاغة في تأدية عملية التواصل بين المشرع والمشرع له، ويمكن أن نقسمها قسمين؛ قسم تكون فيه الاستعارة عن طريق الأفعال، والثاني تكون فيه عن طريق الأسماء والصفات .

أ ـ القسم الأول: الإعارة عن طريق الأفعال:

من بين الأفعال التي يمكن التمثيل لها في كونها استعيرت ـ على حد قول الزمخشري ـ أفعال كل من (الشراء، التفرغ، القيام).

يأتي فعل (الشراء) في قوله تعالى: **﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا﴾** [1]، ويأتي فعل (التفرغ) في قوله عز وجل: **﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾** [2] ، كما جيء فعل (القيام) في قوله جل ذكره : **﴿يوم يقوم الحساب﴾** [3].

فيبرز الزمخشري في الآية الأولى أنه لا حقيقة لفعل الشراء، وأنه ورد فيها عن طريق الإعارة لا غير؛ فيقول:« ...و الإشتراء : استعارة للاستبدال كقوله تعالى:(اشتروا الضلالة بالهدى)، وقوله: كما اشترى المسلم إذا تنصرا، وقوله: إني شريت الحلم بعدك بالجهل، يعني ولا تستبدلوا بآياتي وإلا فالثمن هو المشترى به » [4].

يريد الزمخشري ـ من وراء هذا ـ القول: إن فعل الشراء لم يكن على الحقيقة، بل إنه أدى وظيفة أخرى هي عملية الاستبدال لأنه لا يوجد ثمن حقيقي مدفوع، ولا عملية شراء حقيقية قامت بين هؤلاء المشترين والمشترى منهم.

والطريقة نفسها يسلكها الزمخشري مع الفعل الثاني (التفرغ)، حيث أخرجه من

---

[1] ـ البقرة, آية 41.

[2] ـ القمر, آية 31

[3] ـ إبراهيم, آية 41.

[4] ـ الكشاف, ج1, ص276.

الفعل الحقيقي إلى الفعل المجازي الذي يتعلق بعدم جواز تصوره لأنه فعل من أفعال الله تعالى، ومن ثمة كان لزاماً أن يقترن بالإعارة بدل الحقيقة فيقول:« ...(سنفرغ لكم) مستعار من قول الرجل لمن يتهدده: سأفرغ لك, يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك حتى لا يكون لي شغل سواه, والمراد التوفر على النكايـة فيه والانتقام منه, ويجوز أن يراد, ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها وتنتهي عند ذلـك شئون الخلق التي أرادها بقوله: (كل يوم هو في شأن)، فلا يبقى إلا شأن واحد هو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل » [1].

والوظيفة التواصلية التي يمكن استخلاصها من قول الزمخشري ـ حول إعارة هذا الفعل(سنفرغ) ـ هي عملية التخويف التي حملها هذا الفعل، سواء وظف حقيقة أم مجازاً، لأن التفرغ للشيء يعني الاهتمام به وإعطاؤه ما يستحقه سواء أكان خيراً أم شراً .

وإذا جئنا إلى الفعل الثالث والأخير وهو(القيام)، فإننا نجد الزمخشري يلتمس له نماذج مماثلة من كلام العرب حتى يثبت له الجانب الإعاري ويخرجه من الاستعمال الحقيقي له في هذه الآية، فيقول:« ...(يوم يقوم الحساب) أي: يثبت، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها، ونحوه قولهم: ترجلت الشمس إذا أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رِجْل.. » [2].

ومايمكن فهمه ـ من قول الزمخشري هذا ـ أنّ هذه الصورة الإعارية المبنية على فعل(القيام)، تؤدي وظيفة التجسيد المتعلقة بتحقق فعل الحساب الذي يكون فيه التفاضل بين أفعال البشر.

هذه بعض الأمثلة من أمثلة الإعارات التي تتم عن طريق الأفعال، وننتقل الآن إلى القسم الثاني من الإعارات .

---

[1] ـ الكشاف, ج4, ص.47

[2] ـ المصدر نفسه, ج2,ص.382

ā ـ الفصل الثاني: الإعارة في آيات الأسماء والصفات :

الأمثلة من هذا القبيل كثيرة نكتفي بذكر ثلاثة منها علـى سـبيل التمثيـل لا الحصر؛ الأولى تظهر في قوله تعالى: ﴿ هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت ﴾ [3]، حيث يقول الزمخشري مبيناً وضعية لفظة(هنالك) في سياق الآيـة:« ...في ذلـك المقام، وفي ذلك الموقف أو في ذلك الـوقت علـى استعـارة اسـم المكـان للزمان »[1].

يريد الزمخشري أنّ الإشارة الواقعة في الآية تشير إلى الظرف الزماني الذي سيقع يوم القيامة، وأنها لا تشير إلى الظرف المكاني الذي تدل عليه في الحقيقـة اللفظـة (هنالك)، ولعل الزمخشري لم يشر إلى الوظيفة التي أفادتها هذه اللفظـة في عمليـة توصيل الرسالة التي أرادها التعبير القرآني والتي مفادها في تقديم الظرف « للاهتمام به لأن الغرض الأهم من الكلام لعظم ما يقع فيه» [2].

ومما أورده الزمخشري على أنه إعارة من الحقيقـة إلى الاسـتخدام المجـازي، لفظة(الوارثون) الواردة في قوله تعـالى: ﴿ وإنا لـنحن نحـي ونميـت ونحـن الوارثون ﴾ [3]، فيقول:« ...أي: الباقون بعـد هـلاك الخلـق كلـه، وقيـل للباقي:وارث، استعارة من وارث الميت، لأنه يبقى بعد فنائه، ومنه قوله ـ ρ ـ في دعائه "واجعله الوارث منا"... »[4]. ويريد الزمخشري بهذا القول تنزيه الله تعالى من صفات خلقه، فجرّد لفظة (الإرث) من الحقيقة وحمّلها المعنى المجـازي علـى أساس أنها قامت بوظيفة تقريب الموقف الذي يكون بعد فناء الخلق جميعا، إذ يئول برمته إلى خالقه.

ويلتمس الزمخشري استعارتين في لفظتي (الظلمات والنور) المتجـاورتين في قولـه

---

[3] ـ يونس, آية .30

[1] ـ الكشاف,ج2, ص.235

[2] ـ ابن عاشور, التحرير والتنوير, المرجع السابق، ج10, ص.153

[3] ـ الحجر, آية .23

[4] ـ الكشاف, ج2, ص.390

تعالى: **﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم﴾** [5] ، فيكتفي بالإيجاز وعدم التفصيل في كيفية الإعارة التي وقعت، والغرض الذي تؤديه في عملية توصيل المعنى، فيقول:« ...والظلمات والنور استعارتان للضلال والهدى » [1] وكان باستطاعته التوسع في شرح هاتين الاستعارتين بالقول:« ...و(الظلمات والنور) استعارة للكفر والإيمان، لان الكافر يجعل صاحبه في حيرة، فهو كالظلمة في ذلك، والإيمان يرشد إلى الحق، فهو كالنور في إيضاح السبيل،وقد يستخلص السامع مع ذلك تمثيل حال المنغمس في الكفر بالمتحير في ظلمة، وحال انتقاله إلى الإيمان بحال الخارج من الظلمة إلى مكان نير » [2].

بهذا القدر من الأمثلة نكتفي في الحديث عن أنماط الصور المبنية على المماثلة لنتحول في حديثنا إلى نوع آخر من الصور تكون فيه المغايرة هي السمة البارزة من هذه الصورة .

ثانيا: الصورة المبنية على المغايرة :

ويدخل تحت هذه المغايرة نوعان من الصور، صور تعتمد على التوافق في إبراز الحقيقة من وراء الكلم، وصور ترتكز على تجاوز الحقيقة عن طريق توظيف الكلم توظيفا مغايرا لحقيقته، وهذا ما سنتعرض له فيما يلي .

1 ـ الصور المبنية على التوافق مع الحقيقة :

لقد سبق القول بأن هذه الصور تعتمد على ما تعارف عليه البلاغيون بالكناية عن الأشياء التي لا يصرح بها مباشرة، أي أنها ـ كما رأينا ـ الاعتماد على إخفاء الحقيقة المراد الوصول إليها عن طريق توظيف مفردات اللغة، بحيث يستخدم المتلقي فكره ليبلغ المعنى المطلوب من التعبير الكنائي .

والزمخشري لم يتوان في الإشارة إلى مثل هذه الصور ذات البعد الخفي المحجوب

---

[5] ـ إبراهيم, آية 01.

[1] ـ الكشاف, ج2, ص365.

[2] ـ ابن عاشور, التحرير والتنوير, المرجع السابق، ج13, ص180.

خلف بعض مفردات التعبيرات القرآنية، ولم يصرح الزمخشري بلفظ الصورة الكنائية، إلا أنه من خلال كلامه يرسم لنا صوراً يبحث فيها عن مكونات اللفظة التي يشير إليها، ويمكننا أن نذكر بعض هذه الألفاظ في مجمل القول: (الدخول، التغشي، الخشوع، البهتان).

فاللفظة الأولى احتواها قوله تعالى: ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن﴾ [1]، والثانية تمثلت في قوله عز وجل: ﴿فلما تغشاها حملت حملا خفيفا﴾ [2] ، والثالثة في قوله جلّ ذكره: ﴿خشعا أبصارهم﴾ [3]، وأما الرابعة فقد ضمنها الآية الكريمة: ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ [4].

لقد سلك الزمخشري – في تبيين صورة الكناية – بنفس الطريقة التي سلكها في الاستعارة حيث كان يجمل القول ولا يفصل في الأنواع التي هي في حقيقة الأمر تمثل الوظائف الأساسية للصورة؛ ولما أنه لم يفعل ذلك، فإننا نكتفي بذكر مجمل القول الذي تحدث فيه عن الكناية خلف الألفاظ السابقة، ففي لفظة (الدخول) يقول:« فإن قلتَ: ما معنى (دخلتم بهن)؟ قلت: هي كناية عن الجماع، بنى عليها وضرب عليها الحجاب؛ يعني: أدخلتموهن الستر » [5].

ويريد بلفظتي (البناء والضرب) أي أفعال تشبه لفظة (الدخول) في إخفاء الفعل الحقيقي وهو الجماع، ولم يشر الزمخشري إلى الوظيفة التي حملتها هذه اللفظة وهي الجانب الأخلاقي المطلوب سلوكه في حياة الفرد المسلم وبخاصة فيما يتعلق بمباشرة النساء .

ويكرر الزمخشري مضمون الكناية نفسها مع لفظة (التغشي) بقوله:« والتغشي

---

1 - النساء, آية 23.

2 - الأعراف, آية 189.

3 - القمر, آية 07.

4 - الممتحنة, آية 12.

5 - الكشاف, ج1, ص 517.

كناية عن الجماع، وكذلك الغشيان والإتيان » [6].

كما لا يذهب بعيداً مع لفظة (الخشوع)، بقوله:« وخشوع الأبصار كناية عن الذلة والإذلال، لأن ذِلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما » [7]، فتفسيره للخشوع بالذلة يفيد مظهراً من مظاهر الخنوع والخضوع أمام الذي هو أقوى وأعلى من الخاشع، ولعل هذه هي الوظيفة الرئيسية التي تُفهم من المساق الذي وردت فيه هذه اللفظة (خُشعاً)، أي: أن الخشوع فُرِضَ عليهم من طرف آخر، لم يستطيعوا أمامه رفضاً أو مقاومة .

ويحاول مع اللفظة الرابعة و الأخيرة – (البهتان) – التعمق في البحث عن الحقيقة الكامنة وراء هذه اللفظة، فيقول:« ...كنى بالبهتان للمفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه لزوجها كذباً، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين » [1].

إن الزمخشري في هذا الطرح لم يتطرق في شرح الكناية من اللازم إلى الملزوم لأن ميلاد الطفل غير الشرعي تسبقه طرق غير شرعية، وهو في نهاية المطاف باطل وبهتان مفترى فيه كذباً وزوراً .

والقول المجمل في هذه الصورة المبنية على إخفاء الحقيقة والتعبير عنها بطريق الكناية لم يلتزم فيها الزمخشري طرق العلائق التي سلكها البلاغيون في الوصول إلى حقيقة المُكنى ووظيفة الكناية التواصلية بين مغزى الصورة وذهن المتلقي، بل اكتفى بالإشارة الخاطفة، واللفظ الموجز دون أن يتعمق في تبيان وظيفتها التواصلية في الخطاب القرآني .

بانتهاء حديثنا حول بعض نماذج هذه الصورة – التي تختفي فيها الحقيقة – ننتقل إلى الحديث حول بعض نماذج الصورة التي تتجاوز الحقيقة.

---

6 – المصدر نفسه, ج2, ص 136.

7 – المصدر نفسه, ج4, ص 36.

1 – الكشاف, ج4، ص 94 , 95.

2 ـ الصور المبنية على تجاوز الحقيقة :

ونريد بها ما ورد من صور كانت الألفاظ التي انبنت عليها معالمها لم ترد على الحقيقة وتجاوزتها إلى المجاز المقابل للحقيقة، وهدفنا في هذا، هو أن الزمخشري عندما يستخدم لفظة (المجاز) فإنه لا يفرق بين أنواعه سواء اللغوي أو العقلي أو الحكمي ...الخ. فنجده يطلق المصطلح دون تمييز، اللهم إلا في بعض النماذج عندما يفصل في عملية إسناد الأفعال فإنه يشير إلى تعريفه تعريفا دقيقا مفصلا دون أن ينسبه إلى أي نوع من أنواع المجاز، وسيتضح معنا هذا كله عند تعرضنا لبعض النماذج المختارة من عدد كبير من المجازات، ولعل أول مثال نتناوله في هذا الغرض هو قوله تعالى: **﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾** [1] ، فينطلق الزمخشري من جملة (فما ربحت تجارتهم)، ليقيم تساؤلا عن حقيقة إسناد فعل الخسران إلى التجارة، فيقول:« فإن قُلتَ: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها ؟ » [2] ، ثم يجيب معللا هذا الإسناد بقوله:« قُلْتُ : هو من الإسناد المجازي» [3]، ولا يكتفي بهذا الجواب، بل نجده يفصل في حقيقة الإسناد فيقول: « ...وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له، كما تلبس التجارة بالمشترين »[4] ، ثم أنه لا يتوقف عند هذا الحد، بل يستمر في وضع احتمالات وجوازات أخرى فيقول: « فإن قلتَ: هب أن شراء الضلالة والهدى وقع مجازا، فما معنى الاستبدال، فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثمة مبالغة على الحقيقة ؟ قلتُ: هذا من الصيغة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا، وأن تساق كلمة مساق المجاز ثم تُقفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن ، لم تَرَ كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا وهو المجاز المرشح » [5] .

---

1 ـ البقرة, آية 16.

2 ـ الكشاف, ج1, ص141 ., 143.

3 ـ المصدر نفسه .

4 ـ المصدر نفسه .

5 ـ المصدر نفسه, ص141 إلى 143

وللبحث عن الوظيفة التواصلية في هذه الصورة المجازية ـ بعد إسهاب الزمخشري في شرحها ـ نقول: إنها تمثلت في تقريب حقيقة الخارج من الهدى والداخل إلى الضلال ـ وهي الجانب العقلي ـ عن طريق مشهد الخسران في التجارة التي هي الجانب المرئي في كونها نشاطا بشريا معلوما لكافة الناس .

وإذا كان الزمخشري قد بالغ في تحقيق وتدقيق المجاز في هذا المثال فإنـه في المثـال الموالي ـ في قوله تعالى: **﴿ فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتـركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾**[1] ـ لا يفعل ذلك، إذ نجده يختزل الكلام ويوفره فيقول: « فإن قلتَ: كيف صحّ في النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد؟، قلتُ: هو خارج عن طريق المجاز المرشح فأحسن تدبيره »[2] ، حيث تقتـرب النـار المجازية من الحقيقة في كون كل منهما يترك الأثر المظلم لمن فقدها، وما دامت هذه الأخيرة معلومة لدى المتلقي، فإنه لا يعدم أن يربط نتائج ذهابا بالنار المعنويـة أو المجازية ـ كما قال الزمخشري ـ ومن ثمة تكون وظيفة هذه الصورة التواصلية قد بلغت مرادها بدقة متناهية .

ولعل الزمخشري يريد بقوله ـ في هذين المثالين ـ (المجاز المرشح)، الاستعارة المرشحة لأنه لم يرد في كتب البلاغة وبخاصة التي قننت لها في مثل كتاب المفتاح للسكاكي، أي تسمية من هذا القبيل، وهذا يعني ـ كما قلنا ـ أنه لم يفرق بين الاستعارة والمجاز بنوعيه المرسل والعقلي .

ويلتمس الزمخشري كذلك المعنى المجازي في جملة (تفيض من الدمع) ـ الواقعة في قوله تعالى: **﴿ ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾**[3] ـ بعد أن يسأل عـن المعـنى الغريب، بقوله:« ...قلتُ: معناه تمتلىء من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلىء الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض الذي هو من الامـتلاء،

---

[1] ـ البقرة, آية 17.
[2] ـ الكشاف, ج1, ص200.
[3] ـ المائدة, آية 83.

وهو من إقامة المسبب مقام السبب »[4] ، وكأنه يريد القول: بأن المجاز هنا يخضع للعقل كما خضع في المثالين السابقين في الوصول إلى نتيجة القـول بعـد طـرح المقدمات، ولم يشر الزمخشري إلى الوظيفة التي يمكن أن تؤديهـا هـذه الصـورة المجازية، لأنه لم يذهب إلى القول بأن الصورة « منسوجة علـى منـوال القلـب للمبالغة، قلت قول الناس المتعارف، أفاض الدمع من عين فلان، فقيـل: أعينـهم تفيض من الدمع » [1].

إن الاستمرارية في سرد الأمثلة التي وردت فيها المجازات ـ على حـد قـول الزمخشري ـ يجعلنا نقع في التكرار الممل، وعليه ننهي هذا المبحث بتناولنا لصورة مجازية لم يصرح فيها الزمخشري بلفظ المجاز بالرغم من كون معالم المجاز واضـحة فيها، وأنها أصبحت مثالا يحتذى به في التمثيل للمجاز؛ وهذه الصورة تبرز في قوله تعالى: **﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾** [2] فيقول فيها الزمخشري:« فإن قلتَ: رأس الأصبع هو الذي يجعل في الأذن، فهلا قيل: أناملهم؟، قلتُ: هو من الاتساعات في اللغة، التي لا يكاد الحاصر يحصرها، كقوله: (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ـ فاقطعوا أيديهما) أراد البعض الذي هو المرفـق الـذي إلى الرسغ، وأيضا فهي في ذكر الإصبع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل » [3].

وبعد هذا الحديث الموجز حول التواصل بالصورة بنوعيها: المبني على المماثلة والمبني على المغايرة، نكون قد أتينا على نهاية المبحث الثاني من هذا الفصل، لنتحول إلى المبحث الثالث والاخير منه، والذي سيكون بالعنوان التالي .

المبحث الثالث : مستوى التواصل بالترا كيب .

قد تسأل فتقول: ما علاقة التواصل ـ في صفته نظرية قائمة بذاتها ـ بالتراكيب التي هي الأخرى ضرب من التأليف له قوامه الخاص به ؟ فتقول: إن عملية التواصل

---

4 ـ الكشاف, ج1, ص .638.

1 ـ ابن عاشور, التحرير و التنوير, المرجع السابق، ج7, ص 10

2 ـ البقرة, آية .19.

3 ـ الكشاف, ج1, ص214 , .217.

لا يمكن أن تتم إلا عبر انتظام الكلام وتآلفه في جمل مفيدة، وهذا الانتظام و التآلف يخضع لقواعد ونواميس تنظيمية. كما يتألف من عناصر متنوعة تجسده وتبرزه وتسمه بخصائص ومميزات تتحدد وفق مقتضيات اللغة التي ينتهي إليها « إذ لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلام وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من إحكام النحو، فلا يتصور أن يكون هاهنا (فعل) أو (اسم) قد دخلته الاستعارة دون أن يكون قد ألف مع غيره »[1].

وإذا عدنا إلى مصطلح (التراكيب) وحاولنا أن نجد له معنى يحدده أو شكلا ينظمه لوجدنا إن التركيب في اللغة يعني وضع الشيء فوق بعضه البعض[2]. وفي اصطلاح البلاغيين يعني في عمومه (النظم) [3] بمفهومه الواسع لا الضيق كما هو عند البعض والمنحصر في جهات ثلاث ، الحروف والكلمات والجمل [4] – وان كانت هي الأصل في عملية التركيب والبناء – كما انه لا ينحصر في مراعاة معاني النحو فقط، بل نريد به كل العناصر المكونة للخطاب الذي « ... ينظر إليه في الدراسات الأسلوبية على انه بنية لغوية وكيفية تتكون من وحدات لغوية تتضافر فيما بينها بطريقة منسقة منسجمة مع ذاتها لتحدث أثرا تواصليا وجماليا وفق الجنس الأدبي الذي تتحد فيه كمعيار له أنساقه وخواصه الجمالية وسماته الأسلوبية »[5].

ومن هذا التصور العام للتراكيب حق للبعض إن لا يشك في « ... إن التركيب في حد ذاته أنماط من التراكيب؛ تركيب عادي في الحياة اليومية، وتركيب لساني عام يراعي خصائص كل لغة، وتركيب منطقي، وتركيب أسلوبي، وتركيب فردي مستقل، و تركيب توازني يراعي نفس القواعد المعيارية، وتراكيب لاإئية تراعي

---

1 ـ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، المرجع السابق، ص 393 .

2 ـ ينظر: ابن منظور ، اللسان مادة (ركب) ص 432 .

3 ـ (و يقوم لنا في دلائل الإعجاز عدة ألفاظ مرادفة لمصطلح النظم و هي التأليف و التركيب و الترتيب كما شبهه بالبنـاء و الوشي و التعبير و التقويف و الصياغة و التصوير و النسج و النقش) عمر أوكان ، اللغة و الخطاب ص 85.

4 ـ ينظر الرافعي ، إعجاز القرآن ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، 1393هـ ، 1973 م ، ط 9 ، ص 211 .

5 ـ نور الدين السد ، الأسلوبية وتحليل الخطاب، المرجع السابق، ص 216 .

التقنيات اللسانية المتماشية مع مقتضيات الخطاب »[6].

نريد من وراء هذا القول أن مفهوم التركيب في الكلام بعامة لا يمكن حصره في عناصر محددة، لأن واضع الكلام كما قال عبد القاهر الجرجاني« ... مثل من يأخذ من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة »[1] وعندما يصير الكلام قطعة واحدة فلا يمكن أن نقصره على بعض مكوناته عندما نتناوله بالدراسة والتحليل.

وما دمنا قد تطرقنا فيما سبق إلى كثير من العناصر المكونة للخطاب وبخاصة فيما تعلق بمكوناته الأساسية (الحرف والكلمة والجملة)، فإننا سنحاول التطرق إلى ما تبقى من العناصر المكونة للخطاب في وظيفته التركيبية التواصلية.

وعندما نقول أننا سنتناول هذه التراكيب فإننا لا ننطلق من تصورنا لهذه التراكيب، بل تعتمد في الأساس على نظرة الزمخشري لها والتي تتمثل عادة في تبيان خروجها عن الأنماط المألوفة في التراكيب العادية وعليه ستكون العناوين الجزئية لهذا المبحث في الغالب الأعم مصاغة في هذا القالب ، بدءا بما يلي:

أولا: التراكيب المبنية على التقديم والتأخير:

إن الذي سنوليه العناية في هذا العنصر هو طبيعة المقدم أو المؤخر في دلالته التواصلية ولا يهمنا في ذالك إن كان المقدم أو المؤخر فعلا أو فاعلا أو مبتدأ أو خبرا ... الخ.

والأمثلة التي اثبت فيها الزمخشري ظاهرة التقديم والتأخير كثيرة ومتنوعة وقد يطول الكلام حولها، وعليه نكتفي بذكر بعض منها مما رأيناها تبرز خاصيته التوصيلية للمعاني القرآنية. ويكون ذالك بذكر اللفظة المقدمة ثم اللفظة المقدم عليها ثم الآية التي وردتا فيها، ثم تبرير الزمخشري لهذا التقديم وقد يسعفنا في هذه العملية الجدول

---

[6] ـ عبد الجليل مرتاض، التحليل اللساني البنيوي للخطاب، دار الغرب للنشر والتوزيع، بيروت لبنـان، 2001 ، 2002 ، ص62، 63 .

[1] ـ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المرجع السابق، ص37 .

المواƃ:

اللفȘ المقدم	اللفȘ المقدم عليه	النǅ القرآني الواردان فيه	تبرير الزمخشري لهذا التقديم
1 ـ الوصية	الدين	«ﻣﻦ بعد وصية يوصى ﺑﻬا أو دين» النساء 11	لان إخراجها مما يشق على الورثة . ينظر: الكشاف,ج1,ص508,509
2 ـ غض البصر	حفȘ الفرج	« قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن» النور 31	النظر بريد الزنا ورائد الفجور ينظر: الكشاف, ج3, ص61
3 ـ الرسول (ص)	النبيين (نوح، إبراهيم، موسى، عيسى)	« وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم» الأحزاب 7	لبيان مكانته وفضله على العالمين . ينظر: الكشاف,ج3,ص252
4 ـ الموت	الحياة	« خلق الموت والحياة » الملك 2	ليضع الناسي الموت نصب عينيه. ينظر: الكشاف,ج4,ص134
5 ـ اليهود	الذين أشركوا	« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » المائدة 82	لشدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم للحق. ينظر: الكشاف,ج1,ص636
6 ـ الجبال	الطير	«وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير » الأنبياء 79	تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في (الإعجاز) ينظر: الكشاف,ج2,ص580
7 ـ الصابئين	النصارى	« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى » الحج 17	الصابئون أبين هؤلاء المعدودين ضلالا واشدهم غيا ينظر: الكشاف,ج3,ص 3
8 ـ الدعاء بالغفران	تثبيت الأقدام	« ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في امرنا وثبت أقدامنا » آل عمران 147	ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة واقرب إلى الاستجابة ينظر: الكشاف,ج1,ص469
9 ـ الوعد	الرسل	«فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله» ابراهيم47	قدم الوعد ليعلم انه لا يخلف الوعد أصلا فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته ينظر: الكشاف,ج2,ص384,383
10 ـ العبادة	الاستجابة	« إياك نعبد وإياك نستعين» الفاتحة 5	تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها. ينظر: الكشاف,ج1,ص66,65

إذا أردنا أن نفصل أكثر في العملية التواصلية التي نجمت عن ظاهرة التقديم والتأخير في هذه الأمثلة – انطلاقا من تبريرات الزمخشري لها- نبدأ من المثال الأول من قول الزمخشري« فان قلتَ: لم قدمت الوصية على الدين، والدين مقدم عليها في الشريعة؟ قلتُ: لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض كان إخراجها مما يشق على الورثة وبتعاظمهم ولا تطيب أنفسهم بها فكان أداؤها مظنة للتفريط، بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه. فلذلك قدمت على الدين بعثا على وجوبها والمسارعة إلى إخراجها مع الدين، ولذلك جيء بكلمة أو للتسوية بينهما في الوجوب » [1].

فإذا إنتقلنا إلى المثال الثاني المتمثل في قول الزمخشري : « فإن قلت : « لما قدم غض الأبصار على حفظ الفروج ؟ قلت : لأن النظر بريد الزاني و رائد الفجور والبلوى فيه أشق و أكثر»[2] ،.يمكن لنا أن نفهم من كلام الزمخشري – أن الرسالة التي تود الآية القرآنية إيصالها إلى المتلقي هي أن حفظ البصر معناه تلقائيا حفظ للفرج ، فلولا البصر لما مال الإنسان إلى الفجور الذي يكون الفرج ميدانا له، ولذلك وجه الأمر إلى الطرفين الأنثى والذكر على حد سواء، لأنه لو كان أحدهم أعمى والثاني بصير لكانت الغواية من الثاني أكثر، ذكرا كان أم أنثي.

يوحي كلام الزمخشري بأن فحوى الخطاب الذي تريد الآية القرآنية إيصاله إلى المؤمنين يتمركز حول احترام رغبة الإنسان المؤمن في صفتها أمانة تبليغ، والأمانة عظيمة عند الله، وبالتالي فعلينا تعظيمها وتطبيقها في واقعنا المعيش . ولعل احترام الرغبة يتعلق حتميا باحترام الكلمة والكلمة – كما هو في الدين – أمانة، والأمانة مطلوب شرعا تأديتها إلى أهلها، لأنها تمثل في حياة المسلم المحور الأساسي

---

[1] ـ الكشاف ، ج1 ، ص 508 ، 509 .

[2] ـ المصدر نفسه ، ج3 ، ص67.

لصلاح حياته الاجتماعية.

وفي المثال الثالث يقف الزمخشري موقف المدقق في فحوى التقديم الذي حوته الآية الكريمة فيقول: « فإن قلت: لم قدم رسول الله صلى الله وسلم على نوح فمن بعده؟ قلت: هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم، فلما كان محمد ρ أفضل هؤلاء المفضلين قدم عنهم لبيان أنه أفضلهم. ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه. فإن قلت: قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه وهي في قوله: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك) Ż قدمه على غيره؟ قلت: ورود هذه الآية خلاف طريقة تلك؛ وذلك أن الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والإستقامة. فكأنه قال: شرع لكم من الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث. وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير...) [1].

بالرغم من أن مضمون الرسالة الذي حملته هذه الآية يمكن أن يختصر في كون نبينا محمد ρ أفضل الأنبياء أجمعين، إلا أن الزمخشري تعمق في قراءة هذه الرسالة ومقابلتها بنظيرتها في آية أخرى، ليبين أن مساق هذه الرسالة يختلف عن مساق الرسالة الأخرى. وهو بذلك يقدم لنا قراءة تحذيرية لكي لا يلتبس أمامنا الموقفان؛ تقديم لغرض وتأخير لغرض آخر.

وفي المثال الرابع يقدم لنا الزمخشري قراءة منطقية للخطاب الوارد فيها فيقول:

« قدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه، فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم »[2].

ففي قوله: (فقدم لأن فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم) يعني أن الخطاب يريد أن يوصل إلى المتلقي حتمية الموت التي يجب أن يضع لها ألف حساب، فهي البداية في التفكير والنهاية في تقرير المصير وعليه يجب أن يكون مدار أفعاله وأقواله

---

1 ـ الكشاف ، ج3 ، ص 252 .

2 ـ المصدر نفسه ، ج4 ، ص 134 .

مرتبطا للاتمية هذه النهاية التي يئاول إليها مهما طال عمره.

وإذا انتقلنا إلى المثال الخامس- الذي قدم فيه (اليهود) على (الذين أشركوا)- نجد الزمخشري يفصل لنا مضمون الخطاب الوارد في الآية بقوله: « وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق ولين عريكة النصارى وسهولة ارعوائهم وميلهم إلى الإسلام وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين بل نبه على قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا. وكذلك فعل في قوله:- ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا- ولعمري إنهم لكذلك وأشد..» [1]. بعد تفصيل مضمون الخطاب يوجزه الزمخشري بقوله: (إنهم لكذلك وأشد) وهي العداوة المتأصلة فيهم منذ القدم. ولعل هذا ما أرادت الآية تبليغه إلى المسلمين كافة عبر تواجدهم في مختلف الأزمنة والأمكنة.

وأما التقديم الذي ورد لـ (الجبال) على الطير في المثال السادس فيقدم له الزمخشري قراءة منطقية فيقول: « فإن قلت لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت: بتسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق»[2].

ففحوى الخطاب كما بين الزمخشري يكمن في البرهان على أن قدرة إنطاق الجماد أمر معجز بالنسبة لإنطاق الحيوان، ومن ثم تكون القدرة أقوى على فعل أي شئ قد يتعدى إدراك المتلقي.

ويذهب الزمخشري بعيدا في تعليل مضمون الرسالة التي حملتها الآية الكريمة، والتي تقدم فيها ذكر الصابئين على النصارى بقوله: « فإن قلتَ: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة فما فائدة هذا التقديم؟ قلتُ: فائدته التنبيه على أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدهم غيا، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبئوا على الأديان كلها أي خرجوا... فإن قلتَ : فلو قيل : والصابئين وإياكم لكان التقديم حاصلا ؟

---

[1] ـ الكشاف، ج1 ، ص 637 .

[2] ـ المصدر نفسه، ج2 ، ص 580 .

قلتُ: ولو قيل هذا لم يكن من التقديم في شيء لأنه لا إزالة فيه عن موضعه وإنما يقال
مقدم ومؤخر للمزال لا للقار في مكانه »[1] .

لقد حصر الزمخشري فائدة هذا التقديم في وظيفة التنبيه على شدة ضلالة هذه الفرقة (الصابئة) إلا أن موقعها قبل النصارى وبعد المؤمنين واليهود لا ينبئ بذلك، ولعلنا نفهم من هذا السياق أن فرقة الصابئة تعد انسلاخا عن دين من هذه الأديان، ولعلها تكون أقرب إلى دين النصارى، فقدمت على هؤلاء لتشد انتباه المتلقي فيتساءل عن حقيقتها في العبادة والانتماء.

ويشير الزمخشري إلى طبيعة التقديم الذي ورد في المثال الثامن حيث قدم الدعاء بالمغفرة على تثبيت الأقدام في الحرب فيقول: « والدعاء بالإستغفار هنا مقدم على تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو وليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهرة وخضوع وأقرب إلى الإستجابة » [2].

يرمي الزمخشري بهذه القراءة لهذا الخطاب القرآني إلى القول بوجوب تصفية الحسابات مع الله أولا، ثم طلب النصرة أو طلب تحقيق أي شيء في هذه الحياة الدنيا. وبخاصة ما يتعلق بأمر المؤمن، لأن الكافر حياته تختلف عن حياة المؤمن.

وإذا جئنا إلى البحث عن فحوى التقديم الواقع في المثال التاسع، فإننا نجد الزمخشري يقدم له قراءة مبنية على الإستنباط العقلي فيقول: « فإن قلتَ: هلا قيل: مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟ قلتُ: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا (إن الله لا يخلف الميعاد) ثم قال: رسله ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه إخلاف المواعيد. كيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته » [3] .

---

1 ـ الكشاف ، ج 3 ، ص 08.
2 ـ المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 469 .
3 ـ المصدر نفسه ، ج2 ، ص 383 ، 384 .

يريد الزمخشري بهذا القول أن يوصل لنا مدلول الخطاب الذي يبنى على المنطق في تحليل فحوى الأشياء؛ فالذي يتصف بعدم إخلاله للوعود في كل الأمور ومع جميع الناس، فكيف يخلفه مع أقرب المقربين إليه مثل الرسل. فهو استنتاج منطقي يبرر هذا التركيب الأسلوبي المبني على التقديم والتأخير.

وأما عن التقديم الذي أشـار إليه الزمخشري في المثال العاشر فإنه يتشابـه في مضمونه مع التقديم الواقع في المثال الثامن؛ لأن تقديم العبادة على الإستعانة هو « تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة يستوجب الإجابة عليها» [1].فتكاد تكون الرسالة واحدة في تبليغ المراد من تقديم الأسباب وانتظار النتائج التي هي إلى الله .

بهذا المثال الأخير نكون قد أتينا على نهاية التراكيب المبنية على التقديم والتأخير، لنتحول في الحديث إلى صنف آخر من التراكيب وهو:

ثانيا: التراكيب المبنية على الحذف والذكر:

1 ـ التراكيب المبنية على الحذف:

لا نريد أن نتعقب في هذا العنصر أنواع المحذوفات و طرائق حذفها، ومبـررات ذلك،وإنما نريد أن نتبين من خلال أقوال الزمخشري ـ وهو يتناول بعض المحذوفات ـ الجانب التواصلي الذي تؤديه هذه المحذوفات، لأن الحذف كما قيل:« باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة . أزيد من الإفادة، و تجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن »[2] .

هذه الصفات التي ذكرها عبد القاهر الجرجاني للحذف لا تتأتى إلا إذا كانت قناة الإتصال بين الباث والمتلقي واضحة المعالم، بينة المسالك لا لبس فيها. وإذا لم تكن كذلك فإن الحذف يعد ضربا من الهذر. ولعل ذلك ما جعل علماء البلاغة يشترطون دواعي للحذف ومبررات تجوزه.

---

[1] ـ الكشاف، ج1، ص 65، 66 .

[2] ـ عبد القاهر الجرجاني, دلائل الإعجاز، المرجع السابق، ص 112 .

وإذا جئنا إلى الأمثلة القرآنية التي تناول فيها الزمخشري أنماط الحذوف، وللاثنا عن الوظيفة التواصلية التي أدتها بعض هذه الأنماط وجدناه يشير إليها أو يربطها في محورين اثنين هما (السياق والقياس).

1.أ – التواصل عن طريق السياق:

نلتمس هذا التواصل في الحذف الذي أشار إليه الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى** ﴾[1]؛ فيعتمد الزمخشري في تبرير الحذف الذي ورد في هذا التعبير القرآني على سياق الموقف، موقف موسى عليه السلام وأخيه هارون أمام الله تعالى في خطابهما له فيقول: « أو أن يطغى بالتخطي إلى أن يقول فيك مالا ينبغي لجرأته عليك وقسوة قلبه، وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز باب من حسن الآداب وتحاش عن التفوه بالعظمة »[2] .

إذا فحذف الكلام ـ بعد فعل (يطغى) وترك التصريح بما يمكن أن يقال بعد الطغيان من فرعون ـ يعود إلى التأدب في عملية الاتصال اللغوية التي حدثت بين المخلوق (موسى وهارون) وبين خالقهما جل ذكره.

ومن أضرب التواصل بالحذف عن طريق السياق الداخلي للجملة يدرج قوله تعالى: ﴿ **ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم** ﴾ [3] يقول الزمخشري في هذا الحذف: « ومفعول شاء محذوف لأن الجواب يدل عليه المعنى؛ ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها.»[4] والأمر نفسه ينطبق على قوله تعالى: ﴿ **أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى** ﴾ [5] إذ يعلق حيث يقول: « فإن قلت: أين جواب الشرط؟ قلت: هو محذوف تقديره: إن كان على الهدى أو أمر

---

1 ـ طه، آية، ص 45 .

2 ـ الكشاف، ج2 ، ص 538 .

3 ـ البقرة، أية 20 .

4 ـ الكشاف، ج 1 ، ص 221.

5 ـ العلق، أية 13، 14.

بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى، إنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني » [1].

إذا فالحذف الواقع في التعبيرين الأول والثاني مبرره السياق الداخلي الذي دل عليه، سواء أكان جوابا منتظرا تقديره (لذهب بها) أو جوابا تم ذكره بعد جواب الشرط الثاني.

والذي عليه التواصل في مثل هذين التعبيرين يكون عن طريق تقدير المحذوف وتأوله للاسب فرضية السياق.

بهذه الكيفية يستمر الزمخشري في معالجة المحذوفات التي يكون السياق دوما مبررا لها، وتكون عملية التواصل خاضعة له ومستنتجة منه.

وبهذا القول ننتقل إلى الحذف الذي يؤدي عملية التواصل عن طريق القياس.

1.ب - التواصل عن طريق القياس:

ويراد به القياس على ما ورد ذكره في التعبير السياقي ويمكننا أن نتبين ذلك مع الزمخشري من خلال التعبير الوارد في قوله تعالى: **﴿... فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾** [2]. يقول فيه الزمخشري: « ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان، ويطوى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات، كأنه قيل: آيات مقام إبراهيم وأمن من دخله وليس سواهما... ومنه قوله عليه الصلاة والسلام "حُببَ إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة". »[3]

فمن خلال قول الزمخشري هذا ـ سواء في الآية أو في الحديث النبوي الشريف ـ يمكن القول إنما ذكر في التعبيرين من عناصر توصيلية للمعنى تعد بعضا مما يمكن أن يقاس عليه من عناصر أخرى استُغنِي عن ذكرها لوضوح ما تقدم ذكره في فحوى الخطاب.

---

1 ـ الكشاف ، ج4 ، ص 271 .

2 ـ أل عمران ، أية 97 .

3 ـ الكشاف ، ج1 ، ص 447.

ولو شئنا زيادة في توضيح هذا التواصل القياسي الناجم عن الحذف، ندرج قوله تعالى: ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ﴾[1]. يقول الزمخشري مبينا هذا الحذف ومقيسا إياه مما نسج على منواله في القرآن وكلام العرب: « أي لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة كلها لله على كل شيء من العذاب والثواب دون أندادهم ... فحذف الجواب كما في قوله (ولو ترى إذ وقفوا)، وقولهم لو رأيت فلانا والسياط تأخذه... »[2]

إذا فحذف الجواب في الخطاب القرآني يتناسب ومقدمة العمل (الظلم) الذي قام به هؤلاء وهو استنتاج قياسي منطقي لم يخرج عما ذكره الزمخشري مجملا، وقد يفصل ويتنوع، ولكن يبقى في إطاره العام نتيجة سلبية لعمل سيء قام به هؤلاء الناس بظلمهم لله ولأنفسهم.

وعلى غرار هذا المثال وغيره مما تقدم يمكن أن نقيس باقي الأمثلة التي عالجها الزمخشري في إطار الحذف بنوعيه السياقي والقياسي.

إذا كنا قد تكلمنا عن الحذف في هذا العنصر وقدمناه على الذكر لا لشئ إلا لأن الذكر أصل في الجملة والحذف طارئ عليها ومن ثم نعود إليه في العنصر الموالي على أساس أنه وضع غير طبيعي نظرا لكون الحذف أولى به منه.

2 ـ التراكيب المبنية على الذكر:

نتناول في هذا العنصر بعض الأمثلة التي أشار فيها الزمخشري إلى فوائد ذكر بعض العناصر المكونة للجمل القرآنية. في أداء عملية التواصل بين ما ورد في التعبير القرآني تجاه المتلقي. ونشير في البدء إلى أن الزمخشري لم يتتبع في هذا المجال ضربا من العناصر. أو لونا من ألوان التراكيب، بل نجده يقف عند كل ما رآه مذكورا لغرض ما مع إمكانية الإستغناء عنه في تأدية المعنى المطلوب من نظم الجملة. وعليه سنقف عند بعض هذه النماذج على ذمة التمثيل لا الحصر.

---

1 ـ البقرة ، أية 165 .

2 ـ الكشاف ، ج1 ، ص 326 .

نأخذ المثال الأول والذي يتمثل في قوله تعالى: ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾[1].

يقول الزمخشري متسائلا ومعللا: « فإن قلت لم ذكر المفعول به؟ قلت: لأن الغرض ذكر المعزز به وهو شمعون، وما لطف فيه من التدبير في عز الحق وذل الباطل. وإذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له، وتوجيهه إليه كأنما سواه مرفوض مطرح. ونظيره حكم السلطان اليوم بالحق، الغرض المسوق إليه قولك بالحق. فلذالك رفضت المحكوم له والمحكوم عليه ... »[2]

يريد الزمخشري من هذا القول، بأن الغرض الذي سيقت له – وهو الإهتمام بالطرف الثالث المعزز للطرفين غير المذكورين هنا في هذه الجملة، جملة (أرسلنا إليهم اثنين) – هو الهدف الرئيسي في عملية التوصيل التي ركبت الجملة بهذه الكيفية خصيصا لتوجيه مدركات المتلقي إليه.

وفي مثال ثان يعلل الزمخشري زيادة الجار والمجرور (لك) الواقع في قوله تعالى: ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾[3]. بقوله: « فإن قلت: ما معنى زيادة (لك)؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، و الوسم بقلة الصبر عند الكرة الثابتة »[4].

وقف الزمخشري من هذه الزيادة موقف الذي لم يرها قد ذكرت في المخالفة الأولى عند خرق السفينة، وكذا عند الثالثة التي أدت إلى القطيعة، ومن ثم اعتبرها وسيلة من وسائل زيادة التوبيخ لعدم الصبر الذي كان شرطا من شروط عقد الإتفاق الذي خول له الصحبة معه. ويعزز هذا التوبيخ الإستفهام الإنكاري المصاحب لهذا التركيب.

وإذا انتقلنا إلى أمثلة أخرى وجدنا الزمخشري يشير إلى الأهداف التي تذكر

---

[1] ـ يس ، أية 14 .
[2] ـ الكشاف ج 3 ، ص 317 . 318 .
[3] ـ الكهف ، أية 75 .
[4] ـ الكشاف ، ج 2 ، ص 494 .

من أجلها بعض الألفاظ في بعض الجمل القرآنية؛ فمنها ما يذكر من أجل زيادة في التصوير ومنها ما يذكر لرفع الإبام أو الإثبات والإقرار، أو لزيادة في تقوية المعنى.

ففي زيادة التصوير مثلا نأخذ مثلا قوله تعالى: ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾[1] . يتناول الزمخشري لفظة (الجوف) ويتساءل عن الهدف من ذكرها في هذا التعبير القرآني فيقول: « فإن قلت: أي فائدة في ذكر الجوف؟ قلت: الفائدة فيه كالفائدة في قولك: في القلوب التي في الصدور، وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلي للمدلول عليه لأنه إذا سمع به صوّر لنفسه جوفا يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار »[2] . يريد القول بأن لفظة (الجوف) سيقت لتوصل المعنى إلى المتلقي في شكل محفّز على تصور ما هو مستحيل تصوره في الواقع.

وفي الذكر من أجل رفع الإبام ندرج قوله عز وجل: ﴿ قال ربّ اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾[3] .

يقول الزمخشري مبينا ومعللا حقيقة ذكر هاتين الجملتين: « فإن قلت لي في قوله ـ اشرح لي صدري ويسر لي أمري ـ ما جدواه، والكلام بدونه مستتب؟ قلت: قد أبم الكلام أولا فقيل اشرح لي ويسر لي، فعلم أن ثمّ مشروحا وميسرا، ثمّ بين الإبام بذكرهما. فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره »[4] .

وللتمثيل بذكر اللفظ بغرض الإثبات والتقرير نأخذ قوله عز وجل: ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾[5] .

يوضح الزمخشري هذا المعنى بقوله: « فإن قلت: أي فائدة في ذكر الصدور؟ قلت:

---

1 ـ الأحزاب ، أية 04 .

2 ـ الكشاف ، ج3 ، ص 249 .

3 ـ طه ، أية 25 .

4 ـ الكشاف ، ج2 ، ص 535 .

5 ـ الحج ، أية 46 .

قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب مثل. فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة، ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار»[1] .

وإذا جئنا إلى الغرض الذي تذكر من أجله اللفظة ـ وهو زيادة المعنى وتقويته في ذهن المتلقي ـ نذكر قوله تعالى: **﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾**[2]. يقول فيه الزمخشري معللا سبب ذكر لفظة (الأنفس) في هذا التعبير القرآني: «... في ذكر (الأنفس) تهييج لهن على التربص وزيادة بعث، لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن، وذالك أن أنفس النساء طوامع إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص »[3] .

إن الملاحظ على ما سبق ذكره من أمثلة أن اللفظة المذكورة أو الجملة المثبتة في السياق تؤدي كل منهما وظيفة تواصلية بعينها وإن اختلفت أنماطها وتنوعت أهدافها. ولعل هذا ما حاول الزمخشري الإسهاب في توضيحه وتوصيله إلى الإدراك بالحجة والتمثيل .

بعد سردنا لأمثلة التراكيب المبنية على الحذف والذكر، وتبييننا الجوانب التواصلية فيها، ننتقل إلى نوع آخر من التراكيب وهذه المرة تكون مبنية على عنصر التكرار.

ثالثا: التراكيب المبنية على التكرار:

يجمل لنا الزمخشري الفائدة التواصلية من التكرار بقوله : «... و لأن في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس و تثبيتا لها في الصدور، ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ

---

1 ـ الكشاف ، ج1 ، ص 17 .

2 ـ البقرة ، أية 228 .

3 ـ الكشاف ج 1 ، ص 375 .

العلوم إلا ترديد ما يراد حفظه منها. وكلما ازداد ترديده كان أمكن له في القلب و أرسخ في الفهم و أثبت للذكر وأبعد من النسيان »[1] .

بعد هذا الطرح الموجز لرؤية الزمخشري حول وظيفة التكرار التواصلية، نذكر بعض الأمثلة التي أشار فيها إلى العناصر المكررة و الوظيفة التي تؤديها في التراكيب التي تقع فيها و هي كثيرة و متنوعة نكتفي بجمعها في المحاور الآتية :

1ـ تكرار الحروف والأدوات :

فمن الحروف التي تكررت في التعابير القرآنية ـ وأشار الزمخشري إلى وظيفة تكريرها التواصلية ـ حرف (الواو) الواقع في قوله تعالى: ﴿ **وفي سبيل الله و ابن السبيل** ﴾ [2] بقوله : «... فيه فضل ترجيح لهاذين على الرقاب و الغارمين »[3]

ويقول في حرف (الباء) ـ المكرر في قوله عز وجل: ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾ [4]. « في تكرير الباء أنهم إدعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة و الإستحكام »[5] .

ومن الأدوات التي تكررت في التعابير القرانية ـ والتي علل الزمخشري وظيفتها في توصيل المعاني الدقيقة للمتلقي ـ أداة النداء (يا) الواردة في قوله عز وجل: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله و رسوله و اتقوا الله إن الله سميع عليم. يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ [6].يقول في وظيفة تكرار هذه الأداة: «... إعادة النداء عليهم إستدعاء منهم لتجديد الإستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات حكم نازل وتحريك منهم لئلا يعترو و يغفل عن تأملهم ...»[7] ومن الأدوات المكررة أيضا (ألا) في قوله تعالى :

---

1 - الكشاف ، ج3 ، ص 127 .

2 - التوبة ، آية 60 .

3 - الكشاف ، ج2 ، ص 198 .

4 - البقرة ، آية 08.

5 - الكشاف ، ج1 ، ص 169 .

6 - الحجرات ، آية 01.

7 ـ الكشاف ، ج3 ، ص 554 .

﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾[1]. يقول الزمخشري ـ مبينا الوظيفة التي يقدمها تكرار هذه الأداة في توصيل المعاني الرئيسة التي يمكن أن تؤديها هذه الأداة في هيئة تكرارها في هذا التعبير القرآني ـ «... و ألا و تكرارها مع النداء على كفرهم و الدعاء عليهم تهويل لأمرهم و تفضيع له وبعث على الإعتبار بهم و الحذر من مثل حالهم »[2] .

هذه هي إذن عينات من تكرار الحروف والأدوات وعلاقة هذا التكرار بالوظيفة التواصلية في إفادة المعنى وتوكيده. ونتحول الآن إلى نوع أخر من التكرار وهو الأتي :

2 ـ تكرار الأفعال و الأسماء :

وتبقى وظيفة التكرار بعامة مستمرة ـ كما قال الزمخشري ـ مع كل تكرير يقع في أي تعبير من التعابير، سواء كان هذا في التعبير القرآني أو في أي تعبير أخر، ولكن هذا لا يمنع من وجود وظائف جزئية تقدمها كل لفظة مكررة على حدة في التعبير الذي تقع فيه كما هو الشأن في تكرار فعل الأمر الواقع في قوله تعالى : ﴿ و على الله فليتوكل المؤمنون و ما لنا ألا نتوكل على الله و قد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا و على الله فليتوكل المتوكلون ﴾[3]. فيفرق الزمخشري بين فعلي (التوكل) في تأدية المعنى و توصيله إلى الأذهان. بقوله : « فإن قلت: كيف كرر الأمر بالتوكل ؟ قلت: الأول إستحداث التوكل، وقوله (فليتوكل المتوكلون) معناه فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم و قصدهم إلى أنفسهم على ما تقدم »[4]. إذن فالتوكل الأول أدى وظيفة الاستحداث والثاني عبر عن وظيفة التثبيت والتمكن. وقد يتكرر فعل الأمر ليفيد معنى التوكيد كما هو الشأن في قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما

---

1 ـ هود ، آية 60 .

2 ـ الكشاف ، ج2 ، ص .277.

3 ـ إبراهيم ،الآيتين 11 و 12 .

4 ـ الكشاف، ج2، ص.370.

و ﮞﻻ قل ءا! ﯫﺭ لكم ﭐﷲ ﻋﻠﯧ ا! تفترون ا [1] . يقول الزمخشري في هذا التكرير مبينا وظيفته التوكيدية بقوله: « وقل تكرير للتوكيد »[2].

وقد يختلف تكرار الأسماء على تكرار الأفعال في بعض المعاني الخاصة بموقع كل إسم في التركيب الذي يقع فيه؛ فإذا أخذنا مثلا اسم الإشارة (أولئك) الواقع في قوله تعالى: **اا ﭐولٰٓﺌﻚ ﻋﻠﯧ ﮬﺪى ﻣﮧ ﺭﱢﮩﻢ و ﭐولٰٓﺌﻚ ﮨﻢ المفلحون ا** [3]. فإنه – كما قال الزمخشري- يؤدي وضيفة التنبيه: «... على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح، فجعلت كل واحدة من الأثرين في تميزهم بها بالمثابة التي لو إنفردت كفت مميزة على حيالها »[4] .

ومن التكرار الذي أشار إليه الزمخشري في هذا الباب تكرار لفظة (رب) في صيغة المنادى في قوله تعالى : **اا ربنا ما خلقت ﮨﺬا باطلا سبحانك فقنا ﻋﺬاب النار . ربنا ﭐنك ﻣﮧ تدخل النار فقد ﭐخزيته و ما للظالمين ﻣﮧ ﭐنصار. ربنا ﭐننا سمعنا مناديا ينادي ﻟﻺيمان ﭐﺭ ﭐمنوا بربكم فئامنا. فاﻏفر لنا ﺫنوبنا وكفر ﻋنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وءاتنا ما وعدتنا ﻋﻠﯧ رسلك ﻭﻻ تخزنا يوم القيامة ﭐنك ﻻ تخلف الميعاد ا** [5] . يقول الزخشري – في هذه الظاهرة – مبينا وظيفتها التواصلية : « وتكرير ربنا من باب الابتهال وإعلام ما يوجب حسن الإجابة وحسن الإثابة من احتمال المشاق في دين الله والصبر على صعوبة تكاليفه وقطع الأطماع »[6]

إلى جانب تكرار بعض الحروف والأدوات والأفعال والأسماء يشير الزمخشري إلى ظاهرة تكرار أخرى يمكن عنونتها وفقا لما يلي:

---

[1] ـ يونس ،الآية 59 .
[2] ـ الكشاف ، ج2 ، ص 242 .
[3] ـ البقرة، آية 05.
[4] ـ الكشاف، ج1، ص.145.
[5] ـ أل عمران ،من الآية 191 إلى الآية 194 .
[6] ـ الكشاف ، ج1 ، ص 188، 189 .

3 ـ تكرار العبارات و الجمل :

لا يخلو هذا التكرار من فوائد أسلوبية يؤديها كل عنصر داخل السياق التعبيري الذي يرد فيه؛ فلو أخذنا مثلا عبارة (بإذن الله المكررة في قوله تعالى : اا أني **قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من kÛll كهيئة KÛll فأنفخ Ñ فيه فيكون ئائرا بإذن ا ! وأبرئ الأكمه والأبر وأحيي الموتى بإذن ا ! ا** [1]. وللاثنا عن سر هذا التكرار وجدناه ملخصا في قول الزمخشري : « وكرر (بإذن الله) دفعا لهم من توهم فيه اللاهوتية »[2] , وظاهرة تكرار الجمل قد أشار اليها الزمخشري وبين وظائفها التواصلية في أكثر من موقع و نحن نكتفي بذكر موقع واحد تكررت فيه جملة (يسألونك) الواردة في قوله عز وجل: **اا يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت** في **السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها ا** [3] .

يقول الزمخشري في هذا التكرار: « فإن قلت: لما كرر ـ يسألونك ـ وإنما علمها عند الله ؟ قلت: للتأكيد. ولما جاء به من زيادة قوله ـ كأنك حفي عنها ـ وعلى هذا كرر العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلو المكر ر من فائدة زيادة...» [4].

وعلى هذه الشاكلة يستمر الزمخشري في تعليل ظاهرة التكرار بأنواعها المختلفة ومبينا وظائفها التواصلية العامة و الخاصة في كل موقع ترد فيه.

كانت هذه بعض الأمثلة التي ضمت التراكيب المبنية على التكرار بأشكاله الثلاثة - حروف وأدوات، أفعال وأسماء عبارات وجمل – وبين فيها الزمخشري الوظائف التي إستطاع الوقوف عليها. ونتحول الآن إلى نمط أخر من التراكيب تكون مبنية على أدوات الفصل والوصل وتكون ضمن العنوان الموالي :

---

[1]- أل عمران، آية 49 .

[2]- الكشاف، ج1 ، ص 431 .

[3] - الأعراف، آية 187 .

[4] - الكشاف، ج2 ، ص 135

رابعا : التراكيب المحتوية على فصل الجمل ووصلها:

مما لا يخفى على أحد من العارفين بسر اللغة و تراكيبها أن لأدوات الفصل والوصل أهمية كبيرة في تحديد المعنى من الكلام وتوجيهه الوجهة التي يريدها المتكلم. ولعل ما نستأنس به في هذا المقام ما ورد في كتب تاريخ البلاغة عن أبي بكر الصديق τ حينما عرض لرجل و هو يحمل ثوبا، فسأله : « أتبيع الثوب ؟ فأجابه لا، عافاك الله ». وتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ، إذ قد يظن أن النفي مسلط على الدعاء، فقال له: لقد علمتم لو كنتم تعلمون. قل: لا وعافاك الله»[1].

من هذه الأهمية وهذا المنطلق سنتناول هذه التراكيب وفقا لمحورين إثنين هما : الأنماط، والمبررات .

أ- الأنماط :

وندرج تحتها ماكان الفصل والوصل فيه عن طريق الحروف والألفاظ المفردة .

1 ـ الوصل و الفصل بالحروف و الألفاظ .

أولا: بالحروف:

يثير الزمخشري تساؤلا ـ وهو يتعرض لقوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن المحيض** ﴾[2] ـ عن سبب وقوع حرف الواو في بعض التراكيب و عدم وقوعه في بعضها الأخر، فيقول: « فإن قلت: ما بال يسألونك جاء بغير واو ثلاث مرات ثم مع الواو ثلاثا ؟ قلت كأن سؤالهم عن تلك الحوادث، الأول وقع في أحوال متفرقة فلم يؤت بحرف العطف لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ، وسألو عن الحوادث الأخرى في وقت واحد فجيء بحرف الجمع، لذلك كأنه قيل: يجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر والسؤال عن الإنفاق والسؤال عن كذا

---

1 ـ الجاحظ ،البيان و التبيين، المرجع السابق، ج1،ص 261 و شوقي ضيف ،البلاغة تطور و تاريخ، المرجع السابق، ص 14.

2 ـ البقرة ، أية 222 .

وكذا... »[1] .

ثانيا: بالألفاظ .

عندما يتعرض الزمخشري لهذا النوع من الفصل بالألفاظ، يقيم مفاضلة بين تركيبين إختلف فيهما لفظ الفصل؛ وتمثيلا لذلك ندرج قوله تعالى : **﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا** في **الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يعلمون ﴾**[2] .

فيقول : « فإن قلت لم فصلت هذه الآية بلا يعلمون والتي قبلها بلا يشعرون ؟ قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر وإستدلال حتى يكتسب لناظر المعرفة. وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض أمر دنيوي مبني على العادات ملوم عند الناس خصوصا عند العرب في جاهليتهم ... ولأنه ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم أحسن طباقا »[3].

هذه الطريقة نفسها يسلكها مع لفظتي (يعلمون ويفقهون)الواردتين في قوله تعالى : **﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها** في **ظلمات البر و البحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾**[4]. يقيم الزمخشري موازنة بين وظيفة اللفظتين في هاذين التركيبين المختلفين، بأن يذكر خاصية لفظة ويسكت عن الثانية فيقول: « فإن قلتَ: كيف قيل ـ يعلمون مع ذكر النجوم ويفقهون مع ذكر إنشاء بني أدم؟ قلتُ: كان إنشاء الإنس من نفس واحدة، وتصريفهم بين

---

1 ـ الكشاف ، ج1، ص 362 .

2 ـ المصدر نفسه، ص 183

3 ـ المصدر نفسه.

4 ـ الأنعام, آية 91 إلى 92.

أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرا فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقا له »[1].

ولا نزيد على هذا القول إلا أن نشير إلى دقة كل لفظة في تأدية وظيفتها التواصلية في الحيز السياقي الذي توظف فيه .

هذه الأمثلة سقناها في باب الفصل والوصل بالحروف والألفاظ، وتبقى معنا أمثلة الفرع الثاني من الأنماط والتي تتمحور في العنصر الأخير :

2 ـ الوصل والفصل بالمعنى والاستئناف:

أولا : الوصل و الفصل بالمعنى :

يصرح الزمخشري ـ وهو يتناول قوله تعالى: **الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان**[2] ـ بقوله: « فإن قلت: كيف إتصلت الجملتان بالرحمن؟ قلت:إستغني فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبانه والسجود له لا غيره . كأنه قيل: الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له »[3] .

ثانيا : الوصل و الفصل بالإستئناف :

يبين الزمخشري قيمة هذا الإستئناف في تأدية المعنى و تبليغه إلى المتلقي ـ فيقول في قوله تعالى : **إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم**[4] ـ « إن قلت: كيف إبتدئ قوله: الله يستهزئ بهم ولم يعطف عن الكلام قبله؟ قلت:هو إستئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الإستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء »[5] .

وإذا تقدمنا قليلا في طرحنا مجموعة أخرى من الأمثلة تتعلق بالمحور الثاني بعملية

---

[1] ـ الكشاف, ج2, ص.39.
[2] ـ الرحمان, آية 01 إلى 06.
[3] ـ الكشاف, ج4, ص.44.
[4] ـ البقرة, آية 14 إلى 15.
[5] ـ الكشاف, ج1, ص.187.

الفصل والوصل التي تحتويها مجموعة من التراكيب أطلقنا عليها كما سلف الذكر المصطلح الموا . ب

ب ـ المبررات :

ونريد بها العلل والأعذار التي يبرر بها الزمخشري كثيرا من أنواع التراكيب التي إحتوت على حروف العطف وأدواته. ولعل هذه المبررات يمكن إجمالهما في جانبين إثنين هما :

1 ـ حسن النظم و صلاحه :

وخير ما نمثل له قول الزمخشري ـ في قوله تعالى: **﴿ ونحن له عابدون ﴾** [1] ـ « عطف على (آمنا بالله) و هذا العطف يرد قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملة إبراهيم، أو نصب على الإغراء بمعنى صيغة الله ، بما فيه من فك النظم وإخراج الكلام عن إلتئامه وإتساقه »[2] , إذن لقد إتخذ الزمخشري من القراءة مبررا أسلوبيا ساهم ـ على حد قوله في إلتئام النظم وحسن إتساقه وإذا لم يقرأ بهذه الكيفية فإن الأمر يؤول إلى فساد النظم و تفككه .

ويلتمس الزمخشري حسن النظم وصلاحه في مجموعة من الجمل القرآنية الواردة في قوله عز وجل : **﴿ الـم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾** [3] .

فيقول: «... والذي هو أرسخ عرقا في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحا وأن يقال: إن قوله الـم جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، وذلك الكتاب جملة ثانية ولا ريب فيه جملة ثالثة وهدى للمتقين جملة رابعة، وقد أصاب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حتى جيء بها متناسقة هكذا من غير نسق وذلك لمجيئها متآخية بعضها ببعض أخذا بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة... ثم لم تخلُ كل واحدة من

---

[1] ـ البقرة, آية 138.
[2] ـ الكشاف, ج1, ص316.
[3] ـ البقرة, آية 01 إلى 02.

الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ونظمت هدا النظم السري من نكتة ذات جزالة...»[1] .

إذن كان إنبهار الزمخشري بذه الجمل ـ المتحدة في توصيل المعنى دون حروف نسق ـ أرجعه إلى حسن النظم وصلاحه فإنه في أمثلة أخرى يرجعه إلى المعنى لا إلى النظم، وهذا ما سنتعرف عليه فيما يلي:

2 ـ ëيافات المI و Ÿëمته:

يعتمد الزمخشري على هذا المبرر المعنوى للسياق، ليفاضل بين كثير من الجمل ـ الوارد فيها العطف وغير الوارد فيها ـ في تأدية الوȘيفة التواصلية الناجمة عن مساق التركيب الواقعة فيه هذه الجمل.

والأمثلة إذا ما أردنا سردها في هذا اŎال كثيرة ومتنوعة، ولكن نكتفي بذكر بعض منها على سبيل التقريب والتمثيل.

ينطلق الزمخشري من قوله تعالى : **اا لكل أمة جعلنا منسكا ۿم ناèكو۩ وŸ ينازƷÕ في الأمر و اُدƷو اِلى ربƷÕ اِنÕ لعلى ۿدى مستقيم ا**[2]. فيفاضل، بل يفرق بين تركيبين، تركيب هذه الآية وتركيب آية أخرى فيقول: « فإن قلتَ: لما جاءت نظيرة هذه الآية معطوفة بالواو وقد نزعت عن هذه ˊ قلتُ: لأن تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك فعطفت على أخواēا. وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم Ͽد معطفا أي وإن أبوا للجاجهم إلا اŎادلة بعد إجتهادƾ ألا يكون بينك وبينهم تنازع فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به... »[3].

لاحظنا من خلال قول الزمخشري هذا أنه إرتكز على المعنى في تبرير تواجد هذا التعبير القرآني في الآي بغير أداة نسق خلاف ما هو في آي أخرى، وكل عنده قد

---

1 ـ الكشاف, ج4, ص 121 , 122.

2 ـ الحج, آية 67.

3 ـ الكشاف, ج1, ص145 , 146.

تحكم فيه المعنى وفرض عليه شكله المركب على منواله .

وعلى المعنى أيضا يرتكز الزمخشري في تبرير العطف الواقع في قوله تعالى: **﴿أولئك على هدى من ربهم و أولئك هم المفلحون﴾**[1] . فيقول: « فإن قلت: لما جاء مع العاطف وما الفرق بينه وبين قوله (أولئك كالأنعام، بل هم أضل أولئك هم الغافلون) ؟ قلت: قد إختلف الخبران هنا فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان لأن التسجيل عليهم والغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد فكانت الجملة الثانية مقررة لمعاني الأولى فهي من العطف بمعزل »[2] .

لعل باذين المثالين تكون طريقة الزمخشري في تعليل وتبرير تواجد أدوات العطف وإنعدامها في الآيات قد تبين أن مرجعه الأول و الأخير المعنى داخل السياق، كما أنه أيضا لم تحمل هذه التراكيب من فروق في طرق توصيل المعنى إلى المتلقي قياسا بنظيراتها في نفس السياق .

وبوصولنا إلى حد الكفاية من أمثلة هذا المحور من محاور التراكيب المبنية على وصل الجمل وفصلها نتحول إلى محور أخر تكون فيه التراكيب مبنية على طريقة الإلتفات

خامسا ـ التراكيب المبنية على الإلتفات .

إن الإلتفات في اللغة يعني الإنحراف أو الإنصراف أو الخروج عن المألوف[3] . « وحقيقته هي التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فتارة يقبل بوجهه، كذا وتارة كذا»[4] .

وإذا جئنا إلى الإصطلاح فإننا نجد علماء البلاغة يتحدثون عن ماهيته ووظيفته في إطار نظم الشعر أكثر من النثر؛ فهذا قدامة ابن جعفر يقول فيه: « وهو أن يكون الشاعر آخذا في معنى فكأنه يعترضه إما شك أو ظن بأن ردا يرد عليه قوله،

---

1 ـ البقرة, آية .05

2 ـ الكشاف, ج1، ص145، .146

3 ـ ينظر: ابن منظور, اللسان, مادة(لفت), ص84. والفيروز بادي, القاموس المحيط, دار الجيل, بيروت, د ت, ج1, فصل اللام, باب التاء, ص.163

4 ـ ابن الأثير, المثل السائر, المرجع السابق، ج2, ص.170

أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا إلى ما قدمه، فإما أن يذكر سببه أو يحل الشك فيه »[1]. وإلى هذا المعنى يذهب ابن رشيق القيرواني بقوله:« وسبيله أن يكون الشاعر آخذا في معنى ثم يعرض له غيره، فيعدل عن الأول إلى الثاني، فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول »[2] .

وقد يختصر هذان التعريفان بنوع من الإيضاح في القول بأن الإلتفات: « هو إنصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك، ومن الإلتفات الإنصراف عن معنى تكون فيه إلى معنى آخر»[3].

وخير تعريف تفصيلي للإلتفات ما ورد في قول إبن الأثير: «... ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة، كإنتقال من خطاب إلى غائب، أو من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل أو من مستقبل إلى ماض »[4] .

هذه بعض ملامح ماهية الإلتفات، وأما عن الوظيفة التي يؤديها في توصيل المعنى وتبليغه فيقول عنها الزمخشري في خضم تعريفه له: «... وهو فن من الكلام جزل فيه هز وتحريك من السامع »[5] . و من وظيفته أيضا كما قال الزركشي هو تحقيقه للسامع نشاطا يدفع عنه الملل إذا إستمر الخطاب في أسلوب واحد[6] .

فالإلتفات إذا في مفهوم الدرس الأسلوبي الحديث هو الخروج عن المألوف في ترتيب العامة في الجمل دون الإخلال بالسياق الذي يتحكم في سبك المعاني الجزئية داخل المعنى العام للخطاب .

وللإلتفات أنواع مختلفة لا نريد التنظير لها، بل سنتناول بعضا منها في مضمون كلام الزمخشري حولها في تحليله للجمل القرآنية. والإلتفات عنده ورد في القرآن

---

1 ـ قدامة بن جعفر, نقد الشعر, دار الكتب العلمية, بيروت, د ت, د ط, ص.150

2 ـ ابن رشيق القيرواني, العمدة, المرجع السابق، ص.71

3 ـ عبد العزيز عتيق, علم البديع, دار النهضة العربية والنشر, لبنان, 1982م, د ط, ص.143

4 ـ ابن الأثير, المثل السائر, المرجع السابق، ج2, ص .171

5 ـ الكشاف, ج1، ص.224

6 ـ الزركشي, البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، دت، دط، ج3، ص.314

الكريم على الانواع الآتية:

1 ـ الإلتفات من الخطاب إلى الغيبة

ويبرز هذا النوع في قوله تعالى : **اا حǴ إذا كنتم في الفلĈ و جرين بهم ا** (1)

و يقول عنه الزمخشري: « فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبةٰ؟ قلت: المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار و التقبيح »(2).

2 ـ الإلتفات من الغيبة إلى المتكلم:

يتجلى هذا النوع في قوله عز وجل: **اا وا! الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موها ا** (3) . لقد عدل عن فعل المضارعة التي تفيد الغيبة إلى فعلي السوق والإحياء وهما في صيغة المتكلم. يقول الزمخشري: « قيل:(فسقناه) و(أحيينا) معدولا بما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الإختصاص وأدل عليه » (4) و هو ضمير المتكلم (الله) جل ذكره .

3 ـ الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب :

ومن الأمثلة التي ورد فيها هذا النوع الإلتفات ـ قوله جل ذكره : **اا و أطيعوا ا! و رسوله و ا! خبير بما تعملون ا** (5). ـ يفصله الزمخشري بقوله: « ... يعلم ما في ضمائركم ولا يخفى عليه شيء من سرائركم و إنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم، صرف الكلام على الغيبة إلى الخطاب على طريقة الإلتفات »(6) .

ويمكن إيجاز رؤية الزمخشري نحو الإلتفات في وظيفته التواصلية في قوله: « وهذا

---

1 ـ يونس, آية .22

2 ـ الكشاف, ج1, ص231.

3 ـ فاطر, آية .09

4 ـ الكشاف, ج3, ص.302

5 ـ المجادلة, آية .13

6 ـ الكشاف, ج3, ص.73

الإفتتان في الحديث والخروج منه من صنف إلى صنف سيفتح الأذان لاستماع ويستهوي الأنفس للقبول ...»[1] .

بهذا القدر من الأمثلة حول الإلتفات بأنواعه ووظائفه التواصلية, ننهي حديثنا حول التراكيب المبنية على الإلتفات لنتحول إلى صنف أخر من التراكيب هو كما يلي :

ثالثا : التراكيب المبنية على التخصيص و التعميم :

يستلزم تركيب الكلام في بعض موضوعاته، أن ينبني إما على قاعدة التعميم ثم التخصيص أو العكس صحيح، وعليه يتم تركيب العناصر المكونة لفحوى هذا الكلام, والزمخشري وهو يتناول النص القرآني بالدراسة و التحليل قد بين هذا النمط من التركيب وحصره في شكلين اثنين هما كالأتي:

1 ـ التخصيص ثم التعميم :

ورد هذا النوع في قوله تعالى: **﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾**[2] ، يقول فيه الزمخشري مبينا ماهيته ووظيفته التواصلية في السياق: « خص النبي صلى الله عليه و سلم بالنداء، وعم بالخطاب؛ لأن النبي إمام أمته و قدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يافلان إفعلوا كيت وكيت, إظهارا لتقدمه وإعتبارا لترؤسه» [3]

2 ـ التعميم ثم التخصيص :

هذا النمط من التركيب إحتواه قوله عز وجل: **﴿ يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف ﴾**[4] , فيتسائل الزمخشري عن طبيعة هذا التركيب ثم يجيب بقوله:« فإن قلت: كيف قيل يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف؟ قلت: الدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال والتروك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص،

---

[1] ـ الكشاف, ج1, ص 220 , 224.

[2] ـ الطلاق, آية 01.

[3] ـ الكشاف, ج4, ص117.

[4] ـ آل عمران, آية 104.

فجيء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيذانا بفضله كقوله ـ والصلاة الوسطى»[1]

نكتفي بذكر هاذين المثالين في التدليل على الدور التواصلي الذي يؤديه تعميم القول وتخصيصه أو تخصيصه ثم تعميمه. ومنه ننقل حديثنا إلى ضرب من أضرب التراكيب الجملية التي إحتوت على طرق نقل الخبر أو الإخبار عن الأحداث والوقائع .

رابعا: التراكيب المحتوية على ظاهرة الإخبار:

مما لا يخفى على أحد قديما وحديثا أهمية الخبر في حياة الإنسان بعامة،وفي حالات تعامله مع معطيات الواقع بخاصة، فبالخبر نستطيع أن نبني صرحا أو نهدم معقلا وبه نقتل أو نحي كثيرا من الخلق ...الخ ونظرا لهده الأهمية نحاول أن نتناول بعض التراكيب الوارد فيها الإخبار في القرآن الكريم، من خلال محوري التنوع والعدول .

1 ـ التنوع في الإخبار:

لم يتوان الزمخشري ـ وهو يحلل الأخبار الواردة في التعابير القرآنية ـ في فرز هذه الأنماط و إعطائها ما تستحقه من وصف و تبيان فضل التعبير عن دقة المعنى وسداده .

ومن أنواع الإخبار التي استطعنا جمعها في محاور رئيسة نذكر ما يلي :

أ ـ الإخبار الإنذاري :

ومثاله قوله عز وجل: **﴿ وقل إني أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين ﴾**[2] , فيقول الزمخشري مبينا طبيعة الإخبار ووظيفته التواصلية داخل نظام السياق: « أي وأنذر قريشا مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين: يعني اليهود, وهو ما جرى على قريضة والنضير, جعل المتوقع بمنزلة الواقع, وهو من

---

1 ـ الكشاف, ج1, ص.453

2 ـ الحجر, الآيتين 89 , 90.

الإعجاز, لأنه إخبار بما سيكون و قد كان »[1]

ب ـ الإخبار المقيد بالشرط :

هذا الشرط في الإخبار أبرزه الزمخشري في قوله تعالى: **﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم ﴾**[2] , في قوله: « فان قلت: كيف أسلوبه ...؟ قلت: هو إخبار مقيد بالشرط, وفيه وجهان: أحدهما أن يكون كلاما مستانفا فيه معنى التعجب, كأنهم قالوا: ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام ...والثاني أن يكون قسما على تقدير حذف اللام, بمعنى و الله لقد افترينا على الله كذبا»[3]

ج ـ الإخبار المبني على فرض التقدير :

ويتجلى هذا النوع في التعبير القرآني في قوله تعالى: **﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم و لئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون ﴾**[4].يقول الزمخشري معللا هذا التضاد في صيغتي النفي والإثبات: « ...فان قلت: كيف قيل (و لئن نصروهم) بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ قلت: معناه ولئن نصروهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى: (لئن اشركت ليحبطن عملك). وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون »[5].

د ـ الإخبار المبني على الفعل :

يرصد الزمخشري هذا النمط من الإخبار ـ وهو يتعرض بالشرح لقوله تعالى: **﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾**[6] فيقول: « فإن قلت: الفعل أبدا خبر لا مخبر عنه، فكيف صح الإخبار عنه في هذا الكلام؟ قلت: هو من حسن الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى. وقد وجدنا

---

[1] ـ الكشاف, ج2, ص.398.

[2] ـ الأعراف, آية 89

[3] ـ الكشاف, ج2, ص .97.

[4] ـ الحشر, آية .12

[5] ـ الكشاف, ج4, ص .85.

[6] ـ البقرة, آية .06

العرب يميلون في مواضع كلامهم مع المعاني ميلا بينا، من ذلك قولهم: لا تأكل السمك وتشرب اللƏ، معناه لا يمكن أن يكون منك أكل السمك وشرب اللƏ»[1].

بذه الأمثلة يتبين لنا التنوع الوارد في الإخبار التي أشار الزمخشري إلى حقيقة تركيبه ووȿيفة توصيله للمعاني الواردة في سياقها القرآني ومنه ننتقل إلى معالجة الأخبار في خروجه عن المألوف و ذلك من خلال العنوان الأŹ :

2 ـ العدول في الإخبار

قد يقال بدل العدول الإنزياح أو الإنحراف أوالإنتهاƠ أو التوسع، وإلى غير ذلك من المصطلحات التي تعبر على الخروج عن المألوف في التعبير الإخباري. ومن الإخبار التي أشار الزمخشري إلى حقيقة مغايرة أساليبها في التعابير القرآنية والتي إستطعنا أن نمحورها في المحاور الرئيسة الآتية :

ǃ ـ العدول ʤ ǀʔƎ ǃБ الأمر:

ومثاله قوله عز وجل: **ﱡ يȚنور با ! ʢƘ الحƎ ʤȘ الجاǀلية يقولور ǀل لنا ʤه الأمر ʤه ǭيء قل ǃر الأمر كله ! Ƹفور في ǃنفسȽǅ ما لا يبدور لǂ ﱠ**[2].

ǡ ـ العدول ʤȝ الأمر ǃБ الإخبار :

ويتجلى هذا العدول في قوله عز وجل: **ﱡ قال تزرȝور ȅبع ȅǐƙ دǃبا ﱠ**[3] يقول الزمخشري في الفعل (تزرعون): « خبر في معنى الأمر. كقوله (تǘمنون بالله ورسوله وƟاهدون) وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إƶاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد؛ فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله (فذروه في سنبله) ... »[4]

---

1 ـ الكشاف, ج1, ص 151, 152.

2 ـ آل عمران, آية 154.

3 ـ يوسف, آية 47.

4 ـ الكشاف, ج2, ص 325.

ǯ ـ العدول من الإخبار إلى الإنكار:

ويكون هذا واضحا في التعبير القرآني في قوله جل ذكره: **((هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه ءالهة))**[1]، بقوله (اتخذوا): « ... خبر وهو إخبار في معنى الانكار »[2].

د ـ العدول من الانكار إلى الاخبار:

يتوخى الزمخشري هذا النمط من العدول في قوله تعالى: **((قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون))**[3], فيقول: « ضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب إرتكاب القبائح وتدعو إلى إتباع الشهوات ونحوه (بل أنتم قوم عادون)... »[4].

د ـ العدول من الدعاء إلى الإخبار:

يتجلى هذا النمط من العدول في قوله تعالى: **((فيسخرون منهم سخر الله منهم))**[5] , ففي القراءتين بالفتح و الضم يتحول من الدعاء عليهم إلى إخبار وقوع السخرية منهم فهو: « خبر غير دعاء »[6].

ـ ـ العدول من الإخبار إلى النهي:

قد يكون مساق الكلام يتطلب أن يصاغ في أسلوب إخبار عن شيء ما, ولكن يتحول عن طريق إدخال أدوات تعبير إلى تأدية معنى أخر في مثل ما بينه الزمخشري في قوله تعالى: **((وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله))**[7]. حيث يقول: «...(لا تعبدون) إخبارا في معنى النهي كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له هذا ما تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه سُورع

---

1 ـ الكهف، آية 15.

2 ـ الكشاف، ج2، ص474.

3 ـ يس, آية 19.

4 ـ الكشاف, ج3, ص 318.

5 ـ التوبة, آية 79.

6 ـ الكشاف, ج2, ص 204.

7 ـ البقرة, آية 83.

إلى الإمتثال والإنتهاء فهو يخبر عنه »[1] .

قبل أن يتم حديثنا عن الإخبار بأنواعه و عدوله نقول: إن ما سردناه من نماذج مختلفة تنوعت فيها عملية نقل الأخبار تنم على تنوع في كيفية توصيل الأفكار والمعاني عن طريق رفع الملل و دفع السأم على المستمع أو القارئ، وهي طريقة جد فعالة في عملية التأثير وتوجيه المتلقى إلى فهم وإدراك فحوى الخطاب الموجه إليه .

بهذا القول نكون قد أتينا على نهاية هذا المحور لننتقل إلى معالجة نوع من التراكيب يكون محور إرتكازها الاستفهام .

ثامنا ـ التراكيب المتنوية على الاستفهام :

يراد بالاستفهام في عرف اللغة [2] الاستخبار: أي طلب ما ليس عند المستخبر، عن الأمر الذي طلب العلم به .

هذا الضرب الأول من الاستفهام ، إلا أن الضرب الثاني قد يكون في غير طلب الفهم، وإنما هو إفهام لمن لم يفهم كائن من كان[3] ويسمى النوع الأول الاستفهام الحقيقي، ويطلق على الثاني الاستفهام المجازي أو البلاغي، وهو الذي : « ينشأ دون أن يقصد منشئه إلى طلب الجواب، و إن بقي إحتمال الجواب داخلا في بنية الجملة » [4] .

إن النوع الأخير من الاستفهام هو الذي يكون من اهتمامات الدرس البلاغي القديم والأسلوبي الحديث. ونحن إذ نجمع في دراستنا هذه بين القدم والحداثة؛ فالقدم يتمثل في تناولنا لنصوص الدراسة البلاغية القديمة، وفي الحداثة يكون وصفنا لبعض ملامح هذه النصوص من الوجهة الأسلوبية الحديثة .

وقبل البدء في هذه الدراسة المبنية على الوصف نذكر بأن الاستفهام طريق من

---

1 ـ الكشاف, ج1, ص 292 , 293.

2 ـ ينظر: احمد بن فارس, الصاحبي في فقه اللغة, المرجع السابق، ص 292.

3 ـ ينظر: السيوطي, الإتقان في علوم القرآن, المرجع السابق، ج2, ص 81.

4 ـ حسن عبد الجليل يوسف, أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي, مؤسسة المختار للنشر و التوزيع للاحسان, 2001م, ط1, ص 10.

طرق إنشاء الكلام، ويعتمد على أدوات هي: (الهمزة، وأم، وهل، وما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، ومتى، وأيانا). ويحمل معاني مجازية متنوعة عدّد منها ـ في النص القرآني ـ جلال الدين السيوطي إثنين وثلاثين معنى، والذي يهمنا من هذا كله هو تتبع طرق الزمخشري في تناوله لهذا اللون من الأساليب الإنشائية في الجمل القرآنية. ولما نتمعن فيما جمع لدينا من أمثلة ونماذج أبدى فيها الزمخشري رأيه نقول: إنه قد عالج هذه الأنماط من خلال محورين إثنين هما: محور المباني و محور المعاني .

1 – من حيث ترتيب المباني

إن تغير المباني يؤدي مما لا شك فيه إلى تغيير المعاني، ولعل هذا ما حاول الزمخشري الإشارة إليه في الفصل بين أداة الاستفهام والفعل الذي تستفهمه يقول هذا في قوله تعالى: **﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات و الأرض و هو يطعم ولا يطعم﴾**[1] , : « ...أولي غير الله همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو إتخذ، لأن الإنكار في إتخاذ غير الله وليا، لا في إتخاذ الولي فكان أولى بالتقديم، ونحوه ـ أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ـ آلله أذن لكم ...»[2].

يظهر في كلام الزمخشري أنه حاول تبرير الفصل في الترتيب بين الأداة والفعل المألوف إرتباطها به، لو كان الكلام عاديا، ولكن لما لم يكن بهذه الكيفية، فإنه لا بد من إيجاد مبرر أسلوبي يخول له التواجد في هذه الوضعية التي هو عليها في ترتيب عناصر الجملة؛ و لعل المبرر الأسلوبي قد صرح به الزمخشري في قوله السابق: «...لأن الإنكار في إتخاذ الله وليا لا في إتخاذ الولي فكان أولى بالتقديم»[3] والرسالة التي حملتها الجملة الاستفهامية الانكارية تتمثل ـ إلى جانب الحث على ترك أي ولي ما خلا الله ـ في الاستهزاء بالسائل و السخرية منه في ما طلبه من

---

1 ـ الأنعام, آية 14

2 ـ الكشاف, ج2, ص 08.

3 ـ المصدر نفسه .

المخاطب الذي هو كما في السياق رسول الله صلى الله عليه و سلم .

ويزيد الزمخشري إيضاحا لهذه الظاهرة ـ عندما يتناول قوله تعالى: **﴿ ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم و لو كانوا لا يعقلون ...أفأنت تهدي العمي و لو كانوا لا يبصرون ﴾**[1] ـ بقوله: « وقوله: أفأنت...أفأنت, دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر و الإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم و الأعمى المسلوبي العقل حديدي السمع و البصر...»[2] .

نفهم من هذا القول: أن الاستفهام على طريقة فصل الأداة عن الفعل و تكراره مرتين لفعلين مستقبلين ، قد أفاد معنى إستحالة وقوع هذين الفعلين من قبل المخاطب رسول الله صلى الله عليه و سلم .

ومن المفرقات ـ إلى جانب ما تقدم التي تحدث في التراكيب المحتوية على أساليب الإستفهام بأدواتها المختلفة ـ نذكر الحالة التي يأتي فيها الجواب مختلفا عن السؤال في ترتيب قواعد الإجابة العادية بين السؤال والجواب؛ فمثلا نأخذ الاستفهام الوارد في قوله تعالى: **﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري و عجلت إليك رب لترضى ﴾**[3]. ونبحث عن أوجه المفارقة فيه من خلال قول الزمخشري: « فإن قلت: وما أعجلك سؤال عن سبب العجلة كان الذي ينطبق من الجواب أن يقال طلب زيادة رضاك والشوق إلى كلامك وتنجيز موعدك. وقوله هم أولاء على أثري كما ترى غير منطبق عليه؟ قلت: قد تضمن ما واجه به رب العزة شيئين أحدهما إنكار العجلة في نفسها، والثاني السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه. فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما نكر عليه فاعتل بأنه لم يوجد منه إلا ما تقدم يسير مثله لا يعتد به ولا يحتفل له، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد

[1] ـ يونس, الآيتين 42 , 43.

[2] ـ الكشاف, ج2, ص 239.

[3] ـ طه, آية 83 , 84.

رأسهم ومقدمهم، ثم عقبه بجواب السؤال فقال: وعجلت إليك ربي لترضى»[1] .

إذا لقد إلتمس الزمخشري مبررا أسلوبيا ـ لعدم تناسق بين السؤال والجواب، في العملية التواصلية التي تمت بين موسى عليه السلام وربه ـ مفاده بسط الكلام على وجه التمهيد للدخول في الجواب عن السؤال، على إعتقاد موسى بأنه أهم في بدء الكلام قبل الدخول في الجواب المباشر للسؤال المطروح .

هذه إذا بعض الأمثلة التوضيحية لأساليب الاستفهامية في جانبها الترتيبي داخل التراكيب الجملية. وننتقل بعدها إلى تناول بعض منها في الجانب المعنوي .

2 ـ من حيث دلالة المعنى :

كما قلنا في السابق إن لأساليب الاستفهام المجازية معاني كثيرة قد بلغت على حد قول السيوطي السابق إتنين وثلاثين نوعا في القرآن الكريم. وتجنبا منا للتكرار ودرءا لرفع الملل عن القارئ نرسم جدولا بيانيا توضيحيا لأدوات الاستفهام والآيات الواردة فيها ومجمل وظيفتها التواصلية من منظور الزمخشري لها :

الجدول الأول :

أداة الاستفهام	الآية الواردة فيها	المعنى المجازي	رأي الزمخشري في وظيفتها التواصلية
الهمزة	« **أفأصفاكم ربكم بالبنين** » الإسراء 40	الإنكار	إنكار خصوصية الخلوص و الصفاء في الأولاد و هم البنون . ينظر: الكشاف, ج2, ص450.
	« **ألا إنهم هم المفسدون** » البقرة 12	التنبيه	تحقق ما بعدها ينظر: الكشاف, ج1, ص180.
	« **أفحكم الجاهلية يبغون** » المائدة 50	التعيير	تعيير لليهود بأنهم أهل كتاب و علم الكشاف, ج1, ص619.
	« **أكفرتم** » آل عمران 106	التوبيخ و التعجب	من حال أهل الكتاب . ينظر: الكشاف, ج1, ص 453.

---

[1] ـ الكشاف, ج2, ص 548 , 549.

	« سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » البقرة 06	التسوية	جردتى من معنى الاستفهام إلى معنى التسوية . ينظر: الكشاف, ج1, ص152, 153.
	« ألم يأتكم رسل منكم » الزمر 76	التوبيخ	يوبخون يوم القيامة بذا السؤال . ينظر: الكشاف, ج3, ص410.
	« أفي الله شك » ابراهيم 10	الإنكار	الكلام في المشكوك فيه . ينظر: الكشاف,ج2,ص 369.
	«أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون» سبأ 40	التقريع والتعريض	أن يقولوا ويسأل ويجيبوا،فيكون تقريعهم أشد، وتعييرهم أبلغ، وجهلهم أعظم . الكشاف ج3، ص29.
هـ ـل	« هل أتاك » الداريات 24	التفخيم و التنبيه	على أن الحديث ليس لرسول الله ρ و إنما هو وحي ينظر: الكشاف, ج4, ص17
هـ ـل	« هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » البقرة 246	التقرير	تبت أن المتوقع كائن و أنه صائب في توقعه . ينظر: الكشاف, ج1, ص378.
	« فهل أنتم منتهون » المائدة 91	النهي	منتهون من الصوارف أم أنتم على ما كنتم عليه لم توعظوا . ينظر: الكشاف, ج1, ص642.
	« وقيل للناس هل أنتم مجتمعون» الشعراء 39	الإستبطاء	لإستعجالهم للتجمع . ينظر: الكشاف, ج3, ص 112.
مـ ـا	« فبم تبشرون » الحجر 54	التعجب	فبأي أعجوبة تبشرون ينظر: الكشاف, ج2, ص 392.
	« عم يتساءلون » النبأ 01	التفخيم	تفخيم الشأن ينظر: الكشاف, ج4, ص 206.
كيـ ـف	« كيف كان عاقبة المنذرين » يونس 73	التعظيم	تعظيم و تحذير لسابق و لاحق ينظر: الكشاف, ج2, ص 246

	« كيف تكفرون بالله و كنتم أمواتا فأحياكم» البقرة 28	الإنكار و التعجب	إنكار لهم و تعجب من عملهم ينظر: الكشاف, ج1 , ص 269.

وفي تعليقنا على هذا الجدول نقول : إننا لم ندع أننا وقفنا على كل ما تناوله الزمخشري حول الإستفهام الوارد في جل الجمل القرآنية ، و إنما نستطيع القول ، بأننا قربنا إلى القارئ بعض الشيء أمثلة تطبيقية عملية حول ظاهرة الاستفهام المتواجدة في التعابير القرآنية من خلال رؤية الزمخشري لها في جانبها الأسلوبي التواصلي بين الباث و المتلقي و هو في العموم بين الخالق و المخلوق .

بوصولنا عند نهاية هذه التراكيب المحتوية على الاستفهام ننهي حديثنا حول الفصل الثالث بخاصة و البحث بأكمله على وجه العموم .

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، رواية حفص، عن نافع نال شرف كتابته الخطاط عثمـان طه، دار علوم القرآن، 1405هـ، الطبعة الاولى.

قائمة المصادر والمراجع

1- إبراهيم أنيس ومصطفى البابي، من أسرار اللغة، مكتبة الانجلـو المصـرية، 1966م، ط3.

2- إبراهيم بن المدير، الرسالة العذراء تقديم وشرح: زكي مبارك، دار الكتـب المصرية،القاهرة، 1931م، ط2.

3- ابن الأثير(ضياء الدين،637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: كمال محمد عويضة، دار محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، 1419هـ/ 1998م، ط1.

4- أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، مكتبة القاهرة، 1410هـ/ 1990م، (دط).

5- أحمد حساني، المكون الدلالي للاسم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائـر، 1993م، (دط).

6- أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعـة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، (دط).

7- أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، 1966م، ط6.

8- أحمد مختار عمر:

أ- البحث اللغوي عند العرب، 1402هـ/ 1982م، ط4.

ب- علم الدلالة، مكتبة العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، 1982م، (دط).

10- الإستربادي (رضي الدين محمد بن الحسن، ت686هـ)، شرح شافية بن الحاجب، دار الفكر العربي، (دت)، (دط).

11- الأشموني (علي بن محمد، ت929هـ)، شرح الأشموني لألفية بن مالك، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1955م، ط1.

12- الألوسي (محمود شكري، ت1342هـ)، روح المعـاني، دار الفكـر، 1403هـ/ 1983م، (دط).

13- الأنباري (أبو البركات، ت577هـ):

أ- الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، (دت)، (دط).

ب- نزهة الالباء في طبقات الادباء، مصر، 1294هـ، (دط).

15- الانصاري (ابن هشام عبد الله بن يوسف، ت761هـ):

أ- شذور الذهب، في معرفة كلام العرب، دار الكتب المعلمية، بيروت، (وهي رسالة في النحو).

ب- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، تحقيق: حسن محمد، وإميل يعقوب، دار الكتب العلمية، 1998م،ط1.

17- أنور المرϑى، سيميائية النÒ الادبي، إفريقيا الشرق، الدار البضاء، المغرب، 1987م، (دط).

18- أيمن عبد الباقي، الصرف الكافي، دار الكتب العلمية، لبنان، 1421هـ/ 2000م، (دط).

19- بالمر، علم الدلالة، نشر الجامعة المستنصرية، بغداد، 1985م، (دط).

20- بدوي طبانة، البيان العربي؛ دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العـرب، مكتبة الانجلو المصرية، 1381هـ/ 1962م، ط3.

21- بروكلمان، تاريǸ الأدب العربي، مطبعة الهيئة المصرية العامـة للكتـاب، 1893م، ط1.
22- بيار جيرو:
أ- علم الاشارة، ترجمة: منذر عياشي، طلاس، دمشق، 1988م، ط1.
ب- علم الدلالة، منشورات عوينات، لبنان، 1986م،ط1.
24- تمام حسان:
أ- اللغة العربية، معناها ومبناها، دار الثقافة، الجزائر، (دت)، (دط).
ب- مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1986م، (دط).
26- ابن تيمية (ت728هـ)، مقدمة في أصول التفسير، مطبعة الترقي، دمشق، 1355هـ/ 1936م، (دط).
27- الجاحẒ (أبو للر عمر، ت255هـ)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، 1975م، ط4.
28- جاكبسون، مدخل إلى علم اللغة، ترجمة: ديبوا شاولييه، لاروس، باريس، 1968م، (دط).
29- جرجي زيدان، تاريǸ آداب اللغة العربية، دار مـوفم للنشـر، لبنـان، 1993م، (دط).
30- ابن الجزري (ت833هـ)، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، دار الكتـب العلمية، 1980م، (دط).
31- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب، لبنان، 1982م، (دط).
32- ابن جني (أبو الفتح عثمان، ت833هـ):
أ- التصريف الملوكي، تحقيق: ديزيرة سقال، دار الفكر العربي، بيروت، 1419هـ/ 1998م، ط1.

ب- الخصائÕ، تحقيق: محمد النجار، دار الكتاب العربي، (دت)، (دط).
34- جوزيف ميشال شريم، دليل الدراسات الاسـلوبية، المؤسسـة الجامعيـة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1407هـ/ 1987م، ط2.
35- الجويني (مصطفى الصاوي)، منهج الزمخشري في تفسير القـرآن وبيـان إعجازه، دار المعارف، مصر، (دت)، ط3.
36- حسن Rيس الملÌ، نظرية الاصل والفرع في النحو العربي، دار الشـروق للنشر والتوزيع، 2001م، (دط).
37- حسن عبد الجليل يوسف:
أ- أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، دار العلم الثقافية، للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م، ط1.
ب- إعراب النÕ، دار الآفاق العربية، القاهرة، (دت)، (دط).
39- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطـوره إلى القـرن السادس، منشورات الجامعة التونسية،1981م، ط6.
40- أبو حيان الاندلسي (ت 745هـ)، البحر المحيط، دار الفكر، بـيروت، 1412هـ/ 1992م، (دط).
41- ابن خلدون (عبد الرحمان، ت808هـ)، المقدمة، المطبعة البهية المصرية، (دت)، (دط).
42- ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد، ت681هـ)، وفيات الاعيـان وأنباء أبناء الزمان.
43- راجي الاسمر ومحمد التونجي، المعجم المفصل في علوم اللغة، دار الكتـب العلمية، 2001م، ط1.
44- الرازي (أبو بكر فخر الدين)، التفسـير الكـبير، العـامرة، القـاهرة، 1308هـ، (دط).

45- الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، 1961م، (دط).
46- الرافعــي، إعجــاز القــرآن، دار الكتــاب العــربي، بــيروت، 1393هـ/ 1973م، ط9.
47- رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعللـه وقوانينـه، مكتبـة الخانجي، القاهرة، 1417هـ/ 1997م، ط3.
48- رooويت، مدخل إلى علم النحو التوليدي، باريس، 1968م، (دط).
49- ريمون طحان، الالسنة العربية، دار الكتاب اللبناني، 1981م، ط2.
50- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضـل إبـراهيم، دار الجيل، بيروت، دت، دط.
51-الزمخشري (جار الله محمود،ت 538هـ):
أ- أساس البلاغة، تحقيق:عبد الرحمان محمود، دار المعرفة، بيروت،1980م، (دط) .
ب- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويلفي وجوه التأويل، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (دت)، (دط).
ج- المفصل في صنعة الإعراب، تقديم:إميل بديع يعقوب، دارالكتب العلمية، بيروت، 1420هـ/1999م، ط1.
د- شرح مقامات الزمخشري، مصر،1325هـ، ط2.
55- السبكي (تاج الدين، 771هـ)، معيد النعم ومبيد النقم، ليدن، 1908م، (دط).
56- ابن السراج (أبو بكر محمد، ت316هـ)، الاصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م، (دط).

57- السكاكي (يعقوب بن يوسف)، مفتاح العلوم، ضبط وشرح:نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ط1.
58- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان، ت180هـ)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار القلم، لبنان، 1966م، (دط).
59- ابن سيناء، أسباب حدوث الحروف.
60- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان (ت911هـ):
أ- الاتقان في علوم القرآن، مطبعة حجازي، القاهرة، 1368هـ، (دط).
ب- الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، 1406هـ/ 1985م، ط1.
ج- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، مطبعة السعادة، 1326هـ، (دط).
د- طبقات المفسرين، مطبعة أوربا، (دت)، (دط).
هـ- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تصحيح: السيد محمد بدر الدين التعساني، 1320هـ، ط1.
65- الشريف قصار، معاني الحروف في القرآن، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، (دط).
66- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، بمصر، 1983م، ط6.
67- صبري المتولي، علم النحو العربي، رؤية جديدة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م، (دط).
68- صلاح فضل:
أ- علم الاسلوب، مبادؤه وإجراءاته، دار الشروق القاهرة، 1419هـ/ 1998م، ط1.

ب- بلاغية الخطاب وعلم النÒ، عالم المعرفة، 1992م، (دط).
70- الطبري (أبو علي الفضل)، مجمع البيان في تفسير القرآن، منشـورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (دت)، (دط).
71- ابن عاشور (محمد الطاهر)، تفسير التحرير والتنوير، الدارالتونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984م، (دط).
72- عاطف مذكور، علم اللغة بين التراث والمعاصـرة، دار الثقافـة للنشـر والتوزيع، القاهرة، 1987م، (دط).
73- عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، 1966م، ط3.
74- عبد الجليل مرتاض، التحليل اللساني البنيوي للخطاب، دار المغرب للنشر والتوزيع، لبنان، 2001م، 2002م، (دط).
75- عبد السلام المسدي:
أ- الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، 1982م، ط2.
ب- التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1986م، ط2.
ج- النقد والحداثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1983م، ط1.
78- عبد الصبور شاهين، المنهج الصوź للبنية العربية، مطبعة جامعة القـاهرة والكتاب الجامعي، 1977م، ط1.
79- عبد العزيز عتيق:
أ- علم البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، لبنان، 1982م، (دط).
ب- علم المعاني، دار النهضة العربية، لبنان، 1405هـ/ 1985م، (دط).
81- عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ):
أ- أسرار البلاغة، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، 1399هـ، 1979م، ط3.

ب- دلائل الاعجاز، تصحيح: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1402هـ/ 1981م، (دط).
83- عبد الله محمد الاسطي، الطريف في علم التصريف،كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، ليبيا، 1992م، (دط).
84- عبد المنعم الحفني، المعجم الفلسفي، الدار الشرقية، 1990م، ط.1
85- عبد الواحد حسن الشيÌ، العلاقات الدلالية والتراث البلاغــي، مكتبــة الاشعاع، 1419هـ/ 1999م، ط.1
86- عدنان حسين قاسم، الاθاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العــربي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1992م، ط.1
87- عدنان بن ذريل، اللغة والاسلوب، منشورات اتحــاد الكتــاب العــرب، دمشق، 1980م، (دط).
88- عز الدين خليل محمود، المفصل في النحو والصرف، دار البعث للطباعــة والنشر، قسنطينة، 1989م، (دط).
89- العسكري (أبو هلال)، الصناعتين، تحقيق: مفيد قميحــة، دار الكتــب العلمية، بيروت،1981م، ط.2
90- ابن عقيل (باء الدين)، شرح ابن عقيل على ألفية بن مالــك، تحقيــق: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، 1997م، ط.5
91- أبوالعلاء المعري، لزوم ما لا يلزم، دار صادر، بيروت، (دت)، (دط).
92- العلوي اليمني، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق علوم التاŊيل، دار الكتب العلمية، لبنان، 1980م، (دط).
93- عمر أوكان، اللغة والخطاب، إفريقيا الشرق، بيروت، 2001م، (دط).

94- غراتشي غابوتشان، نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي، ترجمة: جعفر دك الباب، مطابع مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، دمشق، 1410هـ/ 1980م، (دط).
95- الغلاييني مصطفى، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1991م، ط3.
96- ابن فارس (أحمد)، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، 1424هـ/ 1993م، ط1.
97- أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، القسطنطينية، 1286هـ، (دط).
98- فندريس، اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950م، (دط).
99- الفيروزبادي، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، (دت)، (دط).
100- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت)، (دط).
101- القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1950م، (دط).
102- القيرواني (ابن رشيق)، العمدة، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1963م، ط3.
103- مجموعة من المؤلفين (جلوريا، ج. يوردن، كاترين، س. هاريس، لورانس، رافائيل)، أساسيات علم الكلام، ترجمة: محي الدين حميدي، دار الهدى للثقافة والنشر والتوزيع، دمشق، 1998م، ط1.
104- مجموعة من المؤلفين (تودوروف، شان، ستروسن، دوميت، فرجة، بيت، دافيد سون)، المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، ترجمة وتعليق: عبد القادر قنين.

105- محمد توفيق محمد سعد، إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني، مطبعة الامانة، القاهرة، 1412هـ/ 1992م، ط1.

106- محمد حسين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، دار الحمامي للطباعة، (دت)، (دط).

107- محمد حماسة، النحو والدلالة، القاهرة، 1403هـ/1983م، (دط).

108- محمد خطابي، لسانيات النص، المركز الثقافي العربي، 1991م، ط1.

109- محمد سمير اللبدي، أثر القرآن والقراءات القرآنية في النحو العربي، دار الكتب الثقافية، الكويت، (دت)، (دط).

110- محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، 1982م، (دط).

111- محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الاسلوب في الشوقيات، منشورات الجامعة التونسية، 1981م، (دط).

112- مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في القرآن وبيان إعجازه، دار المعارف، مصر، (دت)، ط3.

113-منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية،إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1990م، (دط).

114- المنصف عاشور، التركيب عند ابن المقفع، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، (دط).

115-ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين، ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1412هـ/ 1992م، ط1.

116- مهدي المخزومي، في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر،1966م، ط1.

117- إبراهيم السامرائي، في النحو العربي، نقد وتوجيه، دار الصادق، بيروت، 1968م، (دط).
118- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطـاب، دار هومـة، الجزائـر، 1977م، (دط).
119- النيسابوري (نظام الدين القمي، ت900هـ)، تفسير غريب القـرآن ورغائب الفرقان، المطبعة الأميرية، 1323هـ،ط1.
120- هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ترجمة: محمد العمري، إفريقيا الشرق، 1999م، (دط).
121- ياقوت الحموي (ت626هـ)، معجم الادباء، نشر عيسـى البـابي، القاهرة، 1936م، (دط).
122- ابن يعيش (ت643هـ)، شرح المفصل، عالم الكتب، لبنـان، (دت)، (دط).

ـ المراجع الأجنبية المذكورة في البحث :

أ ـ الفرنسية:

1- charles bally, le langage et la vie 3eme ed.1959.Geneve .
2-Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique generale, ed. Payot .
3- Riffaterre Michel :
a/- Essais de stylistique structurale .
b/- Introduction à la grammair generative .

ā ـ الإ٦ليزية:

1- Brown G. and George yule, dixourse analysis C.V.P. London, 1983 .
2- The status of linguistiques A sience .

ـ اĂ٢ت :

1- أحمد محمد ويس، الانزياح وتعدد المصطلح، مجلة الفكر، اĂلد25، العــدد الثالث، يناير، مارس، 1997م.
2- سعد مصلوح:
أ- الدراسة الإحصائية لqسلوب، للاث في المنهج والإجراء والوۑيفة، عالم الفكر، الكويت، اĂلد الثاني، العدد الثالث، 1989م.
ب- الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، دار الفكر العربي،1404هـ/ 1984م، ط2.
3- محمد عبد المطلب، النحويين عبد القاهر وتشومسكي، مجلة فصول القاهرية، اĂلد الخامس، العدد الأول، 1984م.

فهرس الموضوعات

السورة	الآية	الصفحة
الفاتحة	01	69
	02	142 Û 50
	04	139 Û 134
	05	227
البقرة	02 Û 01	246 Û 57
	03	96
	05	248 Û 74
	06	260 Û 253
	07	99 Û 36
	08	239 Û 147
	09	94
	12	259
	13	244 Û154 Û153 Û63 Û62
	16 Û15 Û14	245
	17	223 Û 174
	19	224
	20	233 Û183 Û131
	21	199
	22	212 Û166 Û132
	23	89
	24	96
	25	188 Û152 Û70 Û64
	26	77
	28	261 Û159 Û141
	41	216
	51 Û 50	169
	54	182
	58	142
	69	180
	83	255
	87	84
	96	56
	97	68
	103	190
	109	119
	116	78
	133	188
	138	246

235	165	
134	177	
178 Û109 Û92	178	
97	185	
163	187	
118	204	
49	216	
119	220	
243	222	
238 Û181 Û133	228	
70 Û67	233	
260	246	
57	253	
211	256	
116	259	
213	275	
180	283	
90	03	آل عمران
116	12	
185	19	
176	26	
242 Û120	49	
120	50	
163	52	
186	66	
187	76	
131	82	
93	84	
234	97	
212	103	
251	104	
259	106	
117	111	
183	120	
46	125	
227	147	

254	154	
186	178	
154	192	
45	195	
177 Û136	04	النساء
227	11	
46	12	
220	23	
155	26	
155 Û112	65	
189	73	
112	77	
191	95	
192	98	
167	124	
188	125	
112	127	
136	135	
113	155	
192	159	
191	166	
188	03	المائدة
163	06	
58	49	
259	50	
165	62	
227	82	
223	83	
260	91	
170 Û133	01	الأنعام
170 Û135	02	
171	08	
257	14	

132	38	
109 Û35	70	
156	71	
143	78	
153	93	
191	95	
244	98 Û 97	
158	105	
157	113	
95	138	
144	139	
140	154	
39	04	الأعراف
189	42	
156	43	
158	62	
65	73	
187 Û 168	80	
90	84	
253	89	
133	102 Û 101	
58	113	
99	120	
40	143	
67	150	
209	172	
130	177	
242	187	
220 Û 145	189	
154	02	الأنفال
162	25	
138	04	التوبة
41	42	

139	**60**	
255	**79**	
250	**22**	يونس
45	**23**	
210	**24**	
217	**30**	
258	**43Û 42**	
187	**45**	
108	**50**	
260	**73**	
165	**98**	
179	**12**	هود
43	**35**	
175	**46**	
126	**48**	
88	**54**	
240	**60**	
128	**65**	
128 Û 71	**103**	
165	**116**	
143	**04**	يوسف
98	**05**	
110	**18**	
109	**20**	
199	**23**	
109	**24**	
75	**32**	
163	**33**	
254	**47**	
186	**65**	
202	**84**	
189	**100 Û 99**	
218	**01**	إبراهيم

260	10	
240	12 Û 11	
163	37	
216	41	
227 Û 131	47	
146	02	الحجر
192	04	
144	05	
107	11	
218	23	
260	54	
252	90 Û 89	
155	92	
40	09	النحل
66	27	
163	01	الإسراء
198	23	
259	40	
40	46	
137	100	
255	15	الكهف
160	22	
66	52	
236	75	
72	78	
182	78 Û 77	مريم
237	25	طه
55	27	
95	36	
233	45	
258	84 Û 83	
179	107 Û 106 Û 105	
175	04 Û 03	الأنبياء

227	79	
213 Û 179 Û 70	02	الحج
169 Û 91	05	
227	17	
211	31	
170	33	
237	46	
86	63	
247	67	
169 Û 167	12	المؤمنون
169	16 Û 15 Û 14 Û 13	
60	18	
157	36	
113	49	
82	76	
137	91	
164	14	النور
129 Û 127	16	
227	31	
127	34	
168	43	
108	63	
69	08 Û 07	الفرقان
73	32	
260	39	الشعراء
201	94	
161	186 Û 185	
65	01	النمل
163	33	
83	87	
75	91	
156	08	القصص
125	26	

43	68	
209	43	العنكبوت
77	64	
48	09	لقمان
40	17	
93	22	
198	67	السجدة
237	04	الأحزاب
227	07	
55	07	سبأ
128	32	
260	40	
250 Û 85	09	فاطر
236	14	يس
255	19	
54	20	
86	18	ص
98	32	
59	56	الزمر
260 Û 181	71	
181	73	
165	28	الأحقاف
83	01	الفتح
239	01	الحجرات
125 Û 86	07	
117	22	ق
214 Û 37	30	
37	31	
182 Û 108	33	
129	44	
154	10	الذاريات
141	12	
107	17	

260 Û 36	24	
143 Û 38 Û 25	25	
134	09	النجم
220	07	القمر
118	26	
216	31	
245	6 Û 5 Û 4 Û 3 Û 2 Û 1	الرحمن
140	18	الحديد
250	13	المجادلة
215	22	
125	02	الحشر
253	12	
82	02	الممتحنة
220	12	
155	08	الصف
165	10	المنافقون
129	01	التغابن
251	01	الطلاق
227	02	الملك
84	19	
201	06	الحاقة
55	12	
198	19	
49	17	الجن
130	23 Û 22	القيامة
260	01	النبأ
59	14	التكوير
79	03	البلد
	7 Û 6 Û 5	الشمس
67	01	الزلزلة
233	14 Û 13	العلق
146	04	الإخلاص

فهرس الموضوعات